اسرائيل في مواجهة جبريل

حرب الثلاثين عاماً ضد أخطر قائد فلسطيني

ترجمة

تحسين الحلبي

تقديم ومراجعة

اسماعيل دبج

بيسان للنشر والتوزيع

ترجـمة

تحسين الحلبي

اسرائيل في مواجهة جبريل

الترجمـة : تحسين الحلبي

تقـديـم ومراجعة : اسماعيل دبج

تنضيد وإخراج السيدة : جمال العريس

الطبـعة الأولـى : سنة 1997م.

الناشر: بيسان للنشر والتوزيـع والإعـلام

□ ص.ب: 5261 ـ 13 بيروت ـ لبـنان

□ هـاتـف: 351269

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم ...

مر وقت على العالم العربي كان لا يعرف فيه شيئاً ذي بال عن العدو، بل كانت هناك شبه محاربة رسمية لنشر المعلومات عنه.

وكانت جماهير أمتنا لا تعرف سوى أن هذا العدو عدو وكفى. كنا نقاتل عدواً نجهله تماماً، عدواً بغيضاً كريهاً شريراً ولا أكثر، وقد وقع في وعي الإنسان العربي أن الشر سيمحق لا محالة.

وجاءت كارثة عام /1967م/ لتجعلنا نفيق من غيبوبتنا، ونحاول أن نتعرف على هذا الغامض المجهول الذي هز أعمق أعماقنا، وأفقدنا ثقتنا بأنفسنا أو كاد.

وإذا كان في طيات كل نقمة نعمه كما يقال، فيبدو أنه كان لنا أن ننتظر الكارثة لنستفيق من غيبوبتنا المعرفية، وبدأ العالم العربي بمؤسساته وأجهزة إعلامه ومثقفيه ومواطنيه يحاول تلمس تقاسيم وجه هذا العدو، لأننا نريد في النهاية أن نقاتل كائناً حسياً ذا ملامح محددة نعرف نقاط قوته ونقاط ضعفه. لم يعد العدو غامضاً كما كان، بل أصبح في متناول الجميع تقريباً، إذ كثرت مؤسسات الدراسات والأبحاث المتخصصة في نشر المعرفة عن إسرائيل بشتى جوانبها، وخطوة مكملة في هذا الاتجاه أن نعرف، ليس عن العدو فقط بل أن نعرف أيضاً ما يقوله عنا وكيف يفكر بنا، وعلى أي نحو ينظر إلينا ومن أية زاوية يناقش وقائع وحقائق هذا الصراع الطويل، وكيف يرسم صورتنا. وربما يكون سهلاً نسبياً أن نجمع المعلومات عن العدو، ولكن الأصعب هو أن نعرف مركبات ذهنيته وكيف يفكر.

وجهد الأستاذ تحسين الحلبي في ترجمة هذا الكتاب إنما يقع في باب نشر معرفة ما يقوله العدو عنا وكيف يفكر بنا.

وثمة زاوية أخطر أيضاً، وهي أن نعرف كيف تروج إسرائيل لمفاهيمها وقراءتها للأحداث وتقديمها للآخرين وفق رؤيتها لإقناعهم بها، والأدوات التي تستخدمها في ذلك.

نُشر هذا الكتاب باللغة الإنكليزية في الولايات المتحدة، وظهرت طبعته الأولى عام / 1993م/ أي أنه مقدم بالأساس للقارىء الأمريكي والرأي العام الامريكي. وكان توقيت نشر هذا الكتاب في ذلك التاريخ مقصوداً بقدر ما كان مقصوداً مكان نشره، مما يجعلنا واثقين تماماً أنه أبعد ما يكون عن الدراسة العلمية، أو البحث المحايد، بل في الحقيقة هو جزء من الحملة الدعائية للكيان الصهيوني واللوبي الاسرائيلي لتأليب الرأي العام الأمريكي ضد قضية العرب المركزية، وضد بعض الدول العربية وبشكل خاص ضد فصيل فلسطيني محدد بل ضد شخص مناضل عربي فلسطيني تحديداً. ومن مقاصد هذا الكتاب أيضاً ترويج رؤية الصهيونية لحقائق هذا الصراع بما فيها من تشويه للحقائق في أوساط الجمهور الأمريكي والذي بالتأكيد، وكما يدرك المؤلف، لن ينقب ويتساءل عن صحة هذه المعلومة أو تلك الواردة في الكتاب ولن يضع ما يسوقه المؤلف مما يعتبره حقائق أمام التمحيص والتدقيق، وهذا ينبهنا أكثر فأكثر إلى أن عدونا يعمل دون كلل وفي شتى المجالات، وبنشاط متكامل ومدروس لكسب ود وتعاطف الرأي العم الأمريكي، وتصويرنا على أننا قتلة متعطشين للدماء، مما يضع على كاهلنا، وكاهل مثقفينا وأجهزتنا الإعلامية عبئاً مضاعفاً لموازاة هذا النشاط، ولا أخالنا بحاجة إلى التنويه بدور الكلمة والإعلام في هذا الصراع.

وسأستغل هذه السانحة لأؤكد أننا ما زلنا بعيدين على أن نكون نداً، نتغلب على العدو، في مجال الحرب الإعلامية ولا سيّما في ساحة الرأي العام الأمريكي، هذا رغم الإمكانيات المادية والعقلية الهائلة التي يملكها الوطن العربي، وما زال اللوبي اليهودي يصوغ الرأي العام الأمريكي بما يملك من أموال هائلة وسيطرة على وسائل الإعلام الرئيسية، وعلاوة على كل هذا فقد استطاع أن يكسب إلى جانبه الكثير من الكنائس والفرق المسيحية وسخرها، على رغم ما يبدو في هذا من تناقض لمصالحه ومطامحه. إن هذه حقيقة تبعث الحزن والأسى

في النفس ولكن لا بد من الإعتراف والإقرار بها. هذا إن أردنا يوماً ما أن نغير الصورة عما هي عليه في الواقع.

إن مؤلف هذا الكتاب «شموئيل كاتس» والذي يوصف بأنه خبير في مجاله كان ضابط استخبارات سابقاً (ربما وما زال) وله عدة مؤلفات في هذا المجال، إنما يختار في هذا الكتاب أسلوب تشويه الحقائق والوقائع ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

ورد في مقدمة الكتاب أن المؤلف استند إلى آلاف الوثائق وأرشيف المعلومات في دوائر الأمن الإسرائيلية المختصة، وذلك للإيحاء بأن هذا الكتاب هو توثيق علمي يعتمد على وثائق الأمن الإسرائيلية المختصة حتى يطرد من ذهن القارئ أي شك في صحة الروايات المتعددة التي يرويها المؤلف حول مختلف الأحداث، وفي الحقيقة ومع أن الوقائع هي الوقائع، ولا يستطيع المؤلف أو غيره تغييرها، إلا أن رواياته وتفسيره لها، ولسياقها وأهدافها إنما هي قطعاً روايات متحيزة في أغلبها بعيدة كل البعد عن الحقائق، والتثبت العلمي بقدر ما يتعلق الأمر بتفسيرها أو رسم خلفياتها، ويصعب حصر، ومناقشة كل ما ورد في الكتاب من ادعاءات باطلة في هذه المقدمة، ولعلنا إن أخذنا بعض الأمثلة تغني عن الشرح الكثير.

فالمؤلف وبمناسبة، وبدون مناسبة يصر أن لا هدف للحركة الفلسطينية المناضلة سوى قتل الأبرياء، ويتغاضى أولاً عن العمليات العسكرية البطولية التي قامت بها الفصائل الفلسطينية المسلحة ضد جيش العدو. هذا من جهة، ويتغاضى من جهة أخرى عن ذكر آلاف المدنيين الذين قتلتهم إسرائيل بدم بارد، في مجازر متكررة، وكانت بعض العمليات الفلسطينية رداً عليها، هذا علاوة على الجريمة الكبرى والتي تتمثل في طرد الملايين الفلسطينيين من وطنهم وتوطين غرباء مكانهم.

جريمة العصر الكبرى هذه لا يوردها المؤلف على أنها هي أساس، وجوهر كل هذا الصراع. يبدو أن الحقائق لا تقع موقعاً حسناً في قلب المؤلف، ومثال

على ذلك أنه يحاول إلصاق تهمة تفجير طائرة بانآم الأميركية على الجبهة التي لم تعد حتى الولايات المتحدة الأمريكية نفسها تتهمها بها، ضارباً عرض الحائط بأن أمريكا كانت مستعدة لبذل أي جهد لتثبت هذه التهمة، وما هذا إلا محاولة من المؤلف لاستفزاز القارئ الأمريكي وتعبئته ضد الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة وقائدها أحمد جبريل.

وحين يتحدث عن «موقعة الناعمة» مثلاً فإنه يسترسل في محاولة إظهار بطولات الجنود الصهاينة ولكنه يفشل مع ذلك فشلاً ذريعاً، ويبدو أن المؤلف وقع في حيرة من أمره، فإما أن يأخذ جانب القيادة العسكرية الإسرائيلية ويعطيها حقها بأنها قامت بكل واجبها من تخزين معلومات واستطلاع وتوفير أحدث ما انتجته التكنولوجيا من معدات قتالية بما فيها مناظير الرؤية الليلية والبنادق الموجهة بالليزر، وفي هذه الحال يكون الفشل فشلاً للجنود المقاتلين، بعدم تحقيق أهدافهم، أو أن يعزو الإخفاق إلى عدم دقة التخطيط والتجهيز القيادي. فهو حين وصف كل التجهيزات المعقدة التي كانت بحوزة الجنود المعتدين لم يجد سبباً يقنعه بهزيمتهم، وقد صعب عليه أن يضع المعادلة في شكلها الصحيح: إذا كانت الخطة دقيقة والتجهيزات عالية الجودة ومتفوقة على ما بحوزة المقاتلين الفلسطينيين، والمعلومات الاستخبارية متوفرة، فلماذا هذا لاخفاق الفاضح؟

الجواب البسيط والبديهي على هذه المعادلة البسيطة هو لأن الطرف الآخر مقاتلي القيادة العامة، كانوا أشد مراساً وأكثر بطولة وقدرة قتالية من مهاجميهم، وإن مستوى الشجاعة لديهم أعلى من مستوى شجاعة الجانب الآخر. وهذا على أية حال ليس إلا مثالاً من أمثلة كثيرة على أسلوب المؤلف الذي سيلاحظه القارىء ولا شك.

ولا يمكننا أن نسترسل أكثر في هذا السياق في توضيح المغالطات وتزييف الحقائق فهذه هي العقلية الدعائية الصهيونية في نشر أراءها وإيصال رؤيتها لمن تريد.

ومن ناحية أخرى فإن مثل هذا الكتاب يجعلنا نقف أمام مهمات وحقائق

صعبة، أولها أننا مازلنا متخلفين إعلامياً أمام الآلة الإعلامية الضخمة التي يسخرها العدو في حدودها القصوى لخدمة قضيته.

إن ثقتنا أن العقل العربي ناضج بما فيه الكفاية ليميز ما بين الحقيقة، والكذب في طيات هذا الكتاب هي التي جعلتنا نبقي على الكثير من تشويه الحقائق والمغالطات الواردة فيه دون حذف أو إشارة، مع أننا اضطررنا في أحيان أخرى إلى حذف مقاطع فيها دس واضح ورخيص للغمز من قناة بعض الدول العربية الشقيقة، وخاصة سوريا الصامدة، وذلك حتى لا نساعد في ترويج الكذب والدسائس، كما اضطررنا بعض الأحيان إلى إيراد توضيحات في الهامش حاولنا أن تكون قليلة قدر الإمكان، وعند الضرورة فقط.

ولا نعتقد أننا بحاجة إلى أن نذكر أن حقيقة ترجمة هذا الكتاب، ودفعه للنشر لا يعني أننا متفقون أو نقر كل ماجاء فيه، وكما قلنا سابقاً إن الدافع وراء ترجمة هذا الكتاب إنما هو المساهمة في زيادة وعينا لما يقوله عدونا عنا، ونحن في النهاية لسنا من المؤمنين بموضوعية عدونا وأمانته.

وعلى أية حال، فالوقائع صلبة وتفرض نفسها في كثير من الأحيان حتى عند من لا يرغب فيها، وهكذا، فإن الكاتب ومهما حاول أن يغالب الحقيقة، فإنه لم يستطع إلا أن يقر ببعض الحقائق والوقائع بما يخص الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين القيادة العامة وزعيمها أحمد جبريل.

ويكفي دلالة في هذا الشأن عنوان الكتاب ذاته «حرب الثلاثين عاماً ضد جبريل» أي أن هذا الكيان ذو القدرات الهائلة بنفسه وإمكانيات حلفائه إنما سخرت جميعاً وطوال ثلاثين عاماً ضد هذا المناضل والمنظمة التي يقودها، وان المرء ليشعر بالفخر أن يكون مناضلاً عربياً قد دب كل هذا الذعر والفزع في قلب عدوه، واستقطب كل حقده مما دفعه إلى زجّ كل ما لديه من جبروت ضده، ولكن دون نتيجة ترضي العدو.

فما زال هذا الفصيل الذي حاولت إسرائيل تدميره. كما يؤكد هذا الكتاب، ما يزال هذا الفصيل في طليعة الصفوف المتقدمة في مقارعة العدو دون رضوخ أو

تراجع سياسي أو عسكري، وما زال هذا المناضل العربي الفلسطيني أحمد جبريل، يقف في طليعة القادة الذين لم تأخذ من عزيمتهم بعض الانتكاسات هنا أو هناك. بل ما زال واضح الرؤية قوي العزيمة على مواصلة الدرب الذي بدأه قبل أكثر من ثلاثين عاماً هو وكوكبة من رواد النضال الفلسطيني من رفاقه. ولذلك فإن الحملة المعادية عليه مازالت في ذروتها، وما زالت حرب العدو الإمبريالي ضده وضد الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ تشتعل ضروساً أكثر منها ضد أي شخص آخر أو ضد أي فصيل آخر.

وما هذا الكتاب إلا جزء من هذه الحرب لتصويره أمام الرأي العام الغربي بأنه رجل متعطش للدماء، دون أن يجرؤ المؤلف أن يقول أن هذا الرجل إنما يحارب من أجل وطنه وقضيته.

يطلق المؤلف كلمة. . «إرهابي» على كل مناضل وكلمة القوى «الإرهابية» على الفصائل الفلسطينية المسلحة وحتى على كل حركات التحرر في العالم. وبينما استطاع المترجم أحياناً أن يحذف هذه الكلمة في بعض المقاطع أو يستبدلها بكلمة مجموعات مسلحة أو غيره، فإنه لم يستطع ذلك في مقاطع أخرى خوفاً من أن يؤدي ذلك إلى تخلخل في السياق والمعنى، فأبقاها كما هي، وأنه لواضح كما نعتقد أننا لا نشارك في هذه التسمية، وما بقاؤها في النص إلا لضرورات فهم المعنى.

وملاحظة أخيرة، قبل دفع هذا الكتاب إلى النشر. علمت أن المترجم راجع مسؤولي الجبهة المعنيين للاستيضاح عن بعض الوقائع التي وردت في الكتاب ورأيهم فيها، وقد أثبتت الملفات، والوثائق التي عرضوها بطلان الكثير من التفاصيل وكذلك بعض ما قيل على لسان المؤلف بأنه وقائع.

وحين سئلوا إن كان بالإمكان تثبيت ذلك في الهوامش، رفضوا لأنه على حد تعبيرهم «ليس من مهمتهم تصحيح معلومات العدو»، ويبدو أن هذا صحيح. علاوة على ذلك، فقد أضافوا أنهم لو أرادوا تثبيت ردودهم لاقتضى الأمر تأليف كتاب آخر.

نأمل أن تكون هناك فائدة للجميع من قراءة هذا الكتاب، ولا يسعنا إلا تقديم جزيل الشكر للأستاذ تحسين الحلبي على ما بذله من جهد طوعي في ترجمته وتوفيره للقارىء العربي.

ونسأل الله أن يمنحنا القوة جميعاً لمواصلة النضال في سبيل حقنا، إما أن نصل إليه أو نسقط شهداء دونه.

اسماعيل دبج

بيروت في 29/ 7/ 1996م

مقدمة غلاف الكتاب
للناشر الأمريكي

«لن يسلم أي مسافر على الطائرات الإسرائيلية أو الأمريكية» هذا ما تعهد به أحمد جبريل حين كان ضيف الشرف في أحد مؤتمرات العقيد القذافي.

بعد هذا الاعلان توجه إصبع الاتهام بتفجير بانام الأمريكية في رحلتها رقم 103 إلى احمد جبريل، الرجل الذي شن حرب أعصاب على إسرائيل والعرب، والذي ما زال غامضاً حتى الآن رغم مركزه المهم بين القادة الفلسطينيين. وهذا الكتاب «إسرائيل في مواجهة جبريل» الذي ألفه خبير المخابرات العسكرية الإسرائيلية (شاموئيل كاتس)، يعتبر من أوائل الكتب التي تحلل البراعة في استخدام العنف، في تلك الحرب السّرية. كما يحلل المضاعفات التي تولدت عنها في أنحاء العالم.

فجبريل الذي يعتبر أباً «الإرهاب التقني» قد أحدث ثورة في حرب العصابات وذلك من خلال استخدامه إبتكارات جديدة. فهو أول من قام بشن غارات الكوماندو «الفدائية» في عمليات القتل المباشر دون تمييز. كما وأنه هو أول من استخدم هجوم الطائرات الشراعية، وأول من استخدم الرسائل المتفجرة، والأسلحة التقنية الأخرى في عملياته. وفوق كل ذلك كان جبريل أول من اجبر إسرائيل على إجراء عمليات تبادل للأسرى، وكسر بذلك تعهدها بعدم القيام بمثل هذا العمل، حين أجبرها على إطلاق سراح 1150 «فدائي» عربي من السجون مقابل إطلاقه لسراح ثلاثة جنود إسرائيليين وقعوا في اسرى في منظمته، وذلك ضمن عملية تبادل هزت العالم بما حملته من إذلال قاس لإسرائيل* . . .

---

* المقصود هنا عملية الجليل لتبادل الاسرى التي تمت بين الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة والكيان الصهيوني عام 1985 بإشراف الصليب الأحمر ووساطة نمساوية، علماً أن هذه العمليةلم تكن الأولى التي اجبرت فيها القيادة العامة الكيان الصهيوني على اطلاق سراح فدائيين من الاسر. فقد كانت العملية الاولى هي عملية النورس التي جرت عام 1979 وتم فيها تحرير 76 اسيراً فلسطينياً.

وكتاب «إسرائيل في مواجهة جبريل. . .» عبارة عن لوحة مفزعة لرجل ضلل جميع الوسائل الحديثة التي استخدمتها قوات الأمن ضده. . .

ولأن كاتس كتب كتابه هذا بالتعاون مع الجيش الإسرائيلي، فقد كان بمتناوله ملفات أمنية استخبارية، وخبرات كثيرة من المخابرات الإسرائيلية. وقد سلط مؤلفه هذا أضواء جديدة ذات طابع استفزازي، حول دور جبريل في إشعال الحرب اللبنانية وإشعال الانتفاضة ضد إسرائيل، وحول تضافر قوته العسكرية مع الإمكانات المالية المتوفرة في الشرق الأوسط، والخارج، وحول بنائه الذكي لقوة هجومية من «التكنوفدائيين» ـ يطلق الكاتب عليها صفة («تكنوإرهابيين» ـ المترجم).

كما يتحدث كاتس عن الحسابات الدقيقة لتاريخ تدمير الطائرة الأمريكية بانام 103، وعن الدور الإسرائيلي السري الذي لم يكشف من قبل، والذي كان من الممكن أن يؤدي إلى تجنب هذه المأساة.

ويقول مراسل تحقيقات شبكة (السي إن إن) الأمريكية الشهيرة ستيفن ايميرسون: آن كتاب «إسرائيل في مواجهة جبريل» يمثل فيلما من أفلام العنف السياسي المستمرة على نحو اكثر واقعية من أفلام هوليود، وقد وثق وجرت كتابته بتفاصيل كاملة. . . فإذا أردت الحصول على صورة داخلية للعالم الحقيقي ـ (لحرب العصابات الحديثة) (يطلق عليها الكاتب حرب الإرهاب) ـ والحرب المضادة، لها فقراءة هذا الكتاب ستجعلك تسهر طوال الليل. . .».

وشموئيل كاتس كان قد كتب ثلاثين مؤلفاً حول الجيش الإسرائيلي، والمخابرات الإسرائيلية. . . .

الناشر

مقدمة المؤلف شموئيل كاتس

كان يتعين على الرياح الجارفة التي تلت عملية عاصفة الصحراء، في أوائل عام 1991 أن تؤدي إلى إحداث تغير دائم في ذلك الشرق الأوسط المضطرب، والمتوتر، خاصة وأن النظام العالمي الجديد، أخذ يشق طريقه كحقيقة عملية داخل الحملة الدولية التي استهدفت هزيمة رجل العراق القوي صدام حسين بعد احتلاله للكويت. وكانت الولايات المتحدة ، التي أيدت العراق أثناء حربه مع إيران، تقف في طليعة هذه الحملة المصممة على تحرير الكويت من قبضة العراق، وعلى إبعاد الضغط العسكري العراقي عن حقول النفط السعودية الفائقة الأهمية.

ولإنجاز هذه المهمة. قام الرئيس بوش بتشكيل تحالف عربي دولي غريب، جمع أطرافه على نحو ذكي، لجعل عملية تدمير النظام العراقي مقبولة من الناحية السياسية للجمهور الأمريكي في بلاده.

وقد سارع السعوديون، والمصريون بفعل اعتمادهم على القدرة العسكرية الكثيفة لآلة حرب الولايات المتحدة إلى قيادة قوات التحالف. العربي المعادي لصدام، وانضمت سوريا ـ إلى هذا التحالف ومع أن القوة السورية* الرمزية من الناحية العسكرية التي تمركزت في الصحراء السعودية، لم يكن لها إلا الأثر القليل على المجرى الفعلي للقتال، إلا أن قيمتها السياسية على التحالف الدولي، وخاصة على الأطراف العربية فيه بدت حيوية. ومع ذلك فقد كان الخيط الرفيع الذي يربط تأييد سوريا لهذا التحالف هو عدم مشاركة إسرائيل في هذا التحالف وتلك الحرب.

---

* الواقع أن سوريا اتخذت موقفاً مميزاً فهي وقفت ضد احتلال الكويت بالقوة، وكان الهدف من مشاركتها هو تحرير الكويت وطمأنة السعوديين، ولم تكن ضمن التحالف بقيادة امريكا والذي شن الغارات على العراق بقصد تدميره. كما أنها حاولت ابقاء المسألة في الاطار العربي.

ففكرة انضمام القوات السورية، والإسرائيلية في قتال مشترك ضد عدو مشترك ـ عربي بشكل خاص ـ كانت فكرة بغيضة جداً لا يمكن للرئيس الأسد أن يفكر بها مهما كانت أسبابها.

وحتى تمنع الولايات المتحدة إسرائيل من الاشتراك في الحرب، حتى بعدما بدأت صواريخ ـ السكود ـ تتساقط فوق تل أبيب اضطرت الإدارة الأمريكية إلى تقديم وعود كثيرة، وخطرة لها بما في ذلك إرسال طواقم أمريكية، لتشغيل صواريخ ـ الباتريوت ـ في إسرائيل. وبهذا ضمنت إبعادها عن المشاركة الفعلية في الحرب رغم تعرضها إلى 38 هجوم صاروخي عراقي.

هكذا برهن ائتلاف ـ بوش ـ على تماسكه، وظهر أن المنطقة بكاملها قد استفادت من قهر صدام حسين.

وقد كان لواشنطن مطالبها الخاصة أيضاً، مقابل قيادتها للائتلاف المعادي لصدام. فبغية تدشين نظام عالمي جديد بعد تلك الحرب دفعت الولايات المتحدة العرب، والإسرائيليين إلى الاشتراك وجهاً لوجه في مؤتمر السلام. وهكذا أصبح الوقت ناضجا للوفد القادم من القدس للجلوس إلى طاولة ضمت إلى جانبه وفود من سوريا ومصر والأردن والفلسطينيين. كان العرب والإسرائيليون على السواء يرفضون محادثات السلام، ولكنهم لم يستطيعوا تجاهل المطلب الأمريكي بالجلوس معاً. وكان اختيار موقع محايد هو العاصمة الأسبانية مدريد يشكل تعبيراً عن تاريخها المشترك مع التاريخ اليهودي والعربي معاً.

لكن زعماء شعوب الشرق الأوسط لم يستهلوا مغامرتهم التاريخية نحو السلام بعناق المحبين، وإنما في ظل ستار أمني محكم.

ففي جميع أنحاء المؤتمر انتشرت قوة كوماندو مكافحة «الارهاب» الاسبانية التابعة لقوات العمليات الخاصة. ولوحدات التدخل الخاصة لتعقب أي قوة «إرهابية» تستهدف عرقلة المسيرة البطيئة نحو السلام لم يكن التنبه الاسباني مجرد حذر روتيني فبينما كانت الوفود الإسرائيلية والعربية تتبادل شروطها الدقيقة للتعايش السلمي كان سماسرة القوة الحقيقية يتجمعون في عاصمة عالم آخر.

في ذلك التاريخ 20/10/1991 مرّ يوم خريفي لطيف على طهران العاصمة الإيرانية ـ حيث كان 400 ممثلاً، من الأسماء المعروفة في عالم «الإرهاب»* العربي والإسلامي يعدون ـ وهم مجتمعون خارج المبنى الكبير للبرلمان وسط طهران وبحراسة مئات من قوى الحرس الثوري الإيراني الجاهز للاستشهاد في سبيل الدفاع عن الإسلام ـ جدول أعمال مستقبل نظامهم العالمي الجديد: «إعلان الحرب المقدسة العالمية». كان هؤلاء يخططون لشن عمليات تستهدف القضاء على دعوات السلام وبحيث تشمل كامل منطقة الشرق الأوسط، وبقية أنحاء العالم ـ عبر إشعال حريق شامل يستمر لعقود ويؤدي إلى قتل عشرات الآلاف من البشر ـ وقد كان أول عمل وعدوا أنفسهم بالقيام به هو تصفية جميع الزعماء المشاركين في مؤتمر السلام في مدريد باستثناء الرئيس السوري حافظ الأسد بالطبع، وفي نفس الوقت الذي كان فيه رئيس وزراء إسرائيل إسحاق شامير يلقي خطابه أمام نظرائه السوريين والأردنيين والمصريين والفلسطينيين كان رئيس جمهورية إيران آية الله علي أكبر هاشمي رفسنجاني يخاطب نظراءه مفتتحاً أول لقاء لمؤتمر المعارضة الذي تشكل من زعماء أخطر المنظمات المسلحة في العالم والتي كانت تجتمع تحت رعاية الثروة وبرميل البارود لإدخال العالم إلى شبكة الفزع والرعب.

وتحت أنوار «ثريا» كبيرة من الكريستال التشيكي، كان الرجال الذين جعلوا من السفر الجوي مهمة خطرة يجلسون ملتصقين على مقاعدهم المخملية ويدعون من المنصة إلى تبني استراتيجية عنيفة لتقويض مؤتمر السلام المعقود في العاصمة الأسبانية.

كان الاجتماع يمثل خمسةً وأربعين شعباً، ورغم أن رجالاً مثل جورج حبش مؤسس الجبهة الشعبية ونايف حواتمه قائد الجبهة الديمقراطية اتخذا امكنتهما الصحيحة بين الجمهور إلا أن أهم ضيف في المؤتمر كان يجلس في الصف الأول تماماً: أحمد جبريل قائد إحدى أعنف المنظمات المسلحة على الساحة الدولية ـ الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين / القيادة العامة.

* هكذا يطلق المؤلف هذه التسمية على كل القوى المناضلة العربية والاسلامية والثورية.

ورغم وجود الكثير من التغطية الصحفية والضجيج لهذا المؤتمر إلا أن وجود جبريل في طهران لم يكن من أجل الصحافة بل من أجل العمل (البيزنيس)، لأنه ذهب إلى طهران لتشكيل تحالف عسكري بين المنظمات المسلحة الفلسطينية المتشددة وبين الحركات الأصولية الإسلامية المدعومة من طهران، والموجودة في إيران ولبنان والأردن، ومصر، والجزائر، والسعودية، وتركيا، وكذلك الحركات الإسلامية في الأراضي المحتلة في الضفة الغربية وقطاع غزة.

كان جبريل يعمل على تشكيل هذا التحالف منذ صيف عام 1988. عندما قام استناداً لتقارير المخابرات الأمريكية بتفجير طائرة الركاب الأمريكية في السماء* كما وعد وهو يتحدث على المنصة: «إن تحالفاً كهذا سوف يشرك مليون مقاتل مسلم في الحرب ضد إسرائيل ويؤدي إلى تدمير الدولة اليهودية ومؤيديها».

لم يستخف أحد في طهران، أو في القدس بتهديدات جبريل بهذا الشأن. فقد يكون أبو نضال أسوأ الزعماء الفلسطينيين سمعة في العالم العربي ولكن أحمد جبريل أشدهم عنفاً. فما أن جاءت تلك الليلة المصيرية فوق القرية الاسكوتلاندية الصغيرة لوكربي حتى أخذ العالم يسمع الكثيرعن هذا الرجل الذي يبلغ الثانية والستين والمولود في يازور* ـ ضاحية صغيرة تابعة لتل أبيب. لم يكن جبريل شخصية تحب الأضواء كياسر عرفات الذي يستثمر كل مؤتمرات العالم الثالث، وبرامج المقابلات التلفزيونية والتوثيق الغريب. وكما أنه لم يكن أبداً ضيف برنامج تيدكوبل المسمى (خط الليل) نايت لاين.

يفضل جبريل عالم الظلال. عالم العمليات الحاسمة على كلمات الخطابة، يفضل عالم حياكة المؤامرات وعالم النتائج المميتة على وعود الدعايات (وعود البروباغندا).

إن جبريل والناس الذين يقودهم لا يخشون مواجهة ألد أعدائهم في ميدان

* ـ واضح أن المؤلف يستخدم سوء النية هنا، ويروج الموقف الرسمي لاسرائيل، إن الولايات المتحدة نفهسا عرفت أن هذا الاتهام غير صحيح واقلعت عنه. والغريب أن المؤلف يقرر ذلك وكأنه حقيقة مثبته، ولا يقول مثلاً انه سرت شائعات تفيد كذا وكذا..

* قرية من قرى يافا.

المعركة، بل هم في الحقيقة بل يعتزون بمجابهة قوة إسرائيل العسكرية المتبجحة «وكلما كان طابعها مثيراً كلما كان أفضل لهم» سواء أجرت المجابهة في الخط الساحلي اللبناني أو داخل التلة القاسية المشرفة على وادي صحراء النقب. ومن مساوىء حظ إسرائيل والغرب أن هذه المعارك جرت اكثر من مرة حسب شروط جبريل.

تمثل الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ التي يقودها جبريل لكل من إسرائيل والغرب التهديد الأكبر. وقد جرت بين إسرائيل وهذه الجبهة مجابهات دامية لم يكن منها مفر خلال اكثر من ثلاثة وعشرين عاماً. ولم يفلح سوى القليل من قادة الإرهاب بتوجيه ضربات متواصلة إلى عصب الدولة اليهودية مثلما أفلح جبريل، فبصمة فعاليته التقنية، ودقته العسكرية تميزها بعض الأكثر العمليات دموية في تاريخ الأعوام الثلاثة والأربعين للصراع العربي ـ الإسرائيلي . فمن كريات شمونا في شمال الجليل، إلى ليلة الطائرات الشراعية وماتلاها من اندلاع للانتفاضة، ومن تدمير الطائرات المدنية فوق جبال الألب في سويسرا، والقرية الاسكوتلاندية، إلى خطف الطائرات، وإرسال الرسائل الملغمة، ومن عمليات الخطف البشرية، وأخذ الرهائن إلى القتل بلا تمييز. في كل هذا كان جبريل وفياً لتعهده بشن حرب دموية، ضد الدولة اليهودية خاصة وأن شن الهجمات الدموية والجريئة ضد إسرائيل ـ وحلفاءها ـ هو الأيديولوجية الأساسية للجبهة الشعبية ـ القيادة العامة، وبالمقابل كانت المؤسسة العسكرية الإسرائيلية تكرس الكثير من مصادرها للتوصل إلى تصفية جبريل. فعبر العشرين سنة الماضية قام سلاح الجو الإسرائيلي بشن مئات من الغارات الجوية الوقائية، والانتقامية على قواعد الجبهة في لبنان. كما أرسلت إسرائيل وحداتها القتالية في عمليات كوماندو، واغارات استعراضية لتحديد المواقع، وتدمير جبريل، ومنظمته وكرست أجهزة مخابراتها الثلاثة الشهيرة ـ الموساد (فرع التجسس الخارجي) ـ والشين بيت (فرع مكافحة التجسس والإرهاب) ـ وأمان (فرع المخابرات العسكرية) جهودا ضخمة لتدمير الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة .

وكان الطرفان قد سارا إلى الحدود القصوى في هذه اللعبة المميتة في سعي كل منهما للتفوق على الآخر مستخدمين أكثر أدوات التدمير غرابة، فقد قام جبريل

بزرع القنابل في المسجلات، وأجهزة الراديو، واستخدم امرأة غربية لا يشك بها لحمل العبوات إلى طائرات الركاب، وارسل وحدات الكوماندو الانتحارية إلى داخل إسرائيل عبر الطائرات الشراعية محرزاً نتائج قاتلة، وبالمقابل قامت إسرائيل باستخدام أقصى وسائلها لتدمير جبريل بدءاً من إرسال أفضل وحدات النظام القتالي للجيش الإسرائيلي في عمليات يعتبرها الرجل العادي هجمات انتحارية بهدف تدمير قائد الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة. حتى بلغ الأمر بالجيش حد استخدام الكلاب الانتحارية (Kamikas dogs) التي تحمل على ظهورها المتفجرات لتفجير القائد المراوغ في داخل نفقه تحت الأرض*.

بيد أن الإسرائيليين وهم أقوى قوة عسكرية في المنطقة ، فشلوا في مهمتهم المؤلمة هذه. فجبريل ما يزال في مقدمة الداعين للحرب الفلسطينية المقدسة ضد دولة إسرائيل. وحرب إسرائيل ضد أحمد جبريل ومنظمة الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ هي كفاح فريد لا يرحم حشد شعبٍ يزيد عدده على خمسة ملايين ضد ما لا يزيد على ألف من الرجال المصممين والمدربين.

وعلى غرار الأبعاد الاخرى للصراع العربي ـ الإسرائيلي، فقد توسعت الحرب بين، الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ وإسرائيل لتصل إلى الساحة الدولية أيضا. إن الحرب بين إسرائيل ـ والجبهة هي صورة مصغرة للصراع العربي ـ الإسرائيلي وهي في الوقت نفسه قصة الاستحواذ المتمثلة في: رغبة جبريل بضرب عصب الدولة اليهودية للإسهام في تحقيق تدميرها من جهة، وتعطش إسرائيل للانتقام وتطبيق العدالة التوراتية ضد أفراد جعلوا مهمتهم في الحياة قتل المدنيين الأبرياء. وتقويض أمن الشعب اليهودي من الجهة الأخرى.

هذه الحرب هي الكفاح الذي يعود إلى نشوء أزمة اللاجئين الفلسطينيين عام 1948، وهي الحرب التي ستمثل الصراع الذي قد بدأ للتو، بعد أن دخلت أحداث الشرق الأوسط هذا العقد الحاسم للأصولية الدينية المتطرفة.

---

* شأن كل الإسرائيليين ، يبكي المؤلف على قتلاهم ويدعي بأنهم مدنيون ابرياء، ولا يذكر مئات المجازر التي ارتكبتها اسرائيل بحق المدنيين العرب سواء في فلسطين او خارجها. هذا مع العلم آن 99% من عمليات الجبهة ـ القيادة العامة كانت ضد جنود مسلحين واهداف عسكرية.

الفصل الأول

تقويض أمن العالم

الفصل الأول

تقويض أمن العالم

روما ـ 22/ 7/ 1968 ـ لم يكن بوسع مطار فيوميشيونو الدولي ـ روما ـ بجميع أشكال مظهره الخارجي، ونشاطه البالغ الابتعاد عن النزاع الدموي لأعنف سنة في ذلك العقد. الآلاف من المسافرين كانوا يتحركون في أرجاء ممرات قاعات المطار ممسكين بحقائب سفرهم الصغيرة، والكبيرة. .

بمبلغ من النقود، وبجواز سفر، ووكيل سفر ذكي يمكن تسهيل هروب جوي لأي مواطن عادي ـ المسافات بين القارات أصبحت الآن مجرد مشكلة ساعات قليلة. فوجود السفر الجوي، وما يقدمه أدى إلى منح حرية واسعة، وجديدة لمواطني العالم.

هكذا أصبح العالم حقاً مجرد قرية عالمية. لذلك وفي غضون ساعات قادمة أيضاً سيقع التهديد العالمي لأن عصر «الإرهاب» الجوي قد بدأ فجره للتو يبزغ.

ولأن الفلسطينيين هم أيضاً جزء من هذه القرية العالمية فسيثبت عام 68 بأنه عام بالغ الأهمية بالنسبة لآمالهم، وتشوقهم للانتقام.

كانت قد مرت سنة في ذلك الوقت على حرب الأيام الستة عام 1967، الحرب التي حولت الدعاية العربية، والتبجح العربي بالقوة إلى هزيمة مذلة في أرض المعركة. فقد تحولت في ذلك الوقت دعوة عبد الناصر رئيس مصر إلى

قذف الدولة اليهودية إلى البحر* إلى دعوة تبناها معظم العرب. فقد كان الهدف من حرب عبد الناصر ضد إسرائيل هو إنهاء* الظلم الفادح الذي وقع عام 1948 ـ أي إنشاء دولة إسرائيل ـ وتصحيح الوضع لثلاثة ملايين لاجيء فلسطيني خرجوا إلى بؤس وفساد المهجر. .

كان عدد سكان العالم العربي يفوق المائة مليون. بشكل يزيد كثيراً عن عدد سكان إسرائيل الذي لا يتجاوز الأربعة ملايين، وكان العرب قد صرفوا الأموال الطائلة على الدفاع وعلى شراء احدث الأسلحة السوفييتية. ولذلك توفر للبلدان العربية ميزة التفوق على إسرائيل بالسلاح أيضاً.

وبالإضافة إلى هذا قام الزعماء العرب عندما أخذت موجات الحرب تعلو وتكتسح إسرائيل، وتهدد وجودها نفسه في ربيع وصيف عام 1967 بإبلاغ الفلسطينيين بحزم حقائبهم استعداداً لاستعادة منازلهم في فلسطين. . ولكن إسرائيل بدأت بالضربة الأولى.

فعند الساعة 45,7 من صباح يوم 5/6/1967 قامت إسرائيل باستخدام قدرات سلاحها الجوي، ووجهت ضربة وقائية ضد أسلحة الجو المصرية والسورية والأردنية والعراقية حيث نجحت خلال ساعاتٍ معدودة في تدمير خمسمائة طائرة عربية معظمها على الأرض. وبفعل تفوقها الجوي المطلق تمكنت قوات إسرائيل البرية من الاندفاع بقوة لاحتلال صحراء سيناء وتدمير الكثير من قوات الجيش المصري القوي، ونجحت خلال أقل من 72 ساعة في احتلال صحراء سيناء وقطاع غزة وتمركزت على طول قناة السويس. كما قام الجيش الإسرائيلي بعد أن هاجمته القوات الأردنية بشن هجوم مضاد مكنه من احتلال القدس ـ المدينة المقدسةـ وكذلك الضفة الغربية من الملك حسين. وفي 9 حزيران قامت إسرائيل

---

* هذه الجملة ـ التهمة لم ينج منها زعيم عربي ، فهي تلصق بظهر الشقيري تارة، وها هي تلصق بظهر الراحل عبد الناصر.

* الحقيقة هي أن اسرائيل هي التي خططت للحرب وباشرت بها بتنسيق مع ادارة جونسون في الولايات المتحدة، ولم تكن نية عبد الناصر بدء الحرب ابداً.

بشن هجوم كاسح لاحتلال مرتفعات هامة كانت سوريا تطلق منها قذائف مدفعيتها على المستوطنات الزراعية المحيطة ببحيرة طبريا. وفي 10 حزيران توقفت الجيوش العربية عن الحرب بعد تحطمها. وهكذا جرى تغيير الشرق الأوسط إلى الأبد خلال ستة أيام من الدم والنار.

أما بالنسبة للفلسطينيين فقد أثبتت حرب حزيران للمرة الثانية خلال تسعة عشر عاماً فراغ وفشل وعود زعمائهم بتحقيق الانتصار على إسرائيل. إذ لم يفقدوا الفرصة بتدمير إسرائيل للأبد فحسب، وإنما اصبحوا الآن في مواجهة قوة عظمى إقليمية. فإسرائيل التي كانت صغيرة في السابق أصبحت الآن تمتلك عمقاً استراتيجياً، وتشكل اكبر قوة عسكرية في المنطقة. وهكذا تحولت إمكانية تدمير تل أبيب أو تحرير حيفا من «أمر مؤكد الحدوث» إلى خيال لا يمكن بلوغه بل إلى سراب يلخص حقيقة يأسهم، ونكبتهم المأساوية.

ولأن زمن المعجزات قد ولى مثلما ولى أيضاً اعتماد الفلسطينيين على العرب الآخرين بوعد التحرير، ظهرت الحاجة لثورة فلسطينية إذا ما أريد للتحرير أن ينجز.* ولو عدنا لأيار عام 1964 يوم أعلنت منظمة التحرير الفلسطينية ـ المظلة التي تضم جميع المنظمات السياسية والعسكرية الفلسطينية ـ بقيادة الشقيري في القاهرة ـ لوجدنا أن تلك المعادلة التي شكلت نواة المعادلة العسكرية للمطالبة باسترداد أرض فلسطين من اليهود لم تكن سوى منظمة الشقيري ـ الدبلوماسي القديم ـ الذي دعى إلى رمي «اليهود بالبحر».

كان الشقيري على أي حال «دمية» تابعة لرئيس مصرعبد الناصر ـ الرجل الذي استغل الفلسطينيين لخدمة سياسته القومية.

ولكن سيطرة الشقيري على المنظمة بدأت تتقوض على يد عدد من الكوادر ـ

---

* ـ الثورة الفلسطينية كانت قد بدأت قبل ذلك بكثير ـ فإنها حقيقة معروفة الآن انه كانت قد تشكلت فصائل فلسطينية سرية في الدول العربية المجاورة تؤمن بتحرير فلسطين بالكفاح المسلح وحرب الشعب طويلة الامد، وفي طليعة هذه الفصائل كانت الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة التي كان تشكيلها السري قد بدأ منذ أواخر الخمسينات.

بعضهم كان يعمل في الكويت ـ حيث أنشؤوا منظمة فتح كحركة فدائية سرية أخذت تتبرعم ـ ليس على غرار المنظمات السياسية الشيوعية ـ في عدد من العواصم العربية داعية الفلسطينيين إلى الاعتماد على الذات في شن الكفاح المسلح ضد إسرائيل.

وكان قادة فتح الثلاثة هم صلاح خلف (أبو أياد) وخليل الوزير وثالثهم مهندس من القاهرة سيجسد بشخصيته الثورة الفلسطينية عبر ثلاثة عقود ـ هو ياسر عرفات ـ وقد عرفت تلك المنظمة بتبني خمس نقاط نظرية تشكل دليلاً لإبادة إسرائيل.

1 ـ تحرير فلسطين.
2 ـ تبني الكفاح المسلح لتحقيق هذا الهدف.
3 ـ الاعتماد على التنظيم الذاتي الفلسطيني.
4 ـ التعاون مع القوى العربية الصديقة.
5 ـ التعاون مع القوى الدولية الصديقة.

وقد استطاع ياسر عرفات تدريجياً بمساعدة الأجهزة العسكرية والاستخباراتية التابعة للدول العربية حشد قاعدة تحتية فدائية علق عليها آمالا بأن تصبح ناجحة كنجاح حرب عصابات الصين الشعبية وكوريا الشمالية وفيتنام الشمالية. كانت رغبة عرفات طموحة، وربما في غير أوانها. وفي الأول من كانون الثاني عام 1965 قامت فتح بأولى عملياتها ضد إسرائيل. إذ زرعت عبوة في ممر أنابيب المياه بجانب بحيرة طبريا. وعلى الرغم من أن الضرر الذي ألحقته العبوة في الأنبوب الذي يزود إسرائيل بحاجتها الضرورية للماء كان محدوداً إلا أن (فتح) أصبحت على الخارطة منذ ذلك الوقت.

وكانت فتح تعتبر عند العالم العربي بمثابة التنظيم الرئيسي. فأيديولوجيتها تشبه أيديولوجية أي دولة، أو شعب يؤيدها في ذلك الوقت ـ سواء مصر أو سوريا ـ وفي سنوات ما قبل حرب حزيران كان عناصر فتح قد شنو بعض العمليات الفدائية التي انطلقت من الأردن وجعلت الجيش الإسرائيلي يستخدم قواته المظلية

في غارة واسعة على بلدة السموع* الأمر الذي جعل من هذا الهجوم إحدى نقاط التحول التي أدت إلى حرب شاملة بعد سنة.

أما في لبنان فقد ظهر قبل ذلك الوقت إطار اكثر راديكالية من منظمة التحرير الفلسطينية حين أسس طبيبان فلسطينيان من مسيحيي الكنيسة الاورثوذكسية هما جورج حبش، ووديع حداد حركة القوميين العرب، التي كانت تدعو الطلاب بالجامعة الأمريكية في بيروت، وكذلك في مقاهي، وقاعات الاجتماعات بمخيمات اللاجئين الفلسطينيين إلى تبني سياسة القومية العربية، وقد عرف الطبيبان بكتابة الشعارات القومية على ظهر الوصفات الطبية، وبتقديم خدماتهما الطبية مجاناً إلى المرضى المسيسين.

ولم يكن نضالهما موجها ضد الصهيونية فحسب، وانما كان موجهاً ضد مختلف سياسات الزعماء العرب أيضاً ولم يكونا يأملان بتحرير فلسطين في يوم ما فقط وإنما بإنشاء دولة عربية واحدة تضم الشعب العربي من الخليج «العربي» إلى المحيط الأطلسي.

وكان من الطبيعي أن لا تتطلع معظم العواصم العربية بعين الرضا للدعوة إلى الفكر القومي العربي خاصة حين يدعو له الفلسطينيون الذين لا دولة لهم. ولذلك كانت معظم أنشطة حركة القوميين العرب تجري بشكل سري، ووسط تأييد خفي من سوريا ومصر اللتين كانتا تتنافسان على الزعامة في العالم العربي.

وعندما أصبح الشقيري، وعرفات جديرين بالثقة بعد تأسيسهما منظمتيهما قام حبش، وحداد بتأسيس فرع فلسطيني خاص ضمن حركة القوميين العرب أطلقا عليه اسم الجبهة القومية لتحرير فلسطين.

كما أنشأ جناحاً عسكرياً خاصاً أطلقا عليه اسم «شباب الثأر» مهمته تنفيذ العمليات العسكرية عبر الحدود ضد إسرائيل، علماً أن تقارير متعددة أشارت إلى

---

* «المعروف أن الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة. هي التي قامت بعمليات عبر السموع ضد المنشآت الاسرائيلية في فلسطين المحتلة عام 1948 وذلك في عام 1966.

أن احمد جبريل هو الذي أسس هذه الجبهة في أوائل الستينات . . . وقد كانت أولى عمليات شباب الثأر في شتاء 65 .

كان لحرب الأيام الستة تأثيراً عملياً على منظمات التحرير الفلسطينية القليلة الخبرة آنذاك، فالهزيمة العربية أدت إلى إحداث ثورة في الثورة القومية العربية التي قادها حبش.

كان حبش قد أدرك بألم أن البلدان العربية لم تستطع حتى الدفاع عن نفسها ناهيك عن تحكمها بمصير الفلسطينيين، وأدرك بأن التحرير يعتمد على العمل الدراماتيكي، والعنف، وهذا يستوجب وضع نكبة الفلسطينيين أمام أعين وقلوب جميع شعوب العالم. كما أن التحرير يعتمد على الوحدة الفلسطينية. وهذا ما دفعه في أيلول عام 1967 وجه حبش نداءاً إلى المجموعات الفلسطينية الأخرى دعا فيه إلى تشكيل قيادة عامة موحدة ولم يلب نداءه سوى منظمتين هما «أبطال العودة» و«جبهة التحرير الفلسطينية» التي كان أحمد جبريل رئيسها. وهكذا تأسست في 11 كانون الأول من عام 1967 الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. وعلى النقيض من «فتح» التي كانت تقبل بعضوية أي شخص كان في منظمتها باحثة عن المتطوعين غير المثقفين طالما أنهم يستطيعون حمل البندقية، وقذف القنبلة اليدوية دون توجيه أية أسئلة، قام حبش بتجنيد الأفراد المناسبين نفسياً والموثوقين فكرياً في صفوف الجبهة الشعبية. فهؤلاء توجب أن يكونوا أذكياء ومن ذوي الثقافة الجامعية إن أمكن وقادرين على التصرف بشكل حاسم وعنيف في أحوال عسكرية متنوعة تستدعي تدريباً عسكرياً مكثفاً من عدة مدربين. كما توجب أن يكونوا قادرين على الاختلاط في المدن الأوروبية الغربية والاختباء ضمن خلايا ذات غطاء ناجح، وببساطة القول كان حبش ومن معه قد أسسوا بهذه الطريقة ذلك الكادر الذي يعرفه العالم اليوم باسم «الفدائي». ولأن حبش اعتبر العالم ساحة معركة فسوف يصبح وعده بالعمل الدراماتيكي والعنيف حقيقة بعد قليل. . .

ورغم أن الجبهة الشعبية ستقاتل ضد قوات الجيش الإسرائيلي في حرب عصابات تقليدية طويلة الأمد، شديدة العنف في صحراء وادي الأردن، وفي قطاع

غزة كثيف السكان إلا أن العالم سوف لن يشهد هذا الصنف الجديد من الحرب التي وعد بشنها حبش للمرة الأولى إلا في روما.

كان خمسة وثلاثون مسافراً على متن طائرة العال في رحلتها رقم 426 المتجهة إلى تل ابيب في 22/7/1968، ومعظمهم من السياح الإسرائيليين يتطلعون بشوق إلى اجتماع شملهم مع عائلاتهم في إسرائيل بعد رحلة الساعتين والنصف التي يستغرقها الطيران إلى إسرائيل. ولم تكن هناك إجراءات أمنية في ذلك اليوم الصيفي. فقد كانت أكبر المخاطر في مطار فيوميشينو الدولي تتمثل آنذاك في أن ينشل أحد ما وهو يشتري من جناح السوق الحرة، وعند بوابة المغادرة إلى الطائرة كان ثلاثة رجال من ذوي الملامح الشرقية ينتظرون أيضاً في طابور مسافري الرحلة 426 بعد أن زاروا جناح السوق الحرة وأحرقوا السجائر حتى أعقابها بين شفاههم الجافة. كان الثلاثة في الحقيقة عرباً ولم يثيروا أية شبهه. ذلك لأنه يوجد في إسرائيل ليس مئات الآلاف من المواطنين العرب فحسب وإنما مليون عربي آخر اضيفوا لهم بعد أن احتلت الضفة الغربية ولكن ماذا يمكن لهؤلاء الثلاثة أن يفعلوا بطائرة ركاب على أية حال؟ فهم قبل كل شيء لا يرتدون «الحطات المخططة» فوق الرأس، كما لا يحملون بنادق رشاشة تتدلى من أكتافهم. تاريخياً لم يفعل الفلسطينيون أي شيء آخر عدا نصب الكمائن عبر الحدود وقتل المدنيين*.

كما أن الكثير ـ خاصة رجال المخابرات الذين استلقوا خلف أكاليل غار الانتصارالإسرائيلي بعد حرب 1967 كان يعتقد بأن العرب ليسوا أذكياء بما يكفي لكي يحملوا حربهم إلى خارج حدود المنطقة.

وعلاوة على ذلك بدا الرجال الثلاثة العرب ببدلاتهم، وربطاتهم الانيقة بمظهر يدعو للاحترام جداً.

---

* يصر المؤلف اصراراً غريباً على تشويه الحقائق وتصوير أن كل العمل العسكري الفدائي الفلسطيني يستهدف المدنيين فقط.

لقد كانت أوامر حبش لعلي شفيق أحمد قائد المجموعة والمعروف باسمه الحركي كابتن رفعت بأن يظهر كرجل مسالم، وعادي بشكل كبير. . . وبذلك كان حبش قد أنشأ مقاتلا عربياً قادراً على الضرب في كل مكان بالعالم.

قبل منتصف الليل تماماً انطلقت طائرة العال رحلة رقم 426 في قلب الليل الايطالي الحالك، وبينما كان المسافرون يحلون أحزمة مقاعدهم ويبدؤون بالإسترخاء كان العرب الثلاثة يدخنون السيجارة الأخيرة مستلقين بصمتٍ وسرور لتهيئة أنفسهم من الناحية الذهنية للمهمة التي أمامهم. . وبينما كان مقود هبوط طائرة البوينغ 707 ينسحب والطابور عند المرحاض يزداد غادر الثلاثة مقاعدهم على عجل وأخذوا يسرعون باتجاه غرفة القيادة. كان أول ما قاموا به هناك هو إطلاق طلقة من عيار 9 مم إلى بطن الضابط الأول ماعوز بوراز وأحكموا السيطرة على الطائرة . . . «لقد خطفوا الطائرة» صرخت من قسم الدرجة الأولى مضيفة جميلة ذات شعر ذهبي مجعد. صرختها هذه كانت رسالة مدوية للمسافرين الفزعين، وهكذا ألغيت رحلة العال رقم 426 . وأعلن الكابتن رفعت مخاطبا المسافرين الذين تملكهم الرعب بأن الطائرة ستسمى الأن «تحرير فلسطين». وأُمر ملاحي الطائرة بتغيير وجهتها إلى مطار الدار البيضاء المجاور للعاصمة الجزائرية.

وهكذا شكلت عملية خطف الطائرة نقطة تحول تاريخية في حروب النصف الثاني من القرن العشرين.

أما الحكومة الإسرائيلية فقد بذلت جهداً كبيراً لاستيعاب حقيقة قيام بعض المسلحين بخطف مواطنيها دون أن يكون لقوتها الأعظم في المنطقة ما تفعله .

فدولة إسرائيل التي تعهدت بألاّ لا تفاوض المسلحين الفلسطينيين قبلت في النهاية إطلاق سراح ستة عشر «إرهابيا» فلسطينيا من المعتقلات الإسرائيلية مقابل المخطوفين في طائرة العال. وتعهد رئيس الوزراء ليفي أشكول بأن تكون واقعة الجزائر آخر مرة تعقد فيها الحكومة صفقة مع المسلحين الفلسطينيين.

وفي بيروت رفعت الكؤوس تعبيراً عن ابتهاج قواعد الجبهة الشعبية، الذي شارك فيه جورج حبش ووديع حداد احتفالاً بالانتصار البارز لمنظمتهما. فمن

خلال النجاح في اختطاف طائرة إسرائيلية من أوروبا كانت الجبهة قد وجهت ضربة شديدة لإسرائيل، ولأصدقائها الأوروبيين، وعادت فلسطين لتصبح مرة أخرى على صدر أخبار الصفحة الأولى في حين أصيبت إسرائيل بلطخة ذلٍ شديد.

وعلى هذا النحو أثبت «العنف الثوري» كخط تتبناه الجبهة الشعبية على أنه استراتيجية ناجحة. أحد الرجال الذين لم يشاركوا في حماسة انتصار جورج حبش كان يبلغ 32 عاماً ذو بنية قوية والذي لو فضل ارتداء الملابس الرياضية الملونة لظهرت عليه شخصية أستاذ مدرسة يقضي عطلة بالريفيرا أكثر مما تظهر عليه شخصية القائد «العسكرية». ومع أن عملية خطف طائرة العال كانت تمثل نجاحا ثوريا كبيراً إلا أنها أثارت استياءه رغم أنه كقائد عمليات الجبهة الشعبية كان قد لعب دوراً رئيسياً في تنفيذ العملية.

هذا الرجل كان يعتقد بأن السيطرة على الطائرة، واطلاق التهديدات المقنعة بقتل الرهائن في حالة عدم الاستجابة لمطالب الخاطفين هو مجرد تصرف ناعم لمثقف لا يمتلك الشجاعة الكافية لسحب الزناد أمام رأس رجل ما من مسافة قريبة. ففلسطين لا يمكن أن تحرر أبداً حسب تصوره بواسطة أعمال الأكاديميين، والأطباء الذين يقومون بلعبة قطاع الطرق حين يخطفون الطائرات.

شعر ذلك الرجل الشاب بخيبة الأمل وبما يثبط الهمة من ذلك العمل. ولذلك اعتبر أنه قد آن الأوان لممارسة العنف الثوري على طريقته.

ذلك الرجل كان اسمه أحمد جبريل.

ولد أحمد جبريل في يازور ـ وهي قرية صغيرة إلى الجنوب من تل أبيب عام 1937 ـ تدعى الآن آزور وهي من إحدى ضواحي تل أبيب الهادئة والمعروفة لمعظم الإسرائيليين بمنازلها الواسعة، وبالمطاعم المتراصة على طرقها أكثر مما هي معروفة لهم كمسقط رأس لأخطر «إرهابي» في العالم. لا يوجد إلا القليل من المعلومات حول طفولة جبريل، حتى أن وكالات المخابرات الغربية لديها ثغرات كثيرة في معلومات كمبيوتراتها فيما يتعلق بالسنوات الأولى من حياته في فلسطين.

في عام 1948 وقبل اندلاع الحرب الإسرائيلية غادرت عائلة جبريل فلسطين وانتقلت أولاً إلى الأردن ثم إلى سوريا حيث استقرت في القنيطرة عاصمة مرتفعات الجولان. وكانت تلك البلدة مرتعاً للتطرف العربي والقاعدة الخلفية المناسبة في تشكل آراء جبريل النضالية السياسية.

وفي عام 1956 انضم احمد جبريل وهو في التاسعة عشر إلى صفوف الجيش السوري. حيث كان جندياً قوي الاندفاع، وقائداً طبيعياً، ويعتبر تقدم جبريل بالرتبة في الجيش السوري الذي يتصف بمحاباة الأقارب والعنصرية إنجازاً متميزاً لفلسطيني مثله. فلقد وصل إلى رتبة كابتين في قوات الهندسة بسبب مهاراته كخبير في التدمير وتركيب القنابل.

كان من الممكن لجبريل أن يبقى طوال حياته في الجيش السوري لو أنه لم يكن كثير المتاعب. فسياسته الثورية وطرقه العنيفة ذات الصوت العالي آنذاك خلقت له أعداء أقوياء.

ففي عام 1958 عندما اتحدت مصر وسوريا في إطار الجمهورية العربية المتحدة طرد جبريل من الجيش السوري بتهمة* ميول شيوعية ـ مع أن ذلك لم يؤكد أبدا وانتقل جبريل بعد ذلك ساخطاً إلى القاهرة، قِبْلة السياسة الثورية العربية والوطنية الفلسطينية، حيث أسس المنظمة الفدائية السرية المسماة جبهة تحرير فلسطين مع علي بوشناق وفضل شكري شرورو وأحمد زعرور وطاهر دبلان* وكان بوشناق رفيقاً له في الجيش السوري.

وفي البدء كانت نشاطات جبهة تحرير فلسطين «National Liberation Front» بسيطة: ففي الليل كان أتباع جبريل يقومون بالصاق المنشورات على أعمدة وجدران الشوارع إعلاناً ببدء الحرب المقدسة ضد العدو الصهيوني وفي النهار كانوا يقومون بتجنيد الطلبة الفلسطينيين من جامعة القاهرة كجنود للكفاح المسلح

---

* معلومات المؤلف غير وثيقة، أحمد جبريل استقال من الجيش للتفرغ للعمل الفدائي عام 1963.
* دبلان لم يكن يوماً في الجبهة أحمد زعرور انضم مع مجموعته عام 1969.

المقدس. وكانت سميرة شقيقة جبريل (المعروفة باسمها الحركي أم فراس قائدة القطاع النسائي في جبهة تحرير فلسطين.

واستناداً إلى مصادر الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ كان هدف جبهة تحرير فلسطين آنذاك هو شن حرب عصابات ضد إسرائيل. وفي السنوات التي أعقبت ذلك أصبحت فكرة جبريل الوحيدة هي شن حرب بلا هوادة ضد إسرائيل.

بعد زمن قليل أصبح جبريل معروفاً في المهجر الفلسطيني كعالم ثوري يعد سكان مخيمات اللاجئين بأن تدمير إسرائيل لا بد أن يحدث في يوم من الأيام. وكان جبريل واثقاً وقادراً على التأثير بالناس. كما برهن من خلال ما أنجزه بالجيش السوري من مهام محترمة على أنه شاب فلسطيني يمثل نوعية فريدة في المهارة العسكرية الفلسطينية. وأخيراً عاد جبريل من القاهرة حاملاً بعض الدعم المالي من فلسطينيي المهجر ودخل سوريا عام 1961 اثر وقوع الانفصال بين مصر وسوريا وانتهاء الجمهورية العربية المتحدة حيث عمل مرة أخرى بالجيش السوري، ولكن هذه المرة من خلال جبهة تحرير فلسطين المتحالفة مع سوريا. وكان يقضي معظم وقته في تجنيد المتطوعين الفلسطينيين لشن عملياته ضد شمال إسرائيل*.

وكانت العلاقة بين جبهة تحرير فلسطين ودمشق مصدر متاعب كبيرة لأحمد جبريل وشكلت أساسا للخلافات الفلسطينية الداخلية التي ابتليت بها منظمة التحرير الفلسطينية حتى هذا اليوم.

ولم يكن بوسع جبهة جبريل إبراز نفسها ككيان عنيف متطرف فريد من نوعه في الساحة الفلسطينية إلا في أوائل عامي 1965 ـ 1966. وقد كان لخبرة جبريل العسكرية قدر كبير من التأثير على ـ جبهة تحرير فلسطين ـ حيث كان الأعضاء من مخيمات اللاجئين في لبنان وسوريا يتلقون تعبئة وتدريباً حسب النظام العسكري

* واضح أن المعلومات التي يوردها المؤلف هنا وفي الصفحات التالية بالغة التشويش سواء فيما يتعلق بالحوانب العائلية لا حمد جبريل أو تواريخ واسباب ذهابه إلى مصر والعودة منها. ولسنا ندري هل هذا يعود لنقصٍ في المعلومات عند المؤلف او هو خطأ مقصود.

المكثف ـ إضافة إلى تدريب شبه أساسي ومتنوع على ارتداء الملابس العسكرية والتحية العسكرية والاستعراض التفقدي*. وكان التدريب على فن القتال يجري بدقة عسكرية. وكان المدربون السوريون ـ الذين يعتقدون بأن بينهم بعض الخبراء الدوليين من الكتلة الشيوعية ـ يقومون بتدريب رجال جبريل على كيفية التخلص من الحراس بطعنة خنجر أو بالضغط على حنجرة الرقبة وعلى كيفية القيام بكمين عسكري كامل وعلى زراعة المتفجرات وتخريب المواقع الثابتة الحساسة.

وخلال أعوام 1965 حتى 1967 كانت الجبهة وفروعها المتعددة قد نفذت عشرات العمليات الهجومية ضد مواقع الحدود الإسرائيلية وكانت هذه العمليات يجري تنسيقها عبر حدود سوريا والأردن على نحو حذر بغية الحفاظ على ملجأ آمن إذا ما قام الجيش الإسرائيلي برد انتقامي.

وفي عام 1966 جرى تدريب كوادر الجبهة تحت إشراف جبريل على فن الاغتيال رغم أن زعماء إسرائيل لم يكونوا هدفهم.

وفي 23 شباط 1966 وقع انقلاب بعثي سوري غير بشكل جذري العلاقة بين منظمة التحرير الفلسطينية وسوريا.

كان السوريون قد تبنوا في ذلك الوقت شعار «الحرب والتحرر القومي» كمنطلق أساسي في سياستهم الخارجية والدفاعية. وأجبر عرفات آنذاك على القبول بضم جبريل وجبهته إلى اللجنة المركزية لفتح ـ التي تمثل أعلى هيئة قيادية مقابل أن تسمح سوريا بشن العمليات المسلحة ضد إسرائيل من الأراضي السورية. كما طلبت سوريا أيضاً أن يقبل عرفات بضم ضابط بالجيش السوري هو الكابتن يوسف عرابي إلى قيادة المنظمة. ولكن جبريل امتعض من هذا الترتيب. فهو معروف بكراهيته الأبدية لعرفات، ولا يريد القيام بأي شيء مشترك مع من كان يعتبر نفسه رئيساً للثورة الفلسطينية. ولذلك سحب جبريل مجموعاته القتالية من إطار فتح وبدأ نشاطه السري لتقويض مكانة عرفات.

---

* محاولة واضحة للأساءة لسوريا أولاً، وللإساءة للعمل الفدائي ثانياً.

أما موسكو فقد اعتبرت جبريل رجلاً للعمليات الحاسمة وقادراً على دعم خطابه السياسي بقوة نارية كبيرة. فمنذ عام 1965 حتى 5/ 6/ 1967 كان رجال جبريل قد شنوا ما يقرب من مائة عملية عبر الحدود من العمليات النوعية التي يتميزون بالقيام بها بفعالية، الأمر الذي جعلهم مناسبين لخطط موسكو في الصراع الحتمي للقوى العظمى على السيطرة على الشرق الأوسط.

بعد حرب حزيران عام 1967 وتحديداً في تشرين أول منه لبت الجبهة التي يقودها جبريل دعوة جورج حبش للوحدة الفلسطينية في الكفاح ضد إسرائيل وأصبحت عضواً مؤسساً للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. فقد توافق جبريل مع حماسة حبش ورغبته بتوسيع الحرب ضد إسرائيل إلى خارج حدود الشرق الأوسط وإلى عتبات داعميها الدوليين.

وقد ساهم جبريل بدقة كأحد كبار مخططي العمليات بالمنظمة المشتركة مع حبش وحداد في إضافة زخم عسكري احترافي على خط الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين القومي الشبيه بالنموذج الماركسي. وكان أول بيان عام للجبهة الشعبية يحمل صدى رغبة جبريل في مفهومه للصراع: «السلاح الوحيد في يد الشعب هو العنف الثوري».

وكما انتهى - «الزواج» بين جبريل وعرفات إثر التوتر الذي وقع عام 1966 كذلك انتهى إنفصال جبريل عن الجبهة الشعبية في تشرين أول 1968 فمرة أخرى نشبت الخلافات السياسية، والقتال الداخلي في الجهاد الفلسطيني ضد إسرائيل.

قبل ذلك الانفصال وبتاريخ 21/ 3/ 1968 كانت القوات الإسرائيلية المشتركة من قوات المظليين، وقوات الكوماندو الاستطلاعية ومن وحدات الدبابات قد عبرت نهر الأردن وبدأت بشن هجومها على بلدة الكرامة الأردنية التي كانت تشكل قاعدة تدريب رئيسية لفدائيي «فتح» والتي كان يطلق عليها ضباط المخابرات والعمليات الإسرائيلية أحياناً اسم بنتاغون «الإرهاب».

وكان الهجوم الإسرائيلي (المعروف باسم عملية «جهنم») عبارة عن اجتياح انتقامي على عدة عمليات «إرهابية» انطلقت من الكرامة ضد مواقع إسرائيلية بالقدس وبتاح تكفا ونتانيا ومنطقة بيسان.

وكان قد تقرر «العملية جهنم» أن تكون عملية صاعقة سريعة هدفها تصفية ما يمكن من الفدائيين عبر ضربة حاسمة. لكن الفلسطينيين قاتلوا بتصميم دفاعي في مواقعهم الجبلية المطلة على الأغوار الجرداء كما شارك الجيش الأردني بالقتال مستخدماً دباباته ومدفعيته الثقيلة لحماية المواقع الفلسطينية المحاصرة. ورغم أن الجيش الإسرائيلي نجح في تدمير الكثير من بلدة الكرامة (175 مبنى) وفي قتل أكثر من 200 مقاتل فلسطيني وأردني وفي أسر 141 مقاتل، اعتبر الشتات الفلسطيني تلك المعركة انتصاراً عربياً تاريخياً. إذ كان الفلسطينيون قد تمكنوا قبل إجبارهم على الانسحاب إلى سلسلة المغاور على التلال الأردنية من إيقاع خسائر ثقيلة في صفوف القوات الإسرائيلية يصعب على الجيش الإسرائيلي تحملها.

ففي تلك المعركة التي دامت يوماً كاملاً قتل 28 فرداً من أفراد القوات الإسرائيلية وفقد ثلاثة وجرح 91 فللمرة الاولى يتناسب الفلسطينيون فيما قدموه وما حصلوا عليه من نتائج في معركة بينهم وبين الإسرائيليين. وفي مؤتمر صحفي مشوش في مبنى القيادة القائم على أنقاض الكرامة أعلن عرفات الذي كان قد فرَّ من موقعه على دراجة نارية بأن الكرامة هي نقطة التحول عارضاً بنادق العوزي التي غنمها من الجيش الإسرائيلي بالإضافة إلى الدبابة سنتوريون الإسرائيلية التي غنمها الملك حسين بعد أن أصيبت بقذيفة مضادة وعرضت في الساحة الرئيسة بعمان.

وبعد أيام من تلقي الشتات الفلسطيني لأنباء معركة الكرامة غادر الآلاف من الشبان الفلسطينيين منازلهم في المخيمات، وأخذوا يتطوعون «بالعمل الفدائي لبذل أرواحهم من أجل فلسطين». ولكن الكرامة لم تكن تمثل انتصاراً لجميع الفلسطينيين.

فحبش وجبريل كانا آنذاك يديران مركز تجنيد وتدريب على بعد أميال من الكرامة ولم ينشرا قواتهما لأن قوات حبش وجبريل كانت قد تمركزت في خنادقها حسب استراتيجية حرب العصابات متجنبة المجابهة المباشرة مع العدو. بعض الزعماء العرب خاصة عبد الناصر انتقد سياسة الجبهة الشعبية بعدم المجابهة.

ووسط أجواء الانتصار الكبير في الكرامة، أخذت المخاوف تزداد حول نزاع دموي يمكن أن يقع بين فصائل منظمة التحرير الفلسطينية المتعددة، وكان جبريل قد انتقد هو أيضاً أوامر جورج حبش فخلال زيارته لجمع الأموال من مشيخة الكويت الغنية بالنفط وصف جبريل حبش وأتباعه من النخبة السياسية «بالمحاربين الضعفاء» مما جعل هذه الخطوة تمثل بداية نهاية وحدة قيادة الجبهة الشعبية.

ففي البدء أطلق حبش عدة تصريحات يدين فيها انتقادات عبد الناصر للجبهة الشعبية . ثم عاد عبد الناصر وكرر عدم رضائه عن حبش، إلى أن انتهت جولة الاتهامات عندما طلب حبش من نائبه احمد جبريل السفر إلى القاهرة في صيف ذلك العام لاصلاح بعض الجسور المكسورة، فاعتبر جبريل تلك المهمة الدبلوماسية فرصته الذهبية لتحويل الجبهة الشعبية إلى طريقة تفكيره. وقد نجحت جولة جبريل الدبلوماسية إذ أقنع جبريل عبد الناصر بأن الانقسام العربي يفيد إسرائيل وأن على العالم العربي أن يتوحد لهزيمة الكيان الصهيوني. وبعد جسره الناجح للهوة بين حبش وزعيم العالم العربي عاد جبريل إلى بيروت.

وبعد المؤتمر السادس للجبهة الشعبية الذي عقد بغياب حبش قرر جبريل بسبب رفض القيادة السياسية للجبهة لأفكاره وبرامجه العملية بأن يسير لوحده.

لذلك وجه جبريل تعليماته في تشرين أول 1968 لرجال فصيله جبهة التحرير الفلسطينية بالخروج من إطار الجبهة الشعبية ليعلن إنشاء الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ـ القيادة العامة.

وعلى الفور أقيمت قواعد هذا الفصيل في مبنى غير مكتمل وسط منطقة الريحان بدمشق. حيث كان بعض مقاتلي ـ القيادة العامة ـ المخلصين جداً لجبريل يقومون بحماية تلك القواعد. كما افتتح مكتب فرعي لأغراض و (في حالة شكلت إحدى عمليات القيادة العامة إحراجاً لدمشق) في بيروت أيضاً. كما بدأت ـ القيادة العامة ـ باستخدام أسماء أخرى متعددة مثل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ـ القيادة العامة ـ أ ـ وجبهة فدائيي الأقصى. وكانت منظمة جبريل هي رابع منظمة تنضم إلى منظمة التحرير الفلسطينية بعد عام.

تبنت ـ القيادة العامة ـ بقيادة أحمد جبريل شعاراً مناسبا لتأسيسها الجديد ـ بندقيتين متقاطعتين عند عقدة ثابتة تغطيان خارطة إسرائيل ـ وبضمنها الضفة الغربية وقطاع غزة يتوج ذلك الشعار كلمات : عودة ـ فداء ـ تحرير باللغة العربية. وكان هذا الشعار الذي يشكل رمزاً لاستراتيجية جبريل يحمل رسالة واضحة : «سيستمر الدم حتى يأتي اليوم الذي تتحرر فيه فلسطين كاملة». وقد كانت أيديولوجية جبريل وطريقة عمله هي القوة العسكرية.

فالقيادة العامة ليس لها أيديولوجية وحيدة وفريدة وبرنامج وطني أو خط لمستقبل الدولة الفلسطينية، الهدف الوحيد لمنظمة جبريل هو التدمير العنيف للدولة اليهودية عبر المعركة. فقد أقنعته التجربة مع حبش بأنه لا يمكن للفلسطينيين الانشغال بالحرتقات السياسية التافهة أو بالأيديولوجية أو بحكومات المنفى.

وقد نجح جبريل عبر السنوات السبع التي تلت عام 1968 في تجنب المعارك التي يثيرها تدخل الدول، والتي ابتليت بها الفصائل الفلسطينية (اعتبرت علاقته بسوريا علاقة خاصة) وكان فصيل جبريل فصيلاً مسلحا مستقلا بقدر ما يتمكن من الوجود داخل الساحة الفلسطينية. وكان يؤكد بأن الاستقلال يولد الإبداع والتجديد. وقد أدخلت فكرته هذه عنصراً من نوع جديد في المقاومة. وكان جبريل يتعهد أمام كوادره في دمشق بتثوير الثورة الفلسطينية.

عندما تعهد جبريل بأن يكون الممثل العسكري الوحيد للثورة الفلسطينية كان تعهده هذا ـ تظاهراً بالشجاعة أكثر من أن يكون بياناً على الواقع. . . فحين انطلقت الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ في بدايتها لم يكن لديها سوى نحو 200 من المقاتلين وكان مصدر تمويلها محدوداً، دون تأييد سياسي خارجي. لكن جبريل كان يتمتع بشهرة كضابط متفوق. . . وكانت الشبيبة الفلسطينية الواهمة في مخيمات اللاجئين تعتبر وعوده بالعمليات المميزة وعوداً مثيرة. كان جبريل رجلاً يحترمه الناس ويخشون جانبه.

وفي ذلك الوقت بدأ «صيادو الرؤوس» من كوادر الجبهة الشعبية ـ القيادة

العامة ـ الانتشار في مخيمات اللاجئين حول عمان وإربد ودمشق وبيروت لبنان والدامور وصيدا وصور للبحث عن مقاتلين وتجنيدهم في قوات جبريل.

كان بحثه انتقائياً بشكل كبير. فعلى غرار حبش كان جبريل يبحث عن المثقفين القادرين على التفكير المبدع وعلى العمل في الخارج فيما أطلق عليه اسم «العمليات الخارجية» التي ستقوم بها الخلايا التي تتولى مسؤولية تحويل جبهة الحرب الفلسطينية في أوروبا إلى معارك من طراز واسع. وعلى غرار عرفات أيضاً كان جبريل يبحث عن الشخص ـ البسيط الراغب بتلقي الأوامر والموت من أجل فلسطين. فهو بالتالي لن يشكل مجموعة دراسة من المفكرين. بل كان يقيم الأساس لجيش فلسطين، جيش يفجر المنشآت الإسرائيلية في الخارج أو يطلق الدوريات الانتحارية لقتل المستوطنين اليهود في الكيبوتس. وكان هذان العنصران رغم انفصالهما متكافئين في «استراتيجية التحرر الوطني». فاستراتيجية جبريل في شن نوع مميز من الحروب ضد إسرائيل ومؤذٍ لها يمكن تلخيصه من خلال الاسم المستعار الذي اختاره لنفسه «أبو جهاد» ـ أما العالم فسيعرفه ببساطة باسم جبريل.

الفصل الثاني

«الإرهابي» المتخصص ومساعدوه

الفصل الثاني

«الإرهابي» المتخصص ومساعدوه

إن أي رجل مهما فعل، وبلغ من الذكاء لن يكون بمقدوره شن حرب لوحده. لذلك كان على منظمة مثل القيادة العامة ترغب بالنجاح في هزيمة إسرائيل، أن توفر لها كادراً قادراً من الضباط والمساعدين والمحاربين على درجة عالية من التدريب ـ أي ـ مشاة الحرب «الإرهابية» المقدسة.

وهناك ثلاث شخصيات بارزة جذبها جبريل إلى حلقته الداخلية وهي الشخصيات التي أخذت تبرز عبر السنوات المتعاقبة. أولها كان المقاتل «المأجور» الذي يدعى حافظ محمد حسين دلقموني ـ مسلم سني ـ من القسم الفقير لمدينة الناصرة العربية المسيحية. فدلقموني الذي يُعد من أوائل من جند من الشباب الفلسطينيين في مخيمات اللاجئين وتلقى تدريبه في مخيم اليرموك كان رجلاً عملياتياً ومعروفاً بولائه الحميم لجبريل.

في أكتوبر 1967 أمر جبريل دلقموني قيادة قوة مؤلفة من خمسة فدائيين لشن عمليات «تخريبية» مكثفة في منطقة الجليل شمال إسرائيل.

غادر دلقموني قاعدة الانطلاق شمال مخيم اليرموك وعبر الأراضي الأردنية ومن ثم تجاوز نهر الأردن إلى إسرائيل. وبعد تجنبه لعدد من الدوريات الإسرائيلية وتوغله في منطقة معادية نجحت دورية دلقموني في زرع عبوة ناسفة

قرب خط القوة الكهربائية. . . ولكن العبوة انفجرت قبل موعدها. وفي ص
اليوم التالي عثرت قوات الجيش الإسرائيلي على عدد من رجال دلقموني أ
وعلى رجل ذي شارب تنزف ساقه اليمنى التي بترت فيما بعد.

وحوكم دلقموني في محكمة عسكرية بتهم «إرهابية» وصدر حكم بسجنه الحياة مرتين يقضيها في عسقلان، وهو أكبر سجن أمني في جنوب إسرائيل.

أما المساعد الثاني فهو محمد عباس زيدان. . . ذو الشخصية العنيفة وا
اختار له اسماً مستعاراً هو «أبو العباس».

ولد عام 1948 في صفد في الجليل، ثم هربت عائلة عباس إلى بلدة -
في سوريا بعد اندلاع حرب 1948 ثم عادت العائلة وانتقلت إلى مخيم الير
بدمشق. في عام 1968 انضم أبو العباس الشاب غير المستقر، والذي لا يملك
يبرهن على قيمته إلى قوات جبريل. وبعد قليل من الزمن تسلق إلى سلم ال
ليصبح قائد عمليات الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة. ومع أن الجبهة كانت ت
إلى الخزان البشري إلا أن جبريل وأبو العباس كانا خبيرين في الاستفادة
الكوادر بشكل ضاعف الحجم البشري.

فهذا العدد القليل من المئات الذين تدربوا في مخيمات الأردن، وسو
ولبنان جعلوا الناس يشعرون بأنهم آلاف بسبب وجودهم الفاعل.

أما الشخص الثالث ـ والذي يعد عند البعض أهم شخص تبع جبريل في
جهاده ـ فهو مروان خريسات الرجل المعروف بمهارةٍ محددة هي صناعة العبوا

ولد خريسات في الأردن عام 1945، عثر عليه جبريل عام 1968 وضم
الرجل العبقري في التدمير وإعداد العبوات إلى حرب الأعصاب التي أراد ش
ورغم أن خريسات لم يكن فلسطينياً وولاؤه كان للأردن قوياً. فقد قدم ج
لخريسات منصباً هاماً داخل الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ التي أسست حديث
قائد صناعة العبوات، وضابط مخازنها الحربية.

كان الابتكار التقني إحدى الوسائل الهامة في جعل عواء الجبهة الشع
القيادة العامة ـ أعلى صوتاً من عضها.

فقد كان جبريل أول «تكنو إرهابي» في العالم. كانت هوايته كمهندس في التدريب الحربي بالجيش السوري هي صناعة العبوات. كان يعشق أجهزة التفجير والعبوات معتبراً نفسه مخترعاً. واستناداً إلى بعض من التقارير التي لم تؤكد كان جبريل صاحب عدد من براءات الاختراع في دمشق.

ولأنه أدرك بسرعة بأن التكافؤ التقني مع القوات الإسرائيلية يؤدي إلى تساوي الطرفين في أرض المعركة، فقد أمر جبريل كل مجموعة ميدانية للجبهة بأن تحمل وسائل اتصال (ووكي ـ توكي) وترتبط ببعضها البعض من خلال محطات اتصال ميدانية لقيادة وادارة القطاعات المتمركزة في مواقع متقدمة. كما ساعد في تطوير وصناعة أجهزة تفجير حديثة تخبأ في داخل المعدات التي يحملها المقاتلون خلف ظهورهم. حتى إذا ما أسر أحد فدائييه يجري تفجير الجهاز في الجنود الإسرائيليين الذين يتوجهون إلى معداته . . . فليس لدى رجال جبريل شرف اكبر من شرف الاستشهاد من اجل القضية ـ خاصة إذا ما أدت هذه العملية إلى قتل جنود إسرائيليين.

إن حب احمد جبريل لإعداد العبوات لم يكن بنافسه سوى ولعه بالطائرات. ولذلك كان بصفته صاحب فكرة وتخطيط خطف طائرة العال رحلة رقم 426 عام 1968 من أعلى الأصوات الداعية إلى تحديد الطائرات كأهداف. لكن لماذا ـ الطائرات بالذات؟

الطائرات التجارية تجذب المسلحين الفلسطينيين لاعتبارات سياسية وعملياتية. فهي ملكية شعب، كما أنها أهدافاً قابلة للشحن وسهلة المنال كثيراً. وجبريل على أية حال لم يكن يسعى إلى خطف الطائرات وانما إلى تدميرها.

لم يكن جبريل يهتم بسيرك الاعلام، وبشكل استراتيجي لا يبالي كثيراً برأي العالم إزاء حملته على إسرائيل. ومع ذلك كان جبريل براجماتياً وكان يدرك أن بعض الحكومات، خاصة سوريا لن تتحمل بسهولة نقمة إعلامية دولية يسببها لها خلل في إحدى العمليات . فكضابط عسكري كان لديه مقدار ما من الحس الاستراتيجي الذي يجعله يدرك أيضاً بأن عمليات خطف الرهائن على مرأى من العالم محفوفة بالمخاطر.

فالتصميم «الإرهابي» وكذلك فاعلية الرسالة الثورية يستعرضان للتآكل كلما تواصلت ساعة تلو أخرى محنة الرهائن. ولا بد لطرف من الطرفين أن ينهار أو يستسلم (عادة ما ينهار الخاطفون) وستحظى محنة المخطوفين بتعاطف الاعلام العالمي. وقد أراد الفلسطينيون أن يوجهوا ضربات خنجرهم إلى القلب وليس إلى الوجه.

بعد اجتماعه بخريسات في أواخر عام 1968 أمر جبريل باعداد جهاز تفجير صغير وفعال. بحيث يمكنه تدمير الطائرة في الجو. والقنبلة التي تستخدم يتوجب ان تكون معدة على نحو بسيط وان تكون قابلة لإدخالها إلى الطائرة دونما صعوبة فائقة.

بعد عملية خطف طائرة العال رحلة رقم 426 بتاريخ 22/ 7/ 1968 اتخذت العديد من الإجراءات الأمنية في كل مطار من مطارات أوروبا. وفي دمشق بدأ خريسات يعد من قاعدته نموذجاً للعبوة التي ستؤدي إلى انطلاق حرب العصابات الشاملة التي طالما تاق إليها جبريل ضد إسرائيل. فمن قواعده في سوريا كان جبريل ما يزال يواصل حربه ضد إسرائيل، ولكنه في الوقت نفسه بدأ يوسع مسرح عمليات الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ بحيث يتضمن العمليات العالمية. . . فمن خلال قسم القطاع الغربي (Western Section) التابع للمنظمة أسس جبريل في أنحاء أوروبا خلايا سرية ذات غطاء جيد، وجاهزية للعمل. وكان العديد من أعضاء الخلايا ينتمي في السابق إلى الخلايا السرية التابعة للجبهة الشعبية التي كان حبش قد زرعها عام 1968.

وتفيد عدة تقارير أن مركزاً للقيادة والإدارة والاتصالات أقيم في أحد أحياء برلين الشرقية أوائل عام 1969 . إلا أن القواعد الأوروبية لجبهة جبريل أنشئت في صوفيا عاصمة بلغاريا بنفس الفترة 1969.

كانت صوفيا نموذجية لجبريل. فهي قريبة من وسط أوروبا التي تضم بلدانا مؤيدة لإسرائيل مثل ألمانيا الغربية وسويسرا وهولندا. ولذلك أصبحت صوفيا قاعدة انطلاق لمخططات شن العمليات المؤثرة ناهيك على أنها تقع في عمق بلاد

ما وراء الستارة الحديدية لعرقلة أنشطة التجسس الغربية لا سيما أنشطة الموساد الإسرائيلي.

بل قيل ان جبريل نفسه كان قد ابتاع شقة في حي من الطراز القديم في صوفيا وكان يتردد إليها مساعدوه الكبار لتلقي التعليمات الخاصة بالتجسس والتهريب والحرب الشعبية من جهاز المخابرات البلغاري. كما كانت الأسلحة البلغارية تنقل سراً إلى قواعد تدريب جبريل في سوريا. وبدعم من أجهزة مخابرات الكتلة الشرقية استأجر واشترى المزيد من البيوت السرية في كل أنحاء أوروبا دونما صعوبة تذكر.

في 1/9/ 1969 قاد معمر القذافي (27 عاماً) ضابط قوات الإشارة انقلاباً ابيضاً، أطاح بالملك إدريس السنوسي وأنشأ جمهورية جديدة. أقام القذافي تحالفات مع عدد من الفصائل الفلسطينية. حيث كانت الفصائل الأكثر تطرفاً تتلقى من القذافي المزيد من عائدات نفط ليبيا. وكان أحمد جبريل من أكثر الزعماء الفلسطينيين احتراماً لدى القذافي. وبامتلاك كل تلك الوسائل الوحشية المناسبة للضربات الكبيرة أصبح أحمد جبريل ومساعدوه في التخطيط ليسوا بحاجة الا لهدف. ومن الطبيعي أن يرغب جبريل بتدمير طائرة العال في الجو ويعد ما تستلزمه من الإعداد الصعب والطموح بل والطموح جداً.

فمنذ خطف طائرة العال رحلة رقم 426 تسلم مهمة الحفاظ على أمن العال رجال من ذوي الخبرة من إدارة المخابرات العامة، التي تشرف على جهاز مكافحة التجسس و«الإرهاب»، وهو المعروف باسم الشين بيت ـ فعلى أثر خطف تلك الطائرة تولى عملاء الشين بيت المدججين بالأسلحة ـ مهمة الدفاع عن جميع منشآت العال على أساس قتل أي مجموعة مسلحة فلسطينية على الفور بدلاً من مواجهة وضع سياسي توفيقي... كما أدركت الحكومات الأجنبية أيضاً أنه من مصلحتها حماية العال وطائراتها مثلما تحمي طائراتها التي تهبط وتقلع من إسرائيل.

أصبحت عمليات إقلاع طائرات العال من جميع مطارات أوروبا تجري عبر

حراسة عربات شرطة شبه عسكرية مسلحة على استعداد تام لتصفية أي تهديد «إرهابي». . . كان الحذر في أوجه آنذاك.

في 26 كانون أول 1968 قام رجلان من جبهة حبش بشن هجوم ضد العال في مطار أثينا الدولي، وكان الرجلان المسلحان بأسلحة أوتوماتيكية، وبقنابل مضادة للأفراد قد هبطا توا من طائرة ايرفرانس القادمة من بيروت حيث سارا من الممر المتجه نحو مراقبة الجوازات والجمارك، ثم انفصلا من الطابور الواقف أمام كشك الجوازات وركضا نحو مائة قدم باتجاه طائرة العال بوينغ 707 التي كانت على وشك الإقلاع إلى باريس وعلى متنها 15 راكباً والطاقم.

وخلال ثوان معدودة من إطلاق النار الغزير وشم جسم الطائرة بالطلقات النارية. وبضربة مصيبة قذف أحد المسلحين الفلسطينيين جهاز حارق على الطائرة فتسبب باحتراق محركها اليساري وتحويله إلى كرة من لهب . ونتج عن العملية مقتل إسرائيلي الصابة مضيفة بجراح خطيرة. واستناداً إلى ما أعلنه ناطق باسم الجبهة الشعبية من بيروت نفذت العملية من أجل قتل طياري سلاح الجو الإسرائيلي العائدين من مهماتهم التدريبية على طائرات ف ـ 4 فانتوم في الولايات المتحدة. ولكن الحقيقة ان الطائرة التي هوجمت كانت قد انطلقت من إسرائيل يجعل من هذا الادعاء أمراً لا يصدق. . . بعد ذلك الهجوم قامت إسرائيل بالرد عسكرياً ـ ففي ليلة 28 / 12/ 1968 قامت مجموعة من الاستطلاع المظلي معززة بقوات كوماندو من قيادة الأركان مستخدمة طائرات الهليكوبتر بشن علمية انتقامية ضد الطيران المدني العربي، هبط المظليون في بيروت قاعدة انطلاق الخاطفين ونجحوا في تدمير 13 طائرة تخص شركة ميديل ايست اللبنانية. وأعلنت إسرائيل أثر ذلك بأن «الإرهاب» الجوي سيدفع الثمن الباهظ. لذلك أدرك جبريل بأن قوات الأمن المستنفرة في ذلك الوقت قادرة على معالجة الموقف.

وفي 18 شباط 1969 قامت مجموعة مؤلفة من 4 عناصر من الجبهة الشعبية بالهجوم على طائرة بوينغ 720 رحلة رقم 432 تابعة لشركة العال الإسرائيلية في مطار كلوتبن بزيوريخ. وقبل ان يتمكن البوليس السويسري من الرد، اندفع

موردخاي رحماين رجل الأمن الإسرائيلي في طائرة العال حيث فتح الباب، وبدأ بإطلاق النار على المجموعة وقتل عنصر منها وجرح اثنين آخرين. لم يكن جبريل يرغب بخطف رهائن، كما لا يرغب بالقيام بعمل ما يؤدي إلى اشتعال شرارة مكثفة من العمليات الانتقامية للجيش الإسرائيلي ضد سورياحين يعود إليها.

أهم ما كان يفكر به هو عدم الرغبة بتعريض مقاتليه إلى شن هجمات عشوائية لا تؤدي إلا إلى نتائج قليلة محدودة.

كان جبريل يفضل النوعية على الكمية ـ أي أنه يفضل الهجمات المؤثرة المميتة. ليس من المهم ظهور اسم «القيادة العامة» في عناوين الصحف كل أسبوع، وإنما المهم هو الأعمال التي ستشعل شرارة الاهتمام والفزع الدوليين. لقد نجح جبريل من خلال الدعم الذي كان يتلقاه في استخدام مهارات خريسات المميتة في النهاية. فبعد سنوات من الانتظار تمكن جبريل من البدء بتنفيذ استراتيجيته. إذ أن عملية تفجيرية موجهة ضد الطيران المدني ستجعل عمليات الجبهة الشعبية تبدو وكأنها مجرد تمرين عضلات فارغة.

وقد اعتبرت الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ أن طائرات العال او الطائرات الأجنبية التي تخدم نفس الدولة اليهودية أهدافاً مطلوبة. ونظراً لأن الإجراءات الأمنية المتخذة في طائرات العال لا يمكن اختراقها فقد أصبحت العمليات ضد الطائرات الأجنبية في هذه الحالة أكثر سهولة. وهكذا كان خريسات يعد من البيت السري في صوفيا جهاز التفجير الجديد الذي إن أحسن استخدامه في عملية خاصة فسيتمكن من تدمير طائرة مدنية وهي في الجو دون أن تترك أي أثر يدل على طبيعة العمل المسبب أو على المجموعة التي قامت بها. . . وهذا الجهاز يعتمد على ثلاثة عوامل:

1 ـ جهاز توقيت دقيق وموثوق ينفجر حين تكون الطائرة في السماء ومن تحتها بحر أو سطح مائي.

2 ـ يجب أن يجري تهريب الجهاز إلى سطح الطائرة دون استخدام أية وثائق دبلوماسية أو مساعدة من أية وكالة مخابرات أو أية مساعدة أجنبية.

3 ـ على العبوة الناسفة ان يكون انفجارها موثوقا بحيث تنفجر وتدمر الطائرة أثناء تحليقها فوق البحر الأبيض المتوسط باتجاه إسرائيل. وبهذا تسقط جثث الضحايا وأجزاء الطائرة المحطمة في قاع البحر مما لا يجعلها قادرة على ترك أية أدلة للسلطات.

وفي الأسابيع الأولى من كانون الثاني عام 1970 كان خريسات قد أنهى صنع عبوتين ناسفتين تعملان من خلال صاعق يعمل على الباروميتر (الضغط الجوي) تم تحضيرهما بحيث تزرعان في راديو ترانزيستور . إذ يؤدي الضغط الجوي حين تكون الطائرة بارتفاع يعتقد بأنه 10 آلاف قدم إلى إطلاق زناد جهاز التوقيت الذي سيقوم بدوره بتفجير الشحنة المتفجرة بالعبوة. وقد تم صنع العبوتين في المنزل السري في صوفيا وهربتا فيما بعد إلى أوروبا الغربية. وكان أربعة عناصر تابعون للجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ قد اختبروا هذا الجهاز في ألمانيا الغربية بارتفاع بلغ 2887 قدم في جبال فيلدبيرغ وهي أعلى قمة في سلسلة جبال تاونوس شمال غرب فرانكفورت. وعندما تبين أن هذه الأجهزة ناجحة عملياً جرى حزمهما بعلبة غلفت بأوراق بنية كطرود بريدية وأرسلت كما قيل من مركز بريد في فرانكفورت.

ويبدو أن المخططين كانوا على علم بعدم وجود تفتيش أمني على الطرود المرسلة إلى بإسرائيل...

وبقيت التفاصيل الفعلية لما حدث بعد ذلك في طي الشكوك والاحتمالات. فقد كان على أجهزة مخابرات أكثر من 12 دولة ان تجمع قطعاً صغيرة من بعضها البعض لحل اللغز. فآثار الكارثة لم تترك على أية حال سوى القليل جداً من إمكانية التحليل.

فبعد ظهيرة يوم 21 شباط 1970 كان قائد الطائرة ارمانث اتيان يحيى مسافري الطائرة السويسرية برحلتها رقم 330 في مطار زوريخ ـ والتي ستحلق خلالها لمدة أربع ساعات لكي تصل إلى مطار اللد في إسرائيل. ورغم أن ذلك اليوم كان ممطراً فقد طمأن الكابتن اتيان المسافرين الـ 35 شخصاً على طائرته بأنها ستكون رحلة ممتعة إلى الأراضي المقدسة، وكان الملاحون على متن الطائرة يبذلون كل

ما بوسعهم لخدمة المسافرين، وبعد خمس عشرة دقيقة من التحليق في الجو تقريباً، وحين أصبحت الطائرة على ارتفاع 14 ألف قدم ضرب الانفجار مؤخرة الطائرة في حجرة شحن حقائب الطائرة التي كانت تدعى كورونا ـ ورغم أن الانفجار كان كبيراً إلا أن الكابتين اتيان اعتقد بأنه سيتمكن من الهبوط عائداً بالطائرة بسلام إلى مطار زوريخ نفسه.

أخذ يخاطب بهدوء موظفي المطار عما حدث (وهو صاحب خبرة طويلة في الطيران) محاولاً الاستدارة بالطائرة والانخفاض بها تدريجياً بينما امتلأ داخلها بالدخان المتصاعد من مؤخرتها. وبعد ثوان قليلة أبرق اتيان لزوريخ آخر كلماته: «نحن نتحطم» «وداعا للجميع . . وداعاً».

تحطمت الطائرة السويسرية برحلتها رقم 330 فوق غابة أخشاب كثيفة في الكانتون السويسري آرغاو ـ ويبدو أن جهاز التوقيت الذي أعده خريسات قد انطلق قبل أوانه. ولكن النتيجة كانت مميتة، فقد مات جميع المسافرين والملاحين وعددهم 37 جراء الانفجار الذي ناثرها على عدة اميال. ولم يكن من بين ركابها سوى 15 مسافراً إسرائيلياً بينما كان البقية من السويسريين والأوروبيين. وأدى انفجار الطائرة إلى اشتعال حريق في الغابة السويسرية. وهكذا أسدل الستار بالتصفيق.

أما العبوة الناسفة الثانية من صنع خريسات فقد شقت طريقها إلى طائرة الكارافيل التابعة للخطوط الجوية النمساوية المسافرة من فرانكفورت إلى فيينا فتل أبيت وانفجرت هذه العبوة فعلياً عندما وصل ارتفاع تحليق الطائرة إلى 10 آلاف قدم، ولكنها فشلت في الوصول إلى حجرة احتراق الطائرة. مما جعلها تحدث ثقباً بمساحة قدمين في حجرة شحن الحقائب بالمؤخرة. ونجح قائد الطائرة بالعودة بها إلى فرانكفورت دون أضرار خطيرة وجرحى. وهكذا أنقذت أرواح الـ 38 مسافراً وملاحاً بمعجزة، وفشلت عبوة خريسات هذه في ما خطط لها أن تفعل. وبدأت الدلائل التي أدت إلى الانفجار بالظهور، حيث سحبت بقايا العبوة من الطائرة واستدعي خبراء من ألمانيا الغربية، والنمسا، وبريطانيا، وفرنسا،

وإسرائيل بالطبع لدراسة هذا الجهاز والاعداد لاستراتيجية مضادة لهذا السلاح الجديد المكتشف. فقنبلة جبريل هذه جعلت معظم أجهزة مخابرات العالم تسهر االليالي.

بعد ذلك قام ناطق باسم الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ من إحدى المكاتب في القسم المسلم من بيروت، ويدعى أبو مريم بالإعلان عن مسؤولية تدمير الطائرة السويسرية.

يوم 21 شباط 1970 كان يوم الاعلام الحمراء في معظم عواصم العالم، فرجل جديد لا بد ان يحسب له الحساب يشق طريقه إلى المسرح العالمي. كانت إسرائيل تعرف عن أحمد جبريل منذ سنوات ـ فملفه عندها يضم مجلدات وكان معروفاً لديها بأنه يمثل تهديداً عسكرياً وليس مجرد لاعب دولي.

بهذه الطريقة انجز رجل تلقى التدريب العسكري بالجيش السوري والقليل من التدريب الرسمي على فن التخريب الدولي ما وعد به المفكرين والدعاة الفلسطينيين منذ مدة طويلة ولم ينجحوا في تحقيقه.

وفي عام 1970 كشف جبريل براعته المتعددة وبرهن على أن حربه ضد إسرائيل أصبحت صراعاً يشن على عدة جبهات. كان ربيع ذلك العام يمضي بسرعة مخلفاً وراءه صيفاً حاراً، شهدته تلال الجبال الشمالية التي تحولت فوقها الزهور الأرجوانية المليئة في تلك التلال إلى زهور ضربتها السمرة والذبول فزعاً من حرارة الشمس. أما نباتات الأوراق السميكة التي أصبحت إحدى الأسباب الرئيسية لصداع المزارعين في ذلك الجوار فقد شكلت «للإرهابيين» هبة من السماء تمنحهم التمويه الطبيعي. فهي توفر لقوة صغيرة من الرجال الاختباء بين تلك الأعشاب لأيام عديدة دون أن يلاحظ أحد شيئاً ومن خلالها تتمكن هذه القوة من رصد تحركات العدو والهجوم متى شاءت. كانت تقع هناك افيفيم إحدى أكثر المستوطنات الزراعية الشمالية انعزالاً حيث لا تبعد عن الحدود المحصنة مع لبنان سوى عشرات الأمتار. (افيفيم) هذه أصبحت آنذاك هدفاً ذا فائدة خاصة لأحمد جبريل.

في ساعات الصباح الباكر من يوم 20 / 5/ 1970 قامت مجموعة «إرهابيين»

تابعة للجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ بعبور الحدود اللبنانية المحصنة، وسارت عبر ممر لا ينسى باتجاه موقع مخفي يشرف على طريق ممدود يصل كيبوتس بارعام ومستوطنة افيفيم. كان الرجال يرتدون ملابس خضراء مموهة، ويتصلون ببعضهم البعض عبر جهاز اتصال (ووكي توكي) مع مركز القيادة المركزية الذي يبعد عدة كيلو مترات داخل الأراضي اللبنانية. وكانوا يحملون من الأسلحة ما يكفي لصد قوة بحجم فصيلة عسكرية لساعات متعددة. فبالإضافة إلى بنادق الكلاشينكوف الروسية (47 ـ) وبنادق القنابل الهجومية 7,62 والقنابل اليدوية (اف ون) كانت المجموعة تحمل أيضاً بنادق (آر , بي. جي) السوفياتية المضادة للدبابات والتي يمكنها اختراق الدبابات والعربات المسلحة، وعندما بزغت الشمس وأضاءت فجأة الحقول والتلال وأمسك «الإرهابيون» بإحكام قبضات أسلحتهم تشكل منهم ما يمكن للنظارات الميدانية (من انعكاس الشمس) أن تعكسه من قوة. . . فقد اقتربوا من الهدف.

لم يكن الهدف في ذلك الصباح من أيار المشمس دورية للجيش الإسرائيلي، وانما حافلة مدرسة كانت تقل الطلاب من مستوطنة (افيفيم)، ومتجهة إلى المدرسة في كيبوتس بارعام، والتي تقع على بعد كيلو مترات من آخر الطريق الممتد. وعندما اقتربت الحافلة من منعطف الطريق انتصب بسرعة فائقة «إرهابيان» من المجموعة واضعين الحافلة البطيئة السرعة في مركز نظرهم على (الآر بي جي. .) والتقط كل منهما تنفساً عميقاً وعلى نحو بطيء أخرجا زفيرهما ليضغطا في ذلك الوقت على زناد بنادقهما. وكلمح البصر انطلقت القذيفة المضادة للدبابات في الهواء عبر ممر صاعق لتخترق الحافلة بقوة هائلة. فتحولت الحافلة على الفور إلى كتلة نارية جهنمية. وبسرعة فائقة أيضاً أمسك «الإرهابيون» ببنادقهم الرشاشة وبدؤوا بإطلاق نيرانها (7,62) قبل ان يفروا عائدين إلى الحدود. كان الدخان المنبعث من الحافلة يرى من أميال بعيدة. هكذا قتل ـ 11 ـ تلميذاً وثلاثة أساتذة في ذلك الصباح، بينما أصابت حروق خطيرة وتشوهات عشرات آخرين*. كان

* ما لايذكرة المؤلف أن الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة اعلنت ان هذه العملية جاءت رداً على مذبحة مدرسة بحر البقر في مصر، حيث قصفت الطائرات الإسرائيلية هنا المدرسة وقتلت مئات التلاميذ.

هذا بلا شك أرهب هجوم «إرهابي» يشن على الحدود الشمالية لإسرائيل. . . لم يهضم الضباط العسكريون من ذوي الخبرة بالمعارك ذلك الاستهتار القاسي، والوحشية غير المميزة في قتل عدد كبير من التلاميذ. حتى أن العديد من الناس الذين حضروا إلى مكان العملية في ذلك اليوم، ومن ضمنهم ضباط مخابرات أقسموا على أن ينتقموا شخصياً من الرجال المسؤولين عن هذه العملية. فمذبحة التلاميذ الصغار هذه شدت الرأي العام الإسرائيلي ووحدته على هدف الانتقام.

وعلى إثر تلك الهجمة الإجرامية على حافلة المدرسة أعلن موشيه دايان وزير الدفاع الذي زار مكان المذبحة بغضب شديد وتوعد أثناء زيارته للحدود مع لبنان بأنه إذا «كانت الحكومة اللبنانية لا تعتبر أن من مهمتها حماية الحدود من «الإرهابيين» فنحن سنقوم بهذه المهمة» وعلى هذا النحو بدأت الدورة المتواصلة للعمليات الدموية والخطف بين لبنان ـ إسرائيل والجبهة الشعبية ـ القيادة العامة.

هذا العمل الدموي الذي قامت به أيدي جبريل أدى إلى إحباط كبير لدى الإسرائيليين، إذ جاء توقيته بعد خمسة أيام من الاجتياح الذي قامت به قوات الجيش الإسرائيلي من مظليين وغيرهم ضد مواقع الفلسطينيين في جنوب لبنان، والتي أطلق عليها (عملية الهجوم الكبير رقم 2) قامت اثر ذلك قوات سلاح الجو الإسرائيلي بتوجيه ضربات عنيفة، وجريئة ضد مواقع الفلسطينيين ولكن دون ان تكون قواعد الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ هدفاً مركزياً للهجمات الجوية لطائرات ماك 2.

وشعرت إسرائيل آنذاك أن بوسعها فعلا تحديد انتقامها الدموي ولكن ضد من؟ فأحمد جبريل ومنظمته كانت تمثل كيانا وحالة عقلية. إذ أن أي انتقام عسكري على طريقة الحرب التقليدية لن يسبب سوى ضرر محدود. هكذا أصبح أحمد جبريل واسع الشهرة في العالم السري «للإرهاب» الفلسطيني . . . ومن خلال هذا المركز الحديث للجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ أخذ جبريل يكسب احتراماً كبيراً وأخذت دورة العنف تتصاعد.

الفصل الثالث

سنوات المعجزات
والإخفاقات والمذابح

الفصل الثالث

سنوات المعجزات
والإخفاقات والمذابح

اعتبرت مذبحة مستوطنة (افيفيم) انتصاراً كاسحاً رفع إلى درجة عالية مكانة الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ فقد شكلت تلك العلمية التي بثت الرعب والوحشية في قلب المواطنين الإسرائيليين بشكل ما حالة استخدمت في تحويل النكبة الفلسطينية إلى حرب حقيقية ـ إلى صراع لا يمكن كسبه إلا بتأسيس دولة فلسطينية على كل الأرض التي احتلتها إسرائيل بشكل «غير شرعي» فقد كانت المطالب هي عودة فلسطين الانتدابية إلى الفلسطينيين وبضمنها الكثير من الأراضي التي أصبحت تعرف الآن بالأردن.

وارتفعت أسهم جبريل عالياً في الثورة الفلسطينية . . . فقد قام بعمل بطولي ترك انطباعاً حسناً نحوه بشكل فاق أي زعيم فلسطيني . ومع ذلك كان جبريل يتجنب الاهتمام الإعلامي. على هذا النحو شق الرجل المعروف بخبرته العسكرية طريقه «كإرهابي» متفوق.

وإذا كانت سنة 1970 قد بدأت بأحسن حالاتها مع أحمد جبريل والجبهة الشعبية ـ القيادة العامة. إلا أنها انتهت بكارثة على الفلسطينيين.

شكلت مملكة الأردن الصحراوية منذ انتهاء حرب الأيام الستة للفسطينيين قاعدة ملائمة ومحصنة لشن العمليات منها ضد إسرائيل فقد أقامت المنظمات الفلسطينية «فتح ـ والجبهة الشعبية ـ والجبهة الديمقراطية ـ والصاعقة ـ والقيادة العامة» قواعد التدريب ومواقع الإنطلاق منها.

فعلى الضفة الشرقية لنهر الأردن داخل التلال والممرات الوعرة في تلك المنطقة كانت المنظمات الفلسطينية (فتح ـ والجبهة الشعبية ـ والجبهة الديمقراطية ـ والصاعقة ـ والقيادة العامة) قد أقامت قواعد تدريب ومواقع استطلاع وانطلاق للعمليات لتعبيد الطريق أمام إنشاء الدولة المستقلة. وكان كل فلسطيني يتسلل عبر نهر الأردن المتعرج يواجه عادة بالعناصر الطليعية للجيش الإسرائيلي من كتيبة وادي الأردن (هابيكعا)، والتي كانت تتشكل من قوة مظليين استطلاعية ومن الرجال البدو قصاصي الأثرالذين يقومون باصطياد «المتسللين» بلا رحمة ولا شفقة.

اما الدوريات «الإرهابية» الفلسطينية التي كانت تنجح في تجنب سور الإنذار المبكر الالكتروني (والذي يتشكل من تحصينات مسيجة بالأسلاك الشائكة ـ وحقول الغام ومجسات الكترونية) وتتسلل إلى منطقة البيوت الآمنة، والخلايا السرية التابعة لها في الضفة الغربية للقيام بالعمليات «الإرهابية» داخل إسرائيل (داخل الخط الأخضر) فقد كانت عملياتها هذه تستدعي بالتأكيد العمليات الانتقامية العسكرية الإسرائيلية ضد الأردن وحينما تكون الإصابات الإسرائيلية جراء العمليات «الإرهابية» مرتفعة العدد مثلما جرى على سبيل المثال في 22/ 11/ 1968 حين انفجرت سيارة مفخخة في القدس ـ محانية يهودا ـ وتسببت في مقتل 11 إسرائيليا وجرح 68 تصبح العلمية الانتقامية من إسرائيل أكثر كثافة.

لم يكن لجيش حسين الذي هزم بقسوة في حرب عام 1967 وأعيد بناؤه الا القليل من العمل إلى جانب مراقبة الطائرات الإسرائيلية ووحدات الكوماندو الإسرائيلية التي كانت تهاجم مملكته. حيث كان الكثير من المواطنين الأبرياء المدنيين الأردنيين الذي قدر لهم سوء الحظ السكن بجانب مخيمات اللاجئين

يقتلون او يجرحون جراء تلك العمليات الانتقامية التي كان يقوم بها الجيش الإسرائيلي. ولذلك أصبح وقوف المملكة الهاشمية إلى جانب النكبة الفلسطينية عبئاً كبيراً عليها إضافة إلى ما يسببه من توتر.

خلال أعوام 1968 ـ 1969 ومستهل عام 1970 كان الفدائيون قد قاموا بأعمال استفزازية تسببت في عمليات انتقامية من قبل إسرائيل خاصة الغارات التي كانت تقوم بها قوات المظليين، وقوات الكوماندو الإسرائيلي. مثل العملية التي أطلق عليها اسم (عملية ريميدي ـ العلاج) في 21/ 3/ 1968 والتي شنتها قوات مشتركة من المظليين والوحدات المسلحة ضد المواقع الأردنية في جنوب البحر الميت. والعملية التي أطلق عليها اسم «العملية الحديدية» (IRON) في 2/ 12/ 1968 التي دمرت جسرين استراتيجيين يربطان عمان بالعقبة على البحر الأحمر وعملية (كاردينال في 17/ 6/ 1970 التي هوجمت خلالها حشودات «الإرهابيين» قرب الزرقاء وكذلك عملية (الدمور) في 8/ 6/ 1970 والتي دمر خلالها عدة مبان في الكرامة وما حولها، إضافة إلى زرع الألغام الأرضية على طريق الكرامة ـ عمان، وكذلك عملية (سينافون ـ القرفة) في 12/ 7/ 1970 والتي استهدفت تمشيط وتدمير كل ما تجده القوات الإسرائيلية أمامها في الضفاف الشرقية للبحر الميت. وكانت القوات الإسرائيلية الغازية تلقى الإسناد من قبل سلاح الجو الإسرائيلي الذي كان يحلق في الحقيقة بحصانة وطمأنينة فوق الأجواء الأردنية.

وبالإضافة إلى ما أحدثته إسرائيل من تفاقم في التوتر الأردني الفلسطيني، كان الفدائيون الفلسطينيون هم أيضاً يساهمون فيما يوصلهم إلى حتفهم في المنفى الأردني. حيث كان أولئك الفدائيون المثقلون بالأسلحة والسكارى غير المنضبطين، والقوة في يدهم، يتجولون في دولة بلا قانون ولا يستجيبون الا لقادتهم المحليين، ويقومون بمئات من الأعمال ضد المدنيين الأردنيين. وإذا ما حاولت الشرطة او القوات المسلحة الأردنية التدخل للحفاظ على النظام يلجؤون على الفور إلى استخدام القوة المسلحة ضدها. وكان الملك حسين كلما حاول تعزيز قواته لسحق أي خلاف او نزاع مسلح بالقوة والعنف، كان عرفات وحبش يسارعان كالعادة إلى الاتصال بالرئيس المصري عبد الناصر لمناشدة الملك حسين

بضبط النفس. وكان الحسين الذي يعتمد بأشكال شتى على القدرة العسكرية المصرية في حماية نفسه (كعامل موازن للطموحات السورية) عادة ما يذعن لعبد الناصر. وفي غضون ذلك اتقدت أيضاً العداوات العنصرية بين الأردنيين والفلسطينيين لتزيد من نار العنف. فقد كان رجال القبائل البدوية الذين يتشكل الجيش الأردني منهم يعاملون الفلسطينيين سكان المدن بالازدراء والاحتقار. وكان الفلسطينيون المثقفون الذين يعتبرون أنفسهم النخبة المتقدمة في العالم العربي يعاملون بالمثل بدو المملكة ويعتبرونهم من سكان الصحراء المتخلفين والمنافسين لهم في الأرض والمصير.

وهكذا ساد وضع مخيف من التوتر، والكراهية، وشق طريقه في قلب الوفاق الهش الذي توصل إليه الزعماء الوطنيون وزعماء القبائل. كان الوضع لا يمكن أن يستمر دون التسبب باندلاع حرب دموية ووحشية. وكان الملك حسين يتعرض لضغط هائل في موازنة زمام الحكم إلى أن وجد نفسه أمام دولة فلسطينية صغيرة تحتويه وتنشأ داخل المملكة.

في عام 1970 أصبح عدد قواعد الفدائيين 55 قاعدة، تنتشر من سهل مرتفعات الجولان في الشمال إلى التلال المحيطة بعمان في الشرق إضافة إلى سلسلة المعسكرات المنتشرة على طول نهر الأردن.

كما أن تدفق الكثير من المقاتلين إلى بلد لا يزيد عدد سكانه على مليوني نسمة أدى إلى التسبب بمشاكل أمنية كبيرة. فقد كان أفراد القوات الفلسطينية يحملون أسلحتهم علناً في المدن الرئيسية الأردنية بل أنهم كانوا يحملون أسلحتهم الثقيلة قرب قصر الملك حسين في عمان.

وربما كان أكثر العناصر إثارة للأعصاب في وجود تلك الدولة الصغيرة الفلسطينية هو نفوذ الكتلة السوفياتية فيها، وكذلك الدعم العسكري لها من خلال تدفق الأسلحة ودخول عملاء الكتلة وتحركهم الحر مع القوات الفدائية. والحقيقة أن وجود النفوذ السوفياتي والسوري والعراقي والمصري بهذا الشكل المسلح ومعاداتهم للغرب كان يمثل إشارة واضحة للملك حسين بوجود خطط لإسقاطه عن العرش والسلطة، ولتصفية نظام الحكم التاريخي لعائلته الهاشمية.

وعلى أية حال لم تبدأ مظاهر التوتر في التلال الصحراوية غربي الأردن وإنما في لندن، وامستردام، وفرانكفورت، وزوريخ، عندما قدم جورج حبش للعالم «أحد» خطف الطائرات (أي يوم أحد خطف الطائرات).

ففي الأحد 6/ 9/ 1970 شنت الجبهة الشعبية واحدة من أضخم عملياتها. إذ قام جورج حبش بغية التعويض عن أخطائه وعن انشقاق رموز هامة من صفوفه (خاصة أحمد جبريل ونايف حواتمه) وكذلك بسبب التدقيقات الأمنية المتخذة حديثاً في معظم مطارات أوروبا باستخدام معظم عناصره الموثوقين في ضربة واحدة للبرهنة للعالم على أن الفلسطينيين جادون عملياً في خلق ثورة عالمية حقيقية. كما كان (أحد خطف الطائرات) يستهدف أيضاً تحذير البلدان العربية بأن توصلها إلى أي نوع من أنواع وقف النار مع إسرائيل سيؤدي إلى اشتعال عمليات «إرهابية» واسعة النطاق ولا تحدها حدود. وفي الحقيقة كان عبد الناصر قبل أيام قليلة من ذلك التاريخ قد وافق على وقف للنار على طول خط قناة السويس برعاية أمريكية. وقد غضب الفلسطينيون من ذلك ولا سيما حبش إذ اعتبروه عملاً فردياً من جانب مصر. وبعد أيام قليلة برهنت عملية حبش وآثارها اللاحقة على أن جبريل كان محقاً في ابتعاده عن خطف الطائرات.

كانت الطائرة الأولى التي خطفت في 6/ 9/ 1970 هي طائرة تي دبليو أي (T-W-A) في رحلتها من فرانكفورت إلى نيويورك، وأخذت الطائرة إلى مدرج في وسط الصحراء الأردنية قرب الزرقاء.

وكانت الطائرة الثانية المخطوفة سويسرية الجنسية في طريقها من زوريخ إلى نيويورك وقيدت هي أيضاً إلى نفس المكان.

والطائرة الثالثة المفترض خطفها فيما بعد ظهر اليوم الأحد 6/ 9/ 1970 كانت تابعة للعال وهي في طريقها من امستردام إلى نيويورك واختطفت فعلاً من قبل أتربع «إرهابيين». وكانت ليلى خالد هي التي تقود اصعب هذه العمليات ـ «المرأة الفاتنة وعشيقة وديع حداد كما قيل».

كان مقرراً لليلى خالد ومساعديها السيطرة على الطائرة بعد 15 دقيقة من إقلاعها ولكن العملية ابتليت بسوء الحظ وبالتوقيت الخطأ منذ البداية.

أولاً: لم يتمكن إثنان من المجموعة الخاطفة من الوصول إلى الطائرة بسبب الازدحام العسير في العاصمة الهولندية.

ثانياً: قام رجال الأمن من (الشين بيت) الموجودون في الطائرة برد فوري على عملية الخطف المعلنة وتسببا بجرح خطير لأحد «الإرهابيين». هو باتريك آرغويلو ـ من بورتوريكو ـ جراء الطلقات من عيار (22 كاليبر) ومات آرغويلو من جراحه. أما ليلى خالد فقد صدمها على الأرض أحد المسافرين الغاضبين وسيطر عليها.

وفي النهاية كان أحد المسافرين على متن تلك الطائرة هو الميجر جنرال أهارون ياريف مدير المخابرات العسكرية الإسرائيلية (آمان).

ومع أنه لم يكن قد اتضح حتى هذه اللحظة وجود ياريف مسلحاً أو ما اذا كان برفقته أحد حراسه إلا أن رجلاً مثله يحمل أكبر أسرار الدولة معه لم يكن ليسمح بنقله إلى الأردن أو أي بلد عربي آخر دون قتال.

وهكذا تحولت الطائرة إلى لندن حيث نقلت ليلى خالد وزميلها الثالث إلى معتقل بريطاني.

وقبل مضي أقل من 72 ساعة على تلك العملية قامت الجبهة الشعبية بخطف طائرة بريطانية (بي أو أي سي) وهي في طريقها من بومباي إلى لندن وأجبرتها على الهبوط في نفس المطار (الذي سمي أثناء ذلك بمطار الثورة) على أمل أن تؤدي هذه العملية إلى تأمين إطلاق سراح ليلى خالد فوراً. وقد نجحت العملية حين اذعنت بريطانيا لهذا الشرط ونقلت جواً ليلى خالد إلى الأردن حيث استقبلت استقبال الأبطال.

وبعد بعض اللعب الإعلامية واطلاق سراح جميع الركاب المسافرين في الطائرات الأربع (حيث كان معظم الركاب محجوزين ضمن حرارة الشمس الصحراوية الحادة في أجزاء مختلفة من الطائرة) أمر حبش بتفجير الطائرات الأربع.

لقد شكلت الأعمال اللاحقة، تدمير الطائرات بواسطة المتفجرات وتناثر كابين القيادة صورة مصغرة للغطرسة الفلسطينية في الأردن أثبتت أنها القشة التي قصمت ظهر البعير أمام صبر، وتحمل الملك حسين. وبينما كان الملك حسين يقوم بزيارة إلى وحدة من وحدات نخبة اللواء 40 المسلح الذي يعتبر قوة قتالية موالية بشكل متعصب للعرش، شاهد الملك صديرية نسائية تتدلى من هوائي إحدى الدبابات. كانت هذه إشارة واضحة لقرف، وتعب العسكرتاريا الأردنية من الفلسطينيين الذين حولوهم إلى نساء.

في غضون ذلك باتت دورة الفعل الأردني واضحة:

فإما القتال وإما الانسحاق الفعلي.

في 16 أيلول 1970 اطلق الحسين العنان لجيشه البدوي لاستئصال الفدائيين الفلسطينيين من الأردن. وهكذا وقعت المذبحة التي استمرت أسبوعين والتي أصبحت تعرف لدى الفلسطينيين باسم أيلول الأسود. تجاوزت الوحشية والرعب الذي ساد القتال في مخيمات الأردن وشوارع مدينة عمان والزرقاء كل تصور وخيال. حيث كان الأسرى من الجنود الأردنيين يلقون العذاب حتى الموت بينما كان جنود الدبابات الأردنية يربطون جثث القتلى الفلسطينيين على ظهر دبابات السنتوريون والعربات المسلحة لقوات صلاح الدين، ويجرونها داخل ممرات وأزقة المخيمات في عرض مرعب ومفزع لإهانة وردع الفلسطينيين في المخيمات. وكان كل طرف ينافس الطرف الآخر في الأعمال الوحشية التي يقوم بها إزاء الأسرى والسجناء والجرحى والمدنيين.

في غضون ذلك قام السوريون «بغزو عسكري» لشمال الأردن دعماً لاخوتهم الفلسطينيين، ولكن القوة العسكرية الأردنية المحترفة خاصة الطائرات المقاتلة ضد الدبابات (البريطانية الصنع)، والتابعة لسلاح الجو الملكي الأردني أثبتت قدرتها ضد السوريين والفلسطينيين، واستناداً إلى بعض التقارير فقد أوضح الإسرائيليون والولايات المتحدة للسوريين (وللسوفيات) أنه إذا تعرضت الأردن عسكرياً إلى وضع محفوف بالمخاطر فإن الجيش الإسرائيلي وقوات الأسطول السادس الأمريكي سيتدخلان للدفاع عن الأردن.

ومن الجدير بالذكرأن العديد من الفدائيين الفلسطينيين ومن ضمنهم عدد من ضباط الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة فضلوا عبور نهر الأردن والاستسلام للقوات الإسرائيلية بدلا من التواجه مع الكتائب البدوية الأردنية والفلسطينية التابعة للملك حسين(*).

في غضون أسابيع قليلة اندحر الفدائيون من مواقعهم المحصنة وأجبروا على العمل من لبنان بعد أن تكبدوا خسائر فادحة ـ آلاف من القتلى ـ وبعد أن هلكت معظم قواعدهم التحتية، وفقدت الوحدة العربية وجودها خلال قتال حرب العصابات في عمان. أما الرئيس عبد الناصر الزعيم العربي الكبير للعالم العربي فقد أصيب آنذاك بنوبة قلبية مميتة بسبب التوتر الهائل الذي عانى منه أثناء جهود الوساطة التي أنهت الحرب الأهلية الأردنية.

بعد ذلك وجدت جميع الفصائل الفلسطينية نفسها بحالة من الضعف والانفلاش باستثناء الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة.

لقد كان أيلول الأسود بالنسبة للكثير من الفلسطينيين يضارع في نكبته نكبة تأسيس دولة إسرائيل، إلا أن أيلول الأسود كان بالنسبة لجبريل تجسيداً لكل بُعد في من أبعاد الظاهرة الفلسطينية، التي تعهدت منظمته بالتمسك بها وهي: ان العمليات التي تجلب الكوارث تستهدف الحصول على الاستهلاك الإعلامي وليس الحصول على الانتصارات العسكرية طويلة المدى، وهي تعوزها القدرة العلمياتية والجيوبوليتيكية كما أنها سمسرة لنزوات زعماء الدول العربية المشكوك بإخلاصهم للقضية الفلسطينية. كان جبريل مصمماً على استغلال نتائج ذلك النزاع الدموي لصالحه.

وفي حين اعتبر الكثير من الزعماء الفلسطينيين أيلول الأسود ضربة حاسمة ضد طموحات الشعب الفلسطيني اعتبر جبريل نتائجها فرصته المناسبة لتدعيم

(*) لقد كان تدخل القوات الاسرائيلية في تلك الفترة هو الذي ادى الى وقوع بعض الفدائيين أسرى بأيديها وليس استسلامهم لقواتها.

الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ كقوة حاسمة في الحرب ضد إسرائيل. وقد جعلت أحداث أيلول الأسود جبريل فعلاً أقوى مما سبق ـ فهو كان قد نقل الكثير من قواعده إلى لبنان وسوريا اثر تأسيس الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ عام 1968. كما أن شبكة كادره التدريبي والعملياتي بقيت كما هي دون أن تخسر أحد من حمام الدم بالأردن. وعندما أخذ الآلاف من مقاتلي فتح والشعبية ـ والديمقراطية يتمركزون عام 1971 في لبنان لاقامة جبهة واسعة النطاق ضد إسرائيل، كان جبريل قد بدأ يقوم بأعماله، كالعادة عبر الحدود اللبنانية مؤسسا قاعدة عمليات قوية. ففي عام 70 ـ 1971 كانت القيادة العامة قد نفذت حرب استنزاف فعلية ضد حدود إسرائيل الشمالية وهضبة الجولان حيث كانت من هناك تقوم بجهد واحد مشترك مع الجهود السورية لشن حرب أعصاب واستنزاف ضد الإسرائيليين.

ورغم أن تلك الهجمات لا تقارن بالطبع بالمذبحة الدموية قرب مستوطنة افيفيم، إلا أنها تسببت بخسائر بشرية ومادية لا بأس بها. فمن بين أبرز تلك العمليات التي قامت بها الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ كانت علمية إصابة عدد من الأولاد بجروح في كيبوتس حانيتا من خلال زرعها الألغام الأرضية، وكذلك مقتل خمسة مدنيين عندما زرعت القيادة العامة لغما انفجر بسيارة قرب مستعمرة رامات مغشيم، وجرح فتاة في لغم زرع في كيبوتس بارعام. وفي نفس الوقت كان جبريل يصنع لنفسه شهرة في جبهة معارك أخرى بعيدة عن شمال إسرائيل. فقطاع غزة كان يمثل في عام 1970 نسخة عن الغرب البري الأمريكي، ولكن في الشرق الأوسط. فقد فتحت الفصائل الفلسطينية المسلحة مستخدمة الأسلحة التي خلفها وراءه الجيش المصري عام 1967 جبهة «إرهابية» خطيرة ضد سكان جنوب إسرائيل.

إذ تمكن «الإرهابيون» من مخيمات اللاجئين الثمانية ـ (الشاطيء ـ والنصيرات ـ والبرج ـ والمغازي ـ ودير البلح ـ وخان يونس ـ ورفح ـ وجباليا) من استخدام المئات من الكهوف والمخابيء السرية تحت الأرض لإخفاء الأسلحة والعمل من هناك كخلايا صغيرة وكبيرة، بحيث أصبحوا قادرين على شن حرب

عصابات من طراز «اضرب واهرب» بحصانة وطمأنينة، حتى أن غزة أصبحت بلداً مُهلِكاً يعيش بلا قانون. فالوحدات العسكرية الإسرائيلية المخصصة للقطاع أصبحت عاجزة عن مجابهة الفدائيين.. وأصبحت العمليات الهجومية «للإرهابيين» ضد جنوب إسرائيل أكثر هلاكاً أسبوعاً تلو آخر حتى أن الرأي العام الإسرائيلي خاف من انتشار سرطان الفوضى المتزايدة في أسفله الجنوبي وطالب بالرد....

ومع أن جبريل كانت تفصله عن غزة مئات الكيلو مترات والعوائق الكثيرة إلا أنه كان قادراً على إصدار أوامره لرجاله الذين لا يزيد عددهم على خمسين من رجال العمليات من خلال راديو القدس ـ محطة الإذاعة التابعة للجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ والتي تبث من سوريا إلى الأراضي المحتلة.

واستناداً الى بعض المصادر الإسرائيلية كانت سمعة جبريل في قطاع غزة عظيمة، سمعة تدعمها قدراته، وقسوته، ورغبته باللجوء إلى العنف ضد زملائه الفلسطينيين. (وكما يقول الصحفي الإسرائيلي يورام بن أور في كتابه بعنوان «عدوي نفسي» «ان ذكر اسم جبريل ما يزال يحمل حتى الآن درجة مخيفة من قوة الرعب في قطاع غزة».

وعندما ضاق وزير الدفاع الإسرائيلي الليفتنانت جنرال موشيه دايان ذرعاً من عدم الفاعلية العسكرية ضد الفدائيين (في غزة)، قام بدعوة رجل كان يعرف عن ثقة بأنه سيقدر على سحق «المتاعب» هناك، وهو قائد المنطقة الجنوبية الميجر جنرال آرئيل (اريك) شارون. استدعيَ ذلك الجنرال الشرس إلى الحملة ضد الفدائيين بسبب براعته، وطرقه المتعددة في شن الحرب غير النظامية. وتعهد شارون بتطهير القطاع شخصياً وقام فعلاً وهو يرتدي بدلة القتال العسكرية، وبيده بندقية الكلاشينكوف بقيادة عدة اغارات على الفدائيين بنفسه. وقد استخدم شارون القائد السابق لوحدات الكوماندو ومؤسس قوة (الوحدة 101) المتخصصة بالعمليات الانتقامية ضد «الإرهابيين» قوة عالية الكفاءة انتقاها من نخبة قوات الكوماندو الاستطلاعية حيث تدربت على العمل كالفدائيين الفلسطينيين ضمن

أقسى الشروط وأصعبها. وكان العديد من أفراد هذه القوة ينتشرون كالعرب، عندما يقومون بمهامهم في الميدان العسكري هناك، ويهاجمون ليلاً مواقع «الإرهابيين» المعروفة.

كانت الميزة التقليدية للقتال مدعمة بالوجود القوي لعملاء «الشين بيت» لاستئصال وتصفية «الإرهابيين».

إذ كان من الأسلحة الفعالة لشارون هو استخدام «الوشاة» (العملاء) للتعامل الجيد مع خلايا «الإرهابيين». وكان عملاء الشين بيت يتلقون معلوماتهم من أكبر مصدر للمعلومات، وهو الذي كان يجمعه عملاء مكتب مكافحة التجسس: من المجرمين ـ المدنيين ـ وتجار المخدرات والمدنيين والعاهرات والقوادين. وكانت المكافآت على هذه المعلومات، تشتمل على الدفع النقدي، كما تقول تقارير متعددة ـ وعلى تقديم الحماية لرجال الإجرام من منافسيهم المجرمين ومن المنظمات «الإرهابية». ورغم ان الشبكة الإسرائيلية للوشاة العملاء كانت ناجحة جداً ضد العديد من الفصائل الفلسطينية إلا أنها لم تكن لها قيمة تذكر في عملها ضد الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة.

كان هذا الفشل يُعزى في حالات كثيرة لفزع الوشاة العملاء من خيانة جبريل. حتى رجال جبريل الذين كانوا يقعون في الاسر الإسرائيلي اثبتوا أنهم أعداء عنيدون وفخورون ولا يميلوا إلى الانهيار عند استجوابهم من الشين بيت. والكثير منهم حكم عليه بأحكام سجن طويلة في أعتى السجون الأمنية الإسرائيلية ليمتزج بعد قليل بنزلاء السجن «الإرهابيين» المتزايدين فيه ـ ليصبح فيلقا محجوزاً منحه جبريل نفوذاً ملحوظاً. كانت معركة قطاع غزة بنظر جبريل معركة بدائية ولذلك كان أول «تكنوارهابي» في العالم، مصمماً على التألق من خلال التدمير متجنباً الفوضى في خنادق قتال بعيد جداً عن النقطة المركزية والمحورية في الوعي الإسرائيلي.

كان جبريل البراجماتي العسكري قد أدرك بأن قوات كوماندو شارون وعملاء الشين بيت يفوقونه في غزة قوة نارية وبشرية وعملياتية... كما أدرك بأن شارون

يمكنه السيطرة على غزة، ولكنه لن يتمكن من «تطهير» ميدان المعركة البعيد في أوروبا الغربية، ولا تأمين سلامة طائرات العال من التدمير العبقري لمروان خريسات. ولذلك حان وقت العودة إلى مهاجمة الطائرات.

فتدمير الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ للطائرة السويسرية رحلة رقم 330 نجح في نشر الفزع لدى المسافرين بطريقة لم يستطع حبش تحقيقها. فبين خيار ان يقع المرء تحت سيطرة عملية «إرهابية» لعدة ساعات في عاصمة عربية (عمان)، أو أن يمحق من ارتفاع 15000 قدم فوق غابة سويسرية فسيفضل المرء الأولى على الثانية.

لكن تدمير الطائرة السويسرية نبه جميع وكالات الأمن في أوروبا الغربية.

فالرزم ذات الأحجام المعينة والمرسلة إلى إسرائيل أخذت تخضع إلى تدقيق بالغ ـ وفي بعض الوقت لفحص بواسطة أجهزة أشعة (×) قبل أن يسمح لها بالدخول إلى الطائرة.

ولذلك أصبح من الصعب جداً تهريب إحدى عبوات خريسات إلى داخل الطائرة مرة ثانية وان كان ذلك غير مستحيل.. وإذا اصبح البريد غير مجدٍ فلا بد لناقل الرسالة البشري ان يكون مجد في هذه الحالة.

كان «الابتكار» الجديد للجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ هو استخدام رجال عنيدين أو أنظمة نقل بري دون علم المرء بما ينقل. حيث تنقل عبوة المتفجرات إلى الطائرة، وينفجر الشخص مع الطائرة.. كان على الرجال، والناس الذين يقومون بالمهام اليومية بالشبكات التابعة للجبهة الشعبية وفتح وجبهة النضال استخدام أشخاص مخلصين كلياً وراغبين بالتضحية بحياتهم من أجل القضية. فالنويات الثورية الصلبة تميل إلى العمل بأسلوب احترافي وان كان متعصباً، وهم رغم تدريبهم القتالي على حماية انفسهم، والبقاء في ميدان حرب المدينة الا أنهم مدربون أيضاً على أفضلية الموت في المعركة بدلاً من التعرض للاعتقال وكشف الأسرار الحيوية خلال التحقيق معهم من قبل الشرطة او أجهزة المخابرات. فوجود أية منظمة يتوقف على الحفاظ على كتم الأسرار حتى القبر.

كان استخدام الأفراد المستعدين للتضحية بالنفس هو الضمانة العملية الحاسمة للأمن العملياتي، حيث كانت وسائل تنفيذ أية عملية تعد وتنتهي خلال أسابيع. «الاستشهاد» هو الذي يضمن أن تبقى الأسرار العملياتية للجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ داخل الحرم المقدس لمساعدي جبريل.

وبينما كانت ثورة الجنس تدق أبوابها في الولايات المتحدة وأوروبا، لم يكن من الصعب إيجاد الضحية البشرية الجاهزة للعمل إذ يمكن لشاب شرق أوسطي وسيم، ودون صعوبة تذكر، أن يجد وهو يلف عواصم أوروبا متسلحاً بأفكاره السياسية اليسارية، وببعض العملة الصعبة، امرأة يمكن إشراكها في عملية حمل عبوة متفجرة ي حقائبها دون علمها. وسيذكر لها هذا الشاب العربي حقيقته كفلسطيني ويعدها برحلة إلى إسرائيل للتعرف على أسرته. ولأنه عربي فهو يعرف أن نظام أمن طائرة العال المتشدد سينتهك كرامته المدنية، ولذلك هي التي يمكن ان تسافر بطائرة العال ثم يلتقي بها هو في الأرض المقدسة في وقت آخر.

وبالطبع سيقدم هذا «الإرهابي» للفتاة قبيل توجهها نحو الطائرة هدايا عديدة تنقلها لأهله. كانت حركات التحرر وكذلك الثورة الفلسطينية لا تبالي كثيراً بالتضحية بالناس من أجل القضية، خاصة أن الإناث يعتبرن عامل جذب قوي.

في 28 تموز 1971 ذهبت المرأة الشابة الهولندية شديدة الجاذبية والتي سندعوها ببساطة «جيتي» نحو مطار فيوميشينيو ـ روما ـ برفقة عشيقها الشاب العربي الجذاب، وتوجهت نحو جناح الوزن المخصص لطائرات العال.

كان طابور المسافرين على متن الرحلة رقم 426 إلى تل أبيب طويلاً على غير عادته في ذلك اليوم الحار جداً من مساء تموز . . . حيث وقف في ذلك الطابور ما يزيد على مائة من المسافرين المتعبين والمتضايقين ممسكين بحقائبهم بانتظار الاستجواب الإلزامي الذي يقوم به الكادر الأمني لطائرة العال ـ (وجميع الكادر من رجال الشين بيت) ـ للتدقيق بالمسافرين، وفحصهم وفحص حقائبهم بواسطة أجهزة أشعة اكس وأجهزة أخرى قبل إعطائهم بطاقات الصعود للطائرة.

فمن خلال سلسلة من الأسئلة المعدة والتي تستهدف استخلاص أجوبة

محددة . يفترض برجال أمن العال أن يشكلوا حاجزاً استخبارياً بشرياً أمام أي «إرهابي» والحيلولة دون متابعته مهمته كما قال أحد قادة أمن طائرات العال.

وتتضمن الأسئلة: هل هذه حقائبك؟

هل حزمتها بنفسك؟

هل ابتعدت عن الحقائب في أي وقت؟

هل أعطاك أحد شيئاً ـ طرداً أو رسالة أو هدية لإيصالها إلى أحد ما في إسرائيل؟

وفي الحالة التي يبدوفيها على المسافر خطأ ما، أو أن يتعرق كثيراً، او يحاول تجنب النظر إلى أعين من يسأله أو أن تظهر عليه أية شكوك (حين يكون عربياً ففي هذا مصداقية) يتم على الفور إجراء تدقيق أمني مكثف على المسافر وحقائبه. بل يمكن أحياناً أن يجري تفتيش المسافر عارياً. وإذا رفض المسافر المقصود هذا الإجراء يمنع أحياناً من الصعود إلى الطائرة او يعتقل في أحيان أخرى. ويستهدف هذا الإجراء تأمين عدم دخول أي ضرر ممكن إلى الطائرة بغية عدم تعريض أرواح المسافرين الأبرياء للخطر ولو أدى ذلك إلى تأخير إقلاع الطائرة لعدة ساعات.

ومع أن جبريل كان يدرك أن فاعلية أجهزة أمن العال تشكل حاجزاً منيعاً إلا أنه كان يدرك أيضاً أن بعض المسافرين الأبرياء او الفتيات القابلات للتأثر ممن يفكرن بقلوبهن (ويجري الاستحواذ عليهن بعاطفة رومانسية مزيفة) ويعتقدن بأن عشاقهن لن يسببوا لهن الضرر يمكن لهن تجاوز سلسلة الأسئلة التي يسألها رجال الأمن بقليل من الصعوبة...

كما أن جبريل كان يعتقد أيضاً بأن مروان خريسات يمكنه ان يصمم جهاز حديث من نوعه لا يمكن حتى لرجال الشين بيت النجاح في كشفه. وكانت نظرية جبريل سليمة.

وفي الركن المخصص للوزن سلمت «جيتي» بطاقة سفرها، وجواز سفرها

الهولندي إلى موظف الحجز وبعد أن فحص سريعاً جواز سفرها للتأكد من أنه غير مزيف قام بطباعة بطاقة الصعود للطائرة الخاصة بها.

وقبل ان تسلم حقائبها للوزن كان موظف امن الطائرة قد وجه اسئلة لها بالطبع. ومع إنها كانت قد أخذت إحدى الحقائب الصغيرة المليئة بالهدايا من عشيقها لكي توصلها إلى أمه، إلا أنها كذبت عندما سألها موظف الأمن فيما إذا اعطاها احد ما شيئاً لايصاله لإسرائيل. وبينما كانت تنتظر دورها للصعود إلى الطائرة تحركت في داخلها بعض الشكوك بسبب الإجراءات الأمنية المتخذة على طائرة العال، لكن الطبيعة البشرية تغلبت عليها، وقررت منح فائدة تلك الشكوك لعشيقها. دخلت «جيتي» إلى الطائرة وجلست فوق مقعدها في صف الممر.. وعندما حلقت طائرة العال في رحلتها 426 بدأت الشابة الهولندية تتحدث عن قصتها لسيدة تجاورها في المقعد ـ كانت السيدة إسرائيلية تعرف بشكل ملحوظ قليلاً عن «الإرهابيين» الفلسطينيين وطريقة عملياتهم.

بعد إحساسها بالخطر اتصلت السيدة الإسرائيلية بمضيف الطائرة الذي ركض بدوره مسرعاً إلى كابتين الطائرة لإبلاغ ملاحي الطائرة ورجل الأمن المسلح التابع للشين بيت.

وصلت الطائرة العال رحلة رقم 426 تل أبيب بسلام في ذلك اليوم 28 تموز ولم تتوفر للحكومة الإسرائيلية سوى القليل من المعلومات عن الحادث، وكذلك الأمر بالنسبة للعال ولموظفي الأمن الإيطاليين.

اذ لم يعرف سوى أن الحقيبة التي تسلمتها جيتي تحتوي على قاع حديث مزيف يضم داخله جهاز تفجير على الضغط الجوي.

لم يأبه جبريل بهذا الخطأ فحاول مرة أخرى. جرت تلك المحاولة الأخرى في لندن التي كانت بالصدفة تمثل مركز العمليات الرئيسي لجهاز المخابرات البلغارية.

وفي هذه المرة أقام الشاب العربي «روميو» علاقة عاطفية مع فتاة من البيرو في جنوب أمريكا والتي تبلغ من العمر 21 عاماً، والتي سنطلق عليها اسم «داليا»

وكان الشاب يعرف باسم روبيرتو حيث أخبرها بأنه برازيلي من اصل عربي... كرر هذا الشاب نفس السيناريو، وأقام معها علاقة غرام لعدة أسابيع وفاز بحبها وثقتها وجسدها، وعلى نفس المنوال أراد روبيرتو من الفتاة الالتقاء ببعض أفراد عائلته في إسرائيل، فاشترى لها بطاقة سفر ذهاباً وإياباً على طائرة العال وقال لها انه بعد ان يتدبر بعض أعماله في لندن، سينضم إليها في إسرائيل بعد أسبوع تقريباً.

في 1 أيلول 1971 استقلت (داليا) طائرة العال رحلة رقم 16 رغم أنها أدركت ان حقائبها قد حولت من الطائرة قبل الإقلاع، ومع ذلك تابعت رحلتها. وبعد أربع ساعات ونصف هبطت الطائرة في تل أبيب.

كانت العناية الإلهية ترعى طائرة العال وشعب إسرائيل.. إذ لم تعمل بالشكل المناسب العبوتان اللتان كان بوسعهما بسهولة تدمير حياة ما يزيد على 400 مدني بريء. وفي 9 أيلول كشفت حكومة اسرائيل عن الفتاتين في مؤتمر صحفي جرى في المركز الصحفي ببيت سوكولوف بتل أبيب.

ولم يسمح للفتاتين بالإجابة على أي سؤال أو أن تلتقط لهما الصور وإنما تحدثتا عن الطريقة التي أدت إلى خداعهما من العرب، ونقل الحقائب إلى الطائرة.

لكن مسؤولي الأمن الإسرائيليين الذين حضروا ذلك المؤتمر الصحفي لم يكشفوا كيفية الكشف عن العبوتين، ولا عن السبب الذي حال دون انفجارهما، ودون تدمير الطائرة لكنهم على أية حال احضروا الحقيبتين المتطورتين كماهما تماماً دون نقصان. وحمّل مسؤولو الأمن الإسرائيليين الجبهة الشعبية ـ الفيادة العامة ـ مسؤولية هاتين العمليتين الفاشلتين.

دفعت أحداث صيف عام 1971 شركة العال إلى تعزيز نظام مسحها الأمني المحكم في كل نقاط مغادرة الطائرات.

فالحقائب التي تأتي إلى أجهزة الوزن وكذلك التي تحمل باليد سيجري الآن تفتيشها باليد أيضاً. كانت شركة العال تعرف بتأخرها عن المواعيد المقررة

لاقلاعها، وقد ولدت الإجراءات الأمنية الجديدة تأخيراً جعل الناس يرددون بشكل نكتة: «مع العال كل هبوط يصبح متأخراً». كان الأمل هو أن تجعل هذه الإجراءات المحسنة مهمات قيام الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ «الإجرامية» أكثر صعوبة. ولكنها لم توقف على أية حال جبريل وان كان قد تطلب الأمر سنة كاملة ليعود ويضرب مرة ثانية.

ففي مستهل الأسبوعين من شهر آب 1972 جرى إقامة علاقة عاطفية مع فتاتين انكليزيتين تبلغان الثامنة عشر من العمر ـ «روث واتكين» و«اودري والدرون» حيث دعيتا إلى العشاء، واسكرتا في روما من قبل شابين لطيفين «من الشرق الأدنى» كانا قد أبلغا الفتاتين بأنهما طالبين إيرانيين.

وبعد ان ازدهرت العلاقة العاطفية المعدة مسبقاً قرر الرباعي السفر إلى إسرائيل لمشاهدة الأرض المقدسة. وبالطبع اضطر «الإيرانيان» الى الاهتمام بضغط العمل في روما ولذلك سيلتحقان بالفتاتين في موعد آخر...

وفي 16 آب 1972 صعدت الفتاتان إلى طائرة العال في رحلتها رقم 426 وعلى نحو غريب تمكنتا من تجاوز شبكة النظام الأمني الجديدة، والمحسنة لشركة العال حاملتين معهما بعض الأغراض التي أعطيت لهما من «الإيرانيين» للوصول بها إلى إسرائيل، والتي كان من بينها مسجلة جديدة.

فمروان خريسات كان قد أعد شحنة من مادة السيتيمكس (غريد أ) التشيكية داخل الفونوغراف الخاص بالمسجلة، مخفياً هذه المادة، والصاعق بشكل متقن داخل الوحدة الالكترونية للمسجلة.

ومع أن رجل أمن العال الذي فحص الحقائب فشل في كشف المسجلة المفخخة إلا أن الجهود الأمنية لشركة العال حالت فعلاً بطريقة ملتفة دون التدمير الفعلي للطائرة.. فقد تسببت إجراءات الفحص الأمني بتأخير هام في موعد الإقلاع حيث كانت الطائرة ما تزال جاثمة على الأرض، عندما بدأ مؤقت العبوة عمله». ورغم ان المؤقت أعد لأحداث الانفجار عند ارتفاع (20000) قدم، وهو الارتفاع الذي يضمن التدمير الشامل للطائرة إلا أن العبوة انفجرت في حجرة

حقائب الطائرة حين اقتربت البوينغ من ارتفاع (14700) قدم حين لم يحن الضغط الجوي في نقطته الحاسمة.

هز انفجار عنيف الطائرة، تلته صدمة كبيرة في جسم الطائرة أدت إلى تأرجح الطائرة. ودب بين الركاب ما يشبه الرعب وأخذ ملاحو الطائرة يحاولون تهدئة الأعصاب المهتزة للمسافرين الـ 140 بينما بدأ رجال الأمن على متنها حمل الرشاشات الأوتوماتيكية من طراز بريتا 22 مخافة أن يكون الانفجار إشارة البدء بخطف الطائرة. واستناداً إلى ما تقوله التقارير الأجنبية فلقد نجا الركاب والطائرة من التدمير التام في الجو، لأن طائرة العال كان مصفحة بصفائح سميكة ومسلحة..

بعد ذلك قام الطيار بمهارة بتحويل اتجاه الطائرة المرحاض، والهبوط دون أي حادث في روما منقذاً أرواح 154 راكباً فيها. وسارع رجال الأمن من الإسرائيليين والإيطاليين، إلى فحص مكان الانفجار وأخذوا يلملمون القطع الصغيرة السوداء والزرقاء إلى أن تمكنوا من تحديد مصدر الانفجار الذي تبين انه من [illegible] وزنها وتحميلها للفتاتين البريطانيتين..

وتوفر ما يكفي من قطع الفونوغراف، وبعد إعادة تركيبها أصبحت نموذجاً فنياً لما صنعته أيدي خريسات.

وعند التحقيق مع الفتاتين، اعترفتا بقصة الحب القصيرة التي جمعتهما مع العربيين، أما الأمر الذي أفرح المحققين الإسرائيليين والإيطاليين ان الفتاتين قدمتا لهم لقطة من صورة أخذت للعربيين في معرض بروما.

بعد ذلك قام «الإرهابيان» العربيان المزهوان (لأنهما يعتقدان بأن الفتاتين أصبحتا في عداد الأموات وان ما يحملانه من حقائب وحتى الصورة سيبتلعها البحر الأبيض المتوسط) بغباء بخرق أول قاعدة أمنية تعلماها من معسكر تدريب الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة.

فقد عممت صورتهما على الانتربول، وسلمت نسخ منها لكل رجال شرطة

ومباحث في كل البلاد. وبعد ثلاثة أيام شاهد أحد رجال الشرطة الرجلين وهما يسيران بهدوء في إحدى ساحات روما..

وبعد ان استدعى الشرطي التعزيزات القي القبض فوراً على عدنان محمد علي هشام 29 عاماً من الأردن. وعلى أحمد زياد 24 عاماً من العراق. وهكذا وقع أسوأ كابوس لأحمد جبريل. إذ لم تفشل العبوة في تدمير الهدف والشاهدين الوحيدين بل ان محتالي الغرام التابعين لجبريل قدما بعد التحقيق معهما ثروة ضخمة من المعلومات للمحققين.

فقد اخبر الاثنان الشرطة بأنهما اجتمعا بمروان خريسات في يوغسلافيا (ويعتقد بأن خريسات نقل جهاز التفجير من بيته في صوفيا إلى يوغسلافيا لأغراض أمنية) حيث أعطاهما القنبلة والتعليمات في بلغراد.

حوكم الاثنان كما ينبغي، وحكم عليهما بالسجن لمدة طويلة يقضيانها في احد السجون الأمنية الإيطالية المحكمة. ولكنهما لم يقضيا مدة الحكم أبدا واستناداً إلى كلير ستيرينغ الخبيرة «بالإرهاب»، وكتابها التفصيلي الذي يحمل عنوان «شبكة الإرهاب» فلقد أطلق سراحهما ضمن ظروف غامضة، وطردا إلى بلد عربي وربما لم تكن من المصادفة ان يكون كابتن المباحث الشاب الذي أشرف على إطلاق سراحهما هو انتونيو فاريسكو، الذي اغتيل عام 1980 على يد الألوية الحمراء، وهي المجموعة التي تربطها علاقات حميمة مع الجبهة الشعبية - القيادة العامة.

كانت روما استناداً إلى العديد من التقارير، أحد افضل القواعد المفيدة لعمليات منظمة التحرير الفلسطينية في أوروبا. «فالإرهابيون» الفلسطينيون يتلقون فيها معاملة فريدة على يد أجهزة الآمن الإيطالية، مقابل تعهد منظمة التحرير الفلسطينية بعدم تنفيذ عمليات «إرهابية» على الأرض الإيطالية.

ففي عام 1972 كان وائل زعيتر رئيس منظمة أيلول الأسود في روما استناداً إلى تقارير أجنبية أول من يقتل من زعماء المنظمة على يد الفريق الضارب للموساد الإسرائيلي المشهور، كانتقام على ما يبدو لمذبحة أيلول عام 1972 في

اولومبياد ميونيخ. واستنادا إلى تقارير متعددة، قام عملاء المخابرات الايطالية والإسرائيلية في نهاية أيلول عام 1973 بقتل أربعة رجال من الجبهة الشعبية كان يفترض ترحيلهم من إيطاليا، بسبب محاولتهم تفجير طائرة العال بالجو، بواسطة جهاز إطلاق صواريخ SA 7 أرض جو عندما اقتيد الأربعة إلى طائرة عسكرية إيطالية كان مقرراً ان توصلهم إلى ليبيا.

كان الانتربول يتلقى نسخة من أقوال المتهمين على غرار ما تتلقاه أجهزة التحقيق المعنية من ملفات كبيرة لاستخدامها في معرفة أفراد الشبكة الأوروبية التابعة للجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ وتقديمها للقضاء.

ولكن لم يجر العثور على أي اثر لجبريل ورجاله في أوروبا الغربية. اصبح جبريل وشبكته المدربة على يد الكي جي بي والمسؤولة عن تفجير الطائرة السويسرية، والقتل الجماعي لـ 47 من البشر، والمدانة في محاولات تفجير أربع طائرات أخرى في عداد المجهول. ومع أنه كان بإمكان الطيران الدولي تعلم الكثير من عمليات التفجير التي وقعت خلال أعوام 1970 ـ 1972، إلا أنه بدلاً من أن يضع طريقة مقنعة لإجراءات الأمن للمساعدة في تأمين سلامة المسافرين قام بتكريس مصادره لحملات الدعاية البراقة، ولعمليات الترويج. ويبدو أن شركة العال وشركة سويس اير هما الوحيدتان اللتان (أشيع بأن السويس اير تستخدم رجال أمن مسلحين في طائراتها إضافة إلى وسائل حماية أخرى وضعتها في داخل الطائرة) أخذتا عبرة من الفشل الفني الذي حدث بمعجزة جراء عملية جبريل وخريسات واستخلصتا بأنه ينبغي اتخاذ مزيد من الخطوات.

وقد تسبب هذا الإهمال لشركة الطيران الهندية ويوتا الفرنسية وبان آم الأمريكية، بمضاعفات كبيرة في السنوات اللاحقة. لكن احمد جبريل لم يأبه لهذه الاخفاقات، واعتبرها نوعاً من المخاطر الناجمة عن تنفيذ مثل هذه الأعمال الخطرة. فصمم على شن هجوم عنيف جديد، وقام مرة أخرى باستدعاء فريق التدمير الخاص التابع له بقيادة مروان خريسات. وتبين ان الوسائل التي استخدمت لإدخال عبوة التفجير الحديثة إلى الطائرة السويسرية في رحلة 330، على شكل

طرد بريدي جوي قد أثارت اهتمام الزعيم «الإرهابي» الماكر، وما تعطيه من إمكانيات فالبريد يعتبر من اهم البضائع الأكثر قدسية من الطيران الجوي الدولي، وتحميه قوانين صارمة في معظم البلدان.

ولأن «الإرهابي» يرمي في اوضح صورة له إلى تحويل حياة الناس العاديين إلى واقع لا يطاق، بحيث يدفعهم إلى رفض الواقع، والمطالبة بالتغيير فسيوفر له «الإرهاب» عن طريق البريد فرصة تحقيق هذا الهدف المحدد. ولا بدَّ أن جبريل أدرك أيضاً بأن علميات التفجير العشوائي، والقتل في أوروبا الغربية ستتسبب فعلاً بالتخريب والفوضى، وستحمل جيشاً ضخماً من أجهزة المخابرات العالمية على شن حملة عليه، يمكن ان تغضب مؤيديه البلغار والسوفيات. اما إذا قام بحملة واسعة ضد الإسرائيليين، واستخدم فيها جهاز الضرب الفردي مثل الرسالة المفخخة فهذا ـ لن يدفع مؤيديه في الكتلة الشرقية على الضغط عليه لوقف عملياته. ولتنفيذ هذا المخطط.

أما الوسائل، والقوة البشرية لتنفيذ هذه المهام فهي متوفرة. فهو يملك القاعدة التحتية، والتمويل الضروري وان كان قليلاً. وبعد نجاحه في إخفاء العبوات في الطرود البريدية، أصبح لديه الآن وسائله الخاصة. هكذا ولدت الرسالة المفخخة.

كان مبدأ الرسالة المتفجرة بسيطاً. ؤإذا وضعت مادة قليلة وصغيرة من المتفجرات القوية (يعتقد بأن وزنها لا يزيد على أونصه) في ظرف او مغلف وضغطته داخل الحاشية، وربطته بجهاز صغير وعندما يفتح المغلف ينطلق سلك صغير (رفاص) متصل بجهاز الصاعق الذي يولد الانفجار وتنفجر العبوة.

ومع ان الرسالة المتفجرة، لن تسبب خسائر بشرية كثيرة إلا أنها قادرة على تشويه، أو قتل سيء الحظ الذي ستقع بين يديه ويفتحها.

وكان جبريل يفكر بشن هجوم مكثف، بواسطة الرسائل المتفجرة منذ وقت سابق.

ففي 24 شباط 1970 قام رجال عمليات جبريل في فرانكفورت، ويوغسلافيا

بإرسال عدة رسائل مفخخة إلى عناوين في اسرائيل. إلا أنها اكتشفت قبل ان تسلم لأصحابها ولم تقع خسائر.

وفي 28 كانون أول 1971 حاول جبريل مرة أخرى تسديدهجمة «إرهابية» عبر البريد، عندما أرسل رجاله في بلغراد وفيينا 15 رسالة مفخخة إلى رجال أعمال بارزين وإلى مؤسسات في إسرائيل. ويعتقد بأن واحدة من هذه الرسائل وصلت إلى إسرائيل عبر البريد في 1 شباط 1972، وكانت معنونة إلى ضابط كبير في إدارة شرطة تل أبيب. كما وصل مغلفان مفخخان آخران في ذلك اليوم معنونان إلى قادة عسكريين إسرائيليين أحدهم قائد المنطقة الوسطى الميجر جنرال رحبعام زئيفي (الملقب بغاندي).

على أية حال، لم تكن هذه مجرد رسالة مفخخة عادية، وإنما كانت مغلفاً ضخماً يبدو أنه يضم بداخله كتاب، مما أثار شكوكاً كبيرة جعل سلطات البريد الإسرائيلية تبلغ الشرطة فور اكتشافها لهذا المغلف في حقيبة البريد الوارد.

واستدعي خبير تفكيك المتفجرات الرئيسي، في تل أبيب نيسيم ساسون إلى المقر في يافا لتفكيك العبوة.

والجدير بالملاحظة، أن العديد من الإسرائيليين كانوا قد حاولوا معالجة هذا المغلف قبل ان ينجح ساسون في تفكيكها بعد ان انفجرت في يديه واصابته بجروح خطيرة أدت إلى فقدانه عدد من أصابعه وفقدان السمع في إحدى أذنيه إضافة إلى إصابته بتشوه دائم. ورغم ذلك كان ساسون البالغ من العمر 52 عاما محظوظاً في النجاة من قنبلة جبريل، لأن آخرين حول العالم لم يكونوا محظوظين مثله.

لم تغب حملة جبريل الفاشلة في الرسائل المفخخة عن إحدى المنظمات الفلسطينية التي تتنافس على الدور الطليعي في الثورة، وهي أيلول الأسود، التي أنشأها عرفات عام 1970 كذراع فدائي فائق السرية تابع لفتح، للقيام بعمليات انتقامية جريئة وعنيفة ضد المملكة الأردنية، انتقاماً لما فعلته في أيلول الأسود. وتحولت منظمة أيلول الأسود بعد قليل إلى أعنف منظمة «إرهابية» ضد إسرائيل.

قاد صلاح خلف (أبو أياد) وعلي حسن سلامة (المعروف بإسم الأمير الأحمر باسمه المستعار أبو أيهاب) ومحمد داود عوده (أبو داود) تلك المنظمة التي كان من أول ما قامت به هو اغتيال رئيس الوزراء الأردني وصفي التل، على عتبات فندق شيراتون القاهرة في 28/ 11/ 1971. وكما ذكرت تقارير الشهود قام المهاجمون خلال الحادث بالدوس على دمائه. ولكن أشهر عملية لأيلول الأسود هي مذبحة الملعب الأولمبي في ميونيخ في 5/ 9/ 1972، وهي العلمية التي ربطت الفلسطينيين للأبد بصورة «الإرهاب» العالمي وجعلت إسرائيل تعلن حرباً شاملة ضد هذه المنظمة، حرباً على شكل حملة اغتيالات نفذتها المجموعة الإسرائيلية الضاربة ـ والسرية ـ مما أدى إلى تحطيم منظمة أيلول الأسود. فهذه المنظمة كانت قد أرسلت مائتي رسالة متفجرة تقريباً ، (ويعتقد بأنها استخدمت تكنولوجيا تفجيرية وضعها خريسات وجبريل) إلى المنظمات اليهودية والإسرائيلية في أنحاء العالم. مما أدى إلى قتل العديد، حتى أن بعض الرسائل المتفجرة أرسلت إلى رئيس الولايات المتحدة نيكسون، وإلى مسؤولين أمريكيين آخرين.

ومع أن جبريل وخريسات، قد دشنا الرسائل المتفجرة كوسيلة لمتابعة حرب الأعصاب ضد إسرائيل إلا أن نجاح أيلول الأسود بتحويل البريد إلى واقع مخيف كان مقنعاً.

وبغية استعادة بعض الهيبة للقيادة العامة أمر جبريل بإطلاق (مخزن) من الرسائل المتفجرة.

ففي تشرين ثاني 1972 قام عملاء الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ بإرسال عشرات الرسائل المتفجرة من سنغافورة إلى مؤسسات في إسرائيل والقارة الأوروبية. كان الرجال الذين كلفوا بجمع المعلومات والتابعون للقيادة العامة قد حصلوا عليها من داخل إسرائيل وأوروبا. ولم تحدث الرسائل المتفجرة سوى القليل من الضرر رغم أن الطرود والرسائل المفخخة أرسلت إلى الكثير من المواقع المختلفة ومن ضمنها باريس، وجنيف، ومونتريال، وفيينا، ولندن، وواشنطن، العاصمة وأوتاوا، وبروكسيل وكينشاسا، وبيونيس آريس، وحتى (كمبوديا).

كان عام 1972 عام فشل محرج لأحمد جبريل. فمع أن قواته العاملة في جنوب لبنان وسوريا في منطقة فتح «لاند» نجحت في مقاتلة وحدات الجيش الإسرائيلي بمهارة كبيرة، إلا أن عملياته الضخمة في الخارج قد أخفقت في إصابة حتى هدف واحد أو أن تقتل يهودياً واحداً. وكان ما يخجله بشكل خاص هو أن تسرق منظمة أيلول الأسود التي أنشأها منافسه عرفات الكثير من وعيده. رغم ذلك قرر جبريل المجروح معنوياً والمرن استثمار أنشطة تلك الفترة بإعادة النظر باستراتيجيته العادة تدعيمها. كان الزمن حينذلك في صالح الفلسطينيين.

قام جبريل بتعزيز قواته خلال أشهر ستة في لبنان وأوروبا بشكل خاص، وكان يراقب كيف كانت الموساد تشن حملتها العنيفة على الشبكات الشرق أوسطية التابعة لأيلول الأسود في أوروبا، وكيف كان عملاء المخابرات الإسرائيلية يقومون بتدمير القاعدة التحتية الدولية للجبهة الشعبية في شوارع أوروبا الغربية وقبرص ولبنان. وكان أوج الحرب التي شنتها إسرائيل على أيلول الأسود والجبهة الشعبية في 9/4/ 1973 قد وقع حين قامت وحدة كوماندو تابعة للجيش الإسرائيلي وبدعم من الموساد، وعلى رأسها نخبة قوات قيادة الأركان الإسرائيلية بشن إغارة واسعة وضخمة على بيروت ـ أطلق عليها. اسم «عملية ربيع الشباب». لكن عمليات قوات الأمن الإسرائيلية الفعالة كانت أقل نجاحاً ضد الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ فمنظمة أحمد جبريل كانت تتبع تدقيقاً مكثفاً على خلفيات رجالها وتدربهم على مكافحة التجسس، من خلال اثارة المخاوف الحقيقية من أنها هدف لأجهزة المخابرات الأجنبية وكانت شديدة السرية، حتى بعد اعتقال احمد زياد وعلي هشام ـ ولم يتمكن الإسرائيليون من اختراقها.

وكان جبريل دونما أية مضايقة من تدخلات أجهزة الأمن يقوم بإدارة تهريب أسلحة من الشرق الأوسط إلى مخابئه في أوروبا. حيث كانت أسلحة الكتلة السوفياتية التي تشحن من ميناء غدانسك في بولندا، والمقرر وصولها للجيش العراقي والسوري والليبي عادة ما تصل إلى ميناء اللاذقية، ومن ثم تنقل بالشاحنات إلى تركيا وبلغاريا لتوزع (في شاحنات مسروقة كالعادة) في عواصم القارة الأوروبية.

واستناداً إلى تقارير متعددة كان يجري ـ تعديل شاحنات القيادة العامة ـ في كاراجات (الكي جي بي) لإخفاء حمولتها المحظورة. كان يبدو أن جبريل ينتظر الفرصة المناسبة لشن هجوم قوي في أوروبا بغية التحكم بلا منازع بالكفاح غير النظامي ضد الصهيونية. لكن خططه الكبيرة كان عليها ان تنتظر، فقد بزغ تهديد أكبر وأخطر على دولة إسرائيل. في 6/10/1973 وبالتحديد في 13,40 من ظهيرة ذلك اليوم ظهرت طائرات الهليوكوبتر من طراز MI ـ 8 ـ وهي تحلق فوق منحدرات جبل الشيخ، حيث يوجد موقع التنصت الإسرائيلي الاستراتيجي في قمة مرتفعات الجولان وأنزلت الطائرات قوة كوماندو مسلحة للقيام بمهمة احتلال ذلك الموقع فائق السرية.

وبعد عشرة دقائق فتحت آلاف المدافع السورية صلياتها العنيفة ضد الدفاعات الإسرائيلية على طول مرتفعات الجولان وبوقت متزامن كانت الآلاف من بطاريات المدفعية المصرية قد بدأت بفتح نيرانها على طول قناة السويس ضاربة الدفاعات الإسرائيلية في سيناء كبركان ثائر. صادف ذلك اليوم عيد الغفران اليهودي (يوم كيبور) أقدس أيام الدين اليهودي، ولم تكن أجهزة المخابرات العسكرية الإسرائيلية المعتدة كثيراً بنفسها تتوقع ذلك الهجوم المباغت. هكذا بدأت حرب «يوم الغفران».

كانت الطموحات العربية بشن حرب جريئة ناجحة انتقاماً من إسرائيل في مقدمة جدول أعمالها القومي، منذ أن انتهت اللحظات الأخيرة لحرب الأيام الستة عام 1967. فقد أدركت كل من مصر وسوريا أقوى دولتين عربيتين أنه طالما لم يعد هدف التدمير المادي للدولة اليهودية واقعياً ففي هذه الحالة يجب تلقين إسرائيل درساً مذلاً «وقاسياً» على انتصارها عام 1967. واستحوذت فكرة الانتقام على العرب إلى أن تحققت هذه الفكرة في اكتوبر عام 1973 . جرت الحرب السورية المفاجئة على هضبة الجولان من خلال جمع قوة موحدة شاملة من الدروع، والمشاة حيث تقدمت هذه القوة عبر مرتفعات الجولان، بدعم كفلته لها شبكة صواريخ أرض ـ جو السوفياتية من نوع (سام) إلى أن توقفت بشكل غامض بعد أن وصلت إلى شاطيء بحيرة طبريا تقريباً.

وفي الجنوب عبر مئات الآلاف من الجنود المصريين قناة السويس وشنوا هجوماً واسعاً في محاولة لاحتلال كامل شبه جزيرة سيناء، والاندفاع إلى داخل الجنوب الإسرائيلي.

وبعد اجتياحهم لتحصينات خط بارليف، بدأوا يتسابقون نحو الممرات الصحراوية لاستعادة الممرات الاستراتيجية في المتلة والجدي قبل أن تتمكن إسرائيل من حشد احتياطيها، وقبل أن تنجح في دفع سلاحها الجوي الكبير إلى ميدان المعركة هناك. لكن إسرائيل نهضت من تراجعها وشنت هجومها المضاد لتصل إلى مدى المدفعية عن دمشق، وعبرت قواتها القناة لتصل إلى الأرض المصرية على القارة الأفريقية باندفاعة قوية أمام القاهرة.

ولم ينجح في تحقيق وقف النار، سوى تدخل القوى العظمى والتهديد بمجابهة نووية.

ومع أن حرب «يوم الغفران» عام 1973 انتهت بنصر إسرائيلي حاسم الا انها كانت إحدى أعنف الحروب التقليدية التي جرت بين العرب واليهود. فخلال ثمانية عشر يوماً من القتال، قتل أكثر من 2500 جندي إسرائيلي وجرح اكثر من عشرة آلاف. . وكانت الخسائر العربية 1500 جندي عربي قتيل وما يقرب الخمسين الف جريح. وقد اعتبر الكثير من الإسرائيليين والمصريين والسوريين أن التدمير القادم في أي حرب تقليدية شاملة لا بد وأن يؤدي إلى إبادة كاملة.

هذا ما مهد الطريق إلى معركة سياسية لحل النزاع العربي ـ الإسرائيلي. كان الفلسطينيون غائبين بشكل ملحوظ عن حرب عام 1973. لكن الفلسطينيين نجحوا في الدخول إلى شبكة السرية المكثفة، والمحكمة جداً للأسرار التي كانت تحيط بالخطط المصرية والسورية للهجوم المفاجىء . ففي أيلول 1973 كان السادات قد أبلغ صلاح خلف نائب عرفات بالمعركة القادمة وأمره بأن يحافظ على الصمت المطلق بالنسبة لما اطلع عليه من خطط، وأن ينقل بشكل سري وحدة صغيرة من 30 مقاتل من فتح إلى القوة المصرية المهاجمة، كإشارة رمزية بمشاركة المقاتلين الفلسطينيين في الجهود الطليعية لرمي إسرائيل بالبحر. لكن أبو أياد اجرى مقابلة

خاصة بعد ذلك بأيام مع الجريدية اللبنانية النهار وتحدث عن تفاصيل الخطط المصرية واعدا «بأن فلسطين ستحرر بعد وقت قريب».

التقطت وحدة خاصة للمخابرات العسكرية الإسرائيلية (امان) التي تختص بجمع المعلومات من المصادر العلنية المقابلة، لكن الضباط الكبار تجاهلوها باعتبارها مجرد تبجح ودعاية.

خلال تلك الحرب لم يكن الفلسطينيون يشكلون أي عاملٍ من الناحية العسكرية. فهم لم يشاركوا في الحملة العسكرية ولم ينفذوا أية عمليات «إرهابية» في إسرائيل أو أي مكان آخر في العالم مما لم يستتبع أي رد إسرائيلي عليهم. وفي ذلك الوقت ولدّت الدبلوماسية المكوكية لوزير الخارجية الأمريكي هنري كيسنجر التي قام بها بعد انتهاء الحرب عهداً جديداً من الوساطة السياسية، لأخطر أزمة في العالم. كانت تلك الفترة هي فترة الحل الوسط عبر المفاوضات للوصول إلى تسوية.

وهذا ما فاجأ الحركة الفلسطينية وأدى إلى انقسامها. فقد سببت حرب 1973 ونتائجها وقوع انشقاق في صفوف منظمة التحرير الفلسطينية ولد عنه معسكران متخاصمان جداً. الأول بقيادة رئيس منظمة التحرير الفلسطينية وقائد فتح ياسر عرفات الذي استعد لتعديل موقفه والتوافق مع واقع ان الإمكانات الفلسطينية محدودة وهي لن تهزم إسرائيل، (وكذلك الإمكانات العربية) ولذلك لا يمكن أبداً لفلسطين أن تعود بواسطة القوة، والأمل الوحيد بالتحرير هو السعي إلى التسوية السياسية المدعومة دون التوقف عن العمليات العسكرية و«الإرهابية».

كانت مثل هذه الأفكار النابعة من معسكر فتح، تمثل نوعاً من الخيانة في رأي حبش وجبريل وهما العنصران البارزان في المعسكر الثاني الذي تمثله المنظمات المؤيدة لسوريا. الشعبية ـ والديمقراطية ـ والقيادة العامة. . . ففي رأي هذه المنظمات كان عرفات يهتم بإقامة السفارات، وحضور مؤتمرات عدم الانحياز اكثر مما يهتم بالعمل لتدمير الدولة اليهودية. . ولذلك أخذت هذه المجموعات الراديكالية تعمل بشكل اكثر بمساعدة سورية خفية لإنشاء كتلة

عسكرية رافضة لخيانة عرفات، تؤمن بأن الحرب الشاملة هي التي تأتي بالنصر، وأن الدولة الوحيدة التي يمكنها تأمين استمرار الحرب الشاملة هي الاتحاد السوفياتي.

وكان الاتحاد السوفياتي استناداً إلى تقارير متعددة يدرك جيداً بأن الحل السياسي للنزاع العربي - الإسرائيلي المستعصي سوف يضعف بشكل حاد نفوذه الذي أخذ ينحدر. ولا شك أن السوفيات يدركون بأن وجودهم الذي بدأ بالتوقيع على صفقة الأسلحة المصرية - التشيكية عام 1955 نابع أصلاً من الرغبة العربية بتدمير إسرائيل، والتأييد الغربي للدولة اليهودية. فإذا ما حل السلام فجأة على المنطقة فلن يحتاج أحد من العرب القوة العسكرية السوفياتية الهامة التي كفلت له نقطة ابتزاز هامة.

اعتبر السوفيات الذين طردتهم مصر عام 1972 بأن العلاقات المصرية الحارة نحو الولايات المتحدة هي إشارة واضحة إلى حقيقة ان اكبر، وأقوى بلد في العالم العربي والإسلامي يتجه نحو الفلك الغربي. كان الكرملين يشعر بخوف شديد من مفاوضات التسوية السلمية، ويعرف أيضاً بأن وجود كيان عربي مسلح، ويشعر بالمرارة في المنطقة يمكنه ان يتحول إلى عميل محرك لعدم الاستقرار.

في نهاية عام 1973، بعد الأسابيع التي تلت انتهاء حرب «يوم الغفران» قامت المانيا الشرقية، والمخابرات الكوبية، وخبراء حرب العصابات بإقامة قاعدة تدريب «إرهابية» حديثة في صحراء اليمن الجنوبي. وهو المكان البعيد جداً الذي يجعل إسرائيل تعدل عن استخدام طائراتها القاذفة لزيارة غير مرغوبة . كان الألمان الشرقيون يدعمون الحركات «الإرهابية» الفلسطينية منذ سنوات طويلة إلا أن الدور الكوبي كان يمثل التطور الأهم، فرغم ان كاسترو كانت تفصله عن منطقة الشرق الأوسط آلاف الأميال البحرية إلا أنه كان يثبت دوماً تأييده الدائم واخلاصه للقضية العربية في السنوات الماضية.

بل إن بعض التقارير الاستخبارية غير المؤكدة كانت تشير إلى استخدام كوبا سفاراتها في أوروبا الغربية لتقديم المساعدة، والعون للفلسطينيين. ونقول، نفس

المصادر بأن الطيارين الكويبيين كانوا يحلقون بطلعات جوية قتالية مشتركة مع الجيش المصري والسوري. ولقد تم التأكد من أن نخبة من الوحدات المسلحة الكوبية قاتلت إلى جانب الجيش السوري، اثناء حرب عام 1973 في مرتفعات الجولان خلال حرب الاستنزاف الشرسة، التي بدأت بعد إعلان وقف النار في 24/ 10/ 1973.

لقد اصبح الكوبيون بسبب سجلهم التاريخي المؤيد للثورة في أمريكا الجنوبية ومد يدهم للمساعدة في تحقيق الانتفاضات الثورية لرجال حرب العصابات في العالم الثالث، من أعنف أساتذة «الإرهاب» في العالم. اذ كانوا يعرضون الخدمات للبيع مهما كلفت العروض. وكان الهدف من إنشاء قاعدة اليمن الجنوبي للتدريب والقواعد المشابهة التي افتتحها رجل ليبيا القومي معمر القذافي، هو خلق «الإرهابي» الفدائي المخلص على شكل مقاتل تقليدي قادر على تنفيذ العمليات الهجومية ضد أهداف قوية التحصين. وبغية تسهيل نجاح العمليات «الإرهابية الروتينية» على نحو أفضل. تقرر أن تستوعب تلك المعسكرات ألفاً من مقاتلي القيادة العامة وبقية المنظمات المؤيدة لسوريا وتحويلهم إلى افضل المقاتلين القادرين على تنفيذ أكثر المهمات العسكرية استحالة وصعوبة في العالم. كما كان عليهم التدرب على حرب التجسس، وتعلم كيفية التسلل إلى المنظمات الفلسطينية المنافسة والمعادية وعلى اغتيال رموزها الهامة. وكان التدريب شاقاً، ودون توقف.

إذ كان المتدربون يركضون 20 كلم في صحراء درجة حرارتها العادية هي 120 فهرنهايت وكانوا يتدربون على كافة أنواع الأسلحة المستخدمة في المنطقة. كان المدربون من الرجال المؤيدين للكي جي بي، يطبقون على العناصر عمليات مسح الدماغ السياسية الضرورية، والتي تحول المقاتل البسيط إلى انتحاري شرس. وبعد شهور من التدريب، ولد جيل جديد من المقاتلين الجاهزين للعمل. وكانت القيادة العامة أول الضاربين.

ففي ساعات الصباح الباكر من يوم 11 نيسان 1974 عبر منير مغربي، وأحمد محمود، وياسين موزاني التابعين للقيادة العامة. الحدود المحصنة التي تفصل بين

لبنان وإسرائيل، وساروا نحو بلدة كريات شمونا. كان الثلاثة مسلحين ببنادق كلاشينكوف روسية الصنع (AK 47) و (PK 7,62) ورشاشات خفيفة وحمولة مميتة من القنابل اليدوية والمتفجرات. كان هدفهم في ذلك الصباح الربيعي هو السيطرة على مدرسة واحتجاز التلاميذ كرهائن، حتى تتحقق مطالبهم بإطلاق سراح رفاقهم المعتقلين وفي حال عدم استجابة إسرائيل تقتل الرهائن.

هكذا أصبحت كريات شمونة حقل عمليات لجبريل. فمع أنه تعهد بأن عمليات خطف الرهائن هي تكتيك للجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ الا أن الشعور الإسرائيلي الحساس، والمتأثر معنوياً بعد مفاجأة حرب اوكتوبر عام 1973 كان مغرياً جداً كهدف لا يمكن لجبريل تجاهله. لكن جبريل الرجل المعروف بدقته العسكرية ومعلوماته الاستطلاعية المضبوطة أخطأ كثيراً في حساباته. فقد تصادف ذلك اليوم مع عيد الفصح (اليهودي) والمدارس مغلقة بسبب عطلة فرصة الربيع. وحينما وصل «الإرهابيون» إلى مبنى المدرسة ووجدوا أبوابها مغلقة أصابهم الفزع. فهم لا يستطيعون العودة الآن إلى لبنان (فربما يتعرضون للإعدام بسبب فشلهم المخجل)، ولذلك قرر الثلاثة مهاجمة مجمع سكني مجاور. وبدلاً من احتجاز الرهائن قاموا بإشباع رغبتهم بتنفيذ مذبحة قاسية. حيث كانوا ينتقلون من شقة لأخرى ويقتلون كل من يرونه دون اهتمام بالضحية التي يواجهونها إن كانت عجوزاً يجر كلبها أو طفلة . فالجميع كانت توجه له الطلقات من عيار 7,62 المميتة في رأسه. وفي إحدى الحالات قتلت عائلة كاملة كانت تجلس على طاولة الفطور. استدعيت قوات الجيش الإسرائيلي على الفور عند سماع أول الطلقات النارية حين أخذ مئات من السكان يديرون أقراص هواتفهم على رقم (100). كانت أول وحدة وصلت إلى البلدة قد رأت الهلع والرعب يدبان بالمواطنين. حتى ان إسرائيل لم تشهد بكل تاريخها شيئاً مماثلاً كهذا من قبل.

وقد كلفت وحدة من لواء المشاة غولاني بمعالجة الأمر وإنهاء المحنة ذلك ان للتدريب العالي لهذا اللواء وروح الاسرة بين افراده جعلته من ارقى وحدات الكوماندو الإسرائيلية.

اتضح لقائد وحدة غولاني الميجر (ر) بأن رجاله سيتعاملون مع «إرهابيين» من

ذوي الكفاءة القتالية الممتازة ممن لا يميلون إلى الاستسلام أمام قوة نارية متفوقة. كان «الإرهابيون» مسلمين بحقيقة أنهم لا بد وان يلاقوا حتفهم كأبطال لفلسطين ولذلك كانوا مصممين على قتل أكبر عدد ممكن من الأعداء.

كان الجنرال (ر) يفهم كل ذلك جيداً ولذلك أعد رجاله متوقعاً حدوث أصعب معركة.

وقد ظهر من طبيعة عمل «الإرهابيين» الفلسطينيين كما لو أن عددهم يزيد على اثني عشر مقاتلاً على الأقل لأنهم كانوا يتنقلون من شقة إلى أخرى مطلقين نيرانهم من النوافذ المشرعة مستغلين ذخيرتهم المحدودة التي كانوا يحملونها بمهارة فائقة، وانضباط كبير دون إضاعة طلقة واحدة عبر زخات طويلة من نيران بنادقهم الأوتوماتيكية.

كان الفلسطينيون الثلاثة يمارسون لعبة القط والفأر مع وحدة كوماندو غولاني التي كان أفرادها يرتدون المعاطف السميكة ويتسلحون برشاشات عوزي 9 مم، ويزحفون عبر المبنى متحينين فرصة الانقضاض لتصفية المجموعة «الإرهابية». كانت مهمة وحدة الكوماندو الإسرائيلية مروعة. إذ لم يكن رجال الاستطلاع يعرفون مكان وجود الرهائن وكم من المدنيين قد قتلوا حتى ذلك الوقت. كما كان العديد من رجال الكوماندو الإسرائيلية يحملون نقالات الجرحى لعدم معرفتهم بعدد الجرحى أيضاً.

دامت معركة السيطرة على شقة الطابق الرابع بالمبنى في تلك المنطقة المحزولة من كريات شمونا اكثر من أربع ساعات. شقت خلالها القوة الإسرائيلية المهاجمة طريقها إلى داخل البناء، وهي تتنقل راكضة بشكل منهجي وتطهير شقة تلو أخرى، وغرفة تلو أخرى. وعبر عملية البحث من غرفة تلو أخرى .. أصبحت المجموعة على تماس قريب من الأعمال الفظيعة التي قام بها «الإرهابيون».

كان رجال الوحدة الإسرائيلية قد قاموا بالسابق بالكثير من عمليات الإغارة عبر الحدود على الأهداف الفلسطينية في لبنان وسوريا.

كما قاتلوا ضد «الإرهابيين» في غزة، وكانوا في مقدمة القوة التي أعادت السيطرة على جبل الشيخ من وحدات الكوماندو السورية قبل نصف سنة، وهي العملية التي صنفها ضباط الجيش الإسرائيلي بأعنف معركة واجهتها إسرائيل بتاريخها.

كان هؤلاء الرجال قد خبروا قتال الأعداء، عبر الهجمات المضاءة وممن شاهدوا زملاءهم يقتلون بأعداد منذرة بالخطر. لم يكونوا غرباء عن الدم والمعاناة، لكنهم كمحاربين قدماء لم يروا بحياتهم ما يشبه تلك المذبحة التي تقع أمامهم في كريات شمونا. حتى أن بعض المحاربين المتمرسين بكوا علانية حين شاهدوا جثث الأولاد، وقد دمرتها نيران البنادق بل ان بعض الجنود تقيأ بفعل الاشمئزاز من المنظر..

وساد وضع يائس استغرق حله وقتاً طويلاً، وقتل اثناءه جنديان من قوة جولاني، وقد حان الوقت لإعطاء الأمر بإنهاء المعوقات.

نجحت قوة كوماندو غولاني بدفع «الإرهابيين» الثلاثة إلى الشقة العلوية في الطابق الأعلى، واضعة المسلحين الثلاثة في زاوية مقتلهم. اقترب بعض الكوماندو الإسرائيلي من السلم المجاور وقام آخرون بإحضار مدفع من نوع عديم الارتداد من طراز (106) مم (وهذا السلاح يستخدم لتدمير الدبابات) واقترب بها إلى الفناء السفلي. ووجه السبطانة «المعدنية ذات اللون الخاكي نحو الشقة المنوي ضربها وضغط على الزناد. أصم الانفجار الصادر عن المدفع الآذان لكن النتائج كانت ناجحة. فبعد ثوان من دخول القذيفة عبر نافذة الشقة، ومن ثم تفجرها بصوت كالرعد اندفع رجال الكوماندو الإسرائيلي داخل الشقة برشاشاتهم العوزي، لكنهم لم يضطروا لاستخدامها لأن «الإرهابيين» الثلاثة كانوا قد قتلوا.

وصل عدد القتلى الإسرائيليين في عملية كريات شمونا إلى 18 قتيلاً (من بينهم ثمانية أولاد وخمسة نساء) وعشرين جريحاً جراحهم خطرة.

بعد ذلك طالب الجمهور الإسرائيلي بالانتقام، وبتدمير القواعد «الإرهابية» الفلسطينية في لبنان. حتى ان السياسيين الإسرائيليين طالبوا بتطبيق أقسى العقوبات

على «الإرهابيين». كان هذا يحدث لأول مرة منذ تنفيذ حكم الإعدام بالمجرم النازي اودلف ايخمان عام 1961.

كانت عملية كريات شمونا تمثل أول عملية في النزاع العربي ـ الإسرائيلي تنجح من خلال مجموعة «إرهابية» بالعبور إلى داخل إسرائيل، وارتكاب مجزرة دموية دون تمييز، ودون السعي إلى تحقيق إنجاز أعلامي، او عسكري، او سياسي ما. وهي لن تكون الأخيرة.

كانت معركة كريات شمونا خطوة شجاعة لأحمد جبريل. إذ انها شكلت اكثر من أي عملية أخرى جرت ضد إسرائيل، والمصالح الإسرائيلية الإعلان الصارخ الذي يصعب تجاهله على الحرب ضد الدولة اليهودية. كان البرلمان الإسرائيلي بالقدس ـ ووزارة الدفاع الإسرائيلية وقواعد الجيش الإسرائيلي في تل ابيب يتعمدون تجاهل اسم احمد جبريل خلال مدة طويلة. لكن جبريل الآن انضم إلى صفوف ضباط أيلول الأسود، وجورج حبش، ووديع حداد. وأصبح ذا مكانة خاصة. ولذلك سوف تشن إسرائيل حرباً من العنف الثوري ضد الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة.

وجاء الانتقام سريعاً. ففي نفس اليوم الذي دفنت فيه إسرائيل آخر ضحايا «الإرهاب» الثمانية عشر قامت وحدات استطلاع الجيش الإسرائيلي بالإغارة على قرى جنوب لبنان، التي استخدمت كمواقع انطلاق «للإرهابيين» حيث ضربت ستة قرى بكاملها ـ ودمرت (24) مبنى، وشبكات المياه لأن المخابرات العسكرية الإسرائيلية اعتبرتها محطات داعمة لخدمة عمليات جبريل «الإرهابية». وقتل العديد من مقاتلي القيادة العامة في تلك الهجمات، واعتقل ما يزيد على اثني عشر شخصاً واقتيدوا إلى داخل إسرائيل للاستجواب.

ورغم ان هذه الغارات كانت تمثل رداً سريعاً، إلا أنها لم تؤثر في عرقلة قدرات جبريل أو نواياه. فقائد الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ كان مصمماً على أن لا يسمح لإسرائيل بالنجاح بعمل عسكري انتقامي، او وقائي يوقف عملياته.

ففي 13/6/1974 عبر أربعة مسلحين من الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ

الحدود اللبنانية، عند تقاطع جبل الشيخ من قاعدة لهم على الحدود السورية، واتجهوا نحو كيبوتس شامير وكان هدفهم : السيطرة على عيادة المدرسة التي تضم اكثر من 250 تلميذاً وقتل جميع الرهائن إذا لم تنفذ مطالبهم بإطلاق سراح السجناء «الإرهابيين».

كان كيبوتس شامير المعروف بازدهاره الزراعي، وبكثافة عدد سكانه بلدة حدودية ذات تحضيرات جيدة ضد عمليات «الإرهاب»، فكل مواطن فيه مسلح والأطفال يذهبون للنوم في الملابس المحصنة، عند سماع الإنذار بالخطر. وعند الدخول إلى أراضى الكيبوتس قتل المسلحون ثلاثة نساء، وهن يخرجنَ من قاعة الطعام ـ اثنتان منهن مواطنتان في الكيبوتس والثالثة شابة متطوعة من نيوزيلاندا. أدى اندلاع النار إلى تنبيه الدورية المدنية المحلية بالكيبوتس. وعلى الفور انطلقت صفارات الإنذار في داخل وأنحاء الكيبوتس فاستل عشرات من المواطنين رشاشات العوزي من تحت فراشهم، وأسرعوا إلى الخارج استعداداً لمواجهة الخطر. وعندما جوبه «الإرهابيين» بالنار أخذوا يركضون نحو مخزن مهجور حيث فجروا أنفسهم هناك بالقنابل اليدوية التي كانوا يحملونها.

وهكذا ضحوا بأنفسهم، كما تدربوا تماماً في معسكرات التدريب، بجنوب اليمن كي لا يقعوا بالأسر أحياء، ويكشفون بالتالي المعلومات للعدو الصهيوني. وقد وجد المحققون الإسرائيليون إلى جانب الجثث الملقاة والمغمسة بالدم منشورات تطالب بإطلاق سراح مئة من السجناء الفلسطينيين خلال ست ساعات.

لم تقم إسرائيل بالرد الانتقامي فوراً، وإنما قامت الطائرات الحربية في فترة ثلاثة أيام، من 17 حزيران حتى 20 منه بسلسلة من الإغارات الجوية ضد أهداف «إرهابية» معروفة في لبنان، خاصة ضد مواقع اعتقد بأن جبريل كان يختبىء داخلها. ورغم عدم مقتل بعض كوادر الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ إلا أنه قتل 24 «إرهابي» وجرح ما يقرب من 1000، لكن العنف الثوري الذي يعتد به جبريل أدى إلى ماهو أكثر من إيقاع الخسائر البشرية.

فالجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ لم تجد نفسها بعد في طليعه الهجوم

المقدس لتحرير القدس، كما لم تضعف لجوء إسرائيل إلى الاستمرار بالقتال.

على النقيض من ذلك، فقد أدى الموت الذي أحدثته عمليات كريات شمونا وكيبوتس شامير، ومعالوت ونهاريا إلى تصعيد التصميم الإسرائيلي، على شن حرب بلا رحمة ضد «الإرهابيين». بل ان كريات شمونا أفزعت في الحقيقة الكثير من القادة العرب - اكثر مما أفزعت الإسرائيليين. حتى ان بعض الزعماء العرب تخلوا عن جبريل مؤقتاً، لأنه لم يكن من مصلحتهم بعد حرب تشرين 1973 الارتباط برجل أمر بقتل النساء، والأطفال وهم على طاولة الفطور. حتى ان الفلسطينيين أنفسهم بدؤوا يخشون من نضال جبريل العنيف لأنه يولد عاصفة غضب لا يمكن السيطرة عليها.

وبالفعل كان هناك نوع من الحرب الأهلية المندلعة في المعسكر الفلسطيني: وهذه الحرب بدأت أثناء حرب عام 1973 عندما انتهجت منظمة التحرير الفلسطينية أسلوباً سياسياً مبهماً، يقلص الكفاح المسلح وينتهج الشرعية الدبلوماسية. وقد وصلت هذه الأزمة إلى أوجها في 13/ 12 1974، عندما ألقى رئيس منظمة التحرير الفلسطينية عرفات خطاباً في الجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك. فالعناصر المتشددة المؤيدة لسوريا في الثورة الفلسطينية لم تكن لتسمح بالخيانة التي توحي بها التسوية لإخماد كفاحها.

وفي 26/ 9/ 1974 أصبح احمد جبريل أحد الأعضاء المؤسسين لجبهة الرفض التي ضمت خليطاً من الزعماء المعادين لعرفات، والرافضين للمفاوضات مع إسرائيل والمصممين على عرقلة العملية السلمية من خلال الهجوم على كل من يشارك بمؤتمر السلام لا سيما الخونة من الفلسطينيين.

ضمت جبهة الرفض كل من - القيادة العامة - والجبهة الشعبية - وجبهة التحرير العربية - التي تسيطر عليها العراق - وجبهة النضال الشعبي. كان على هؤلاء اللجوء إلى شن حرب أهلية إذا دعت الضرورة من أجل الإبقاء على النكبة الفعلية للشعب الفلسطيني المتطلع إلى تحقيق العدالة والانتقام. وسيكون لبنان مسرح معركتهم الفورية . رغم أن لبنان نفسه انغمس بعد قليل بحربه الأهلية.

أما الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة فقد وقع لها هي أيضاً حربها الأهلية مع نفسها. فمن خلال ظروف خرجت عن سيطرته إضطر جبريل إلى اتخاذ مواقف سياسية متطرفة، وطموحات اكثر مما سبق، وإلى تكثيف الحرب ضد إسرائيل على نحو فريد من نوعه.

الفصل الرابع

سنوات لبنان الأولى
الحرب الأهلية وقتال الأخوة

الفصل الرابع

سنوات لبنان الأولى
الحرب الأهلية وقتال الأخوة

عين الصاحب ـ سوريا ـ كانون ثاني 1975 . كان عرض القوة العسكرية للعين المجردة مرعباً. حيث كان مئات من الشباب يسيرون بألبستهم العسكرية المموهة في عرض عسكري شبه كامل على طول ذلك الممر الفرعي الرملي. وبينما كان قائدهم العسكري يصيح شمالاً، يميناً.. شمالاً الخ... باللغة العربية كان الرجال والنساء يمنشقون بأيديهم البنادق الهجومية العزيزة ـ من طراز كلاشينكوف ورؤوسهم منتصبة إلى اليسار، لترتفع ايديهم اليمنى إلى الامام وهم يضربون بأكفهم على مخازن اسلحتهم المعقوفة كالموز، لتقديم تحية مهيبة للعلم المنتصب في المنصة. بعد استعراض هذه القوة أتى دور استعراض آخر قام به شبانٌ في كامل لباسهم القتالي وهم يحملون مدافع الآر بي جي المضادة للدبابات، حيث لا تظهر ملامحهم اليافعة الجميلة إلا عند استدارتهم وهم قابضون على حراب الكوماندو السوفياتية الصنع للقيام بفنون القتال القريب.

وكان الرجل الذي يستعرض هذه القوة الضخمة هو احمد جبريل. فزعيم جبهة الرفض يريد التأكد من جاهزية قواته للمعركة.

كان يبدو نظرياً أن جيش حبريل لا يثير أي انطباع مؤثر ـ رغم أن جيشه لا يتجاوز الألفي رجل... لكن قواته كانت منظمة، على شكل كتيبة تقليدية تعرف

باسم كتيبة صبرا وشاتيلا، وهي مشكلة من وحدة مدفعية مسلحة بمدافع ثقيلة وصواريخ الكاتيوشا، ووحدة ضفادع بحرية قائمة على شكل كوماندو دربها السوفيات على العمليات الخاصة ضد إسرائيل. وبالإضافة إلى ذلك كانت هناك وحدة جوية صغيرة مجهزة بطائرات ذات محرك صغير قاعدتها في دمشق، وهذه معدة للعمليات الانتحارية، ضد اهداف في إسرائيل، كان لدى هذه الوحدة أيضاً عدة مناطيد تعمل على الهواء الساخن وواحدة أو اثنتين من الطائرات الشراعية لأغراض التدريب والفحوصات من أجل استخدامها بالمستقبل.

ومع أن ـ القيادة العامة ـ هي احدى أصغر الاذرع العسكرية حجماً في الحركة الثورية الفلسطينية إلا أنها الأكثر احترافاً وخبرة. فامتلاك قوة غير مؤثرة نظرياً لا يضمن على أية حال النجاح في ميدان المعركة. وهذه عروض لن تكون غايتها في الحقيقة سوى مجرد عرض قوة للعلاقات العامة، وللاستهلاك المحلي خاصة وأن مشاهدة المخيمات لهذا العرض العسكري الفلسطيني في انباء التلفزيون السوري واللبناني والأردني، لا بد وأن يثير في النفوس نار الامل. كما أن عروضاً كهذه عادة ما ينجم عنها، حملة تبرعات كريمة لصالح القضية من الصناديق الخيرية المخيمات الفلسطينية وكذلك من «البترودولار»، من شيوخ الخليج الذين يسرهم ادخال البهجة على جبريل من اجل تجنب وقوع عمليات فوق اراضيهم. وفي كثير من الاحيان كانت مثل هذه الاستعراضات تؤدي إلى تجنيد البعض وهذه لن تفزع إسرائيل او تؤثر عليها، بل إن البعض اعتبرها مجرد نمور من ورق أو ـ مجرد جنود يقومون بثيابهم العسكرية باستعراض دونما أية خبرة قتالية حقيقية. كمقاتلين دون ميدان قتال.

لكن بالرغم من ذلك فقد شهدت هذه القوات تغيرات دراماتيكية مؤثرة بعد أربعة أشهر من هذا الاستعراض.

كانت الحرب الاهلية الدموية اللبنانية تتفاقم على نحو بطيء إلى ان اندلع العنف، وأخذ يتحول إلى احداث مرعبة فاقت كل وصف، كان الموت فيها يطحن شعباً اصبح ميدان معركة لثلاث قوى إقليمية رئيسية في المنطقة.

كان التوتر في لبنان (البلد التجاري الذي تزدهر فيه المخدرات وسوق التهريب السوداء وتجارة اللحم البشري والذي يقيم فيه الاغنياء المراكز المالية الليبيرالية)* يتسلل ببطيء منذ عام 1968، خاصة عندما استخدمت الجبهة الشعبية مطار بيروت الدولي كقاعدة انطلاق لهجماتها الدولية، وكذلك عندما قام الجيش الإسرائيلي بعمليته الانتقامية في 27/12/1978، والتي أطلق عليها اسم «عملية الهدية» ودمر فيها 13 طائرة عربية كانت فوق مدرج مطار بيروت. كانت الحكومة اللبنانية، والنخبة المسيحية الحاكمة قد بدأت تخشى من أن تصبح جنتها المتوسطية الحلوة ميداناً لعمليات العنف الناجمة عن النزاع العربي ـ الإسرائيلي، وهذا ما دعى إلى ارسال جيشها اللبناني الذي يقوده المسيحيون، لمراقبة الوجود العسكري الفلسطيني المتزايد الأمر الذي أدى إلياشتباك مسلح بين الطرفين في بيروت وفي الجنوب مقابل الحدود الإسرائيلية. ولم تسفر الجهود اللبنانية إلا عن توقيع اتفاقيات القاهرة ـ التي هندسها عبد الناصر ومنح بموجبها الوجود المسلح الفلسطيني شرعية في انحاء كثيرة من لبنان. وهكذا اصبحت الاتفاقيات بمثابة كارثة على لبنان فقد أكسب عبد الناصر تلك الدولة الفلسطينية الصغيرة في جنوب لبنان ـ والتي كانت على غرار تلك التي قامت في ـ الأردن ـ صفة قانونية. وبعد أيلول الاسود عام 1970 تحولت تلك الدولة الصغيرة في لبنان إلى قاعدة انطلاق للآلاف من رجال العصابات المسلحة.

لقد أحدث الفلسطينيون المسلحون بسرعة تحولاً في ميزان القوى الطائفية الحساس، والذي أعده الفرنسيون بدقة تفصيلية على نحو يميل لصالح الأقلية المسيحية ويمنحها السيطرة من خلال إلزامية ان يكون رئيس الجمهورية مسيحياً، مما جعل لبنان يتلاطم في فوضى التحالفات القائمة على الخطوط الفئوية.

لذلك بدأ الجيش اللبناني، وعدد من الميليشيات المسيحية وفي طليعتها حزب الكتائب بقيادة الشيخ بيير الجميل بتحصين مناطقهم وبتعزيز اسلحتهم

* هذا ما تريده إسرائيل للبنان ولم يكن لبنان أبداً ولن يكون على هذا النحو الذي يصفه فيه الكاتب.

للمعركة الحاسمة والحتمية القادمة. كما أعدت ميليشيا كمال جنبلاط الدرزية في جبال الشوف نفسها للحرب أيضاً وكذلك فعلت جميع الفصائل السياسية الاخرى من كافة الأديان في البلاد.

وفي الوقت نفسه أعدت الفصائل اليسارية اللبنانية المتعددة (الناصريون ـ والقوميون العرب ـ والشيوعيون) قواتها من اجل الحرب متحالفة مع الفلسطينيين ـ (وهم الطرف الوحيد الذي يملك أسلحة تقليدية وذخيرة لم تستهلك بعد) ـ الأمر الذي جعل صوتها هو الأقوى في البلاد. اما أغلبية الشيعة والسنة (وهما الطائفتان الهامتان) فلم تكن قد نهضت بعد لتأكيد وجودها سياسياً، أوعكسرياً.

وإلى جانب ذلك كانت إسرائيل تمثل أيضاً عاملاً مساعداً على التفسخ الفعلي، للنظام والقانون العام ببلاد الارز. فقد وجهت عمليات تعقب الأهداف «الإرهابية» الفلسطينية في جنوب لبنان، في اوائل السبعينات، وقيام الجيش الإسرائيلي بالعمليات الوقائية والانتقامية الخاصة في عمق الاراضي اللبنانية، وكذلك غارات سلاح الجو الانتقامية ضد أهداف «إرهابية» في كل أرجاء لبنان، ضربة قاسية إلى السلطة والحكم المركزي اللبناني. بل ان أقسى العمليات الانتقامية الإسرائيلية جاءت اثر المذبحة التي قامت بها الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة في كريات شمونا.

وربما لم يكن من الصدفة ان تشتعل لبنان في الذكرى السنوية الأوليللعملية الدموية التي جرت في شمال إسرائيل.

الاحد 13 نيسان 1975 كان هو يوم الاحتفالات والاعياد في كل أكواخ مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في القطاع المسلم من بيروت الغربية. فبفضل احمد جبريل انضمت كريات شمونا إلى الكرامة «كمعركة مظفرة على الطريق تحرير فلسطين الذي عبده الشهداء بدمائهم».

كان الاستعراض التقليدي في الاحتفال هو اطلاق المسلحين الفلسطينيين لنيران بنادقهم الكلاشينكوف في أرجاء سماء بيروت السنية حيث كان افراغ عشرات المخازن من طلقات 7,62 مم في السماء هو طريقة المخيمات في رفع

كؤوس الشمبانيا أو توزيع الحلوى. وكانت كل ارجاء بيروت مزدانة بالشعارات التي وضعها الفلسطينيون باعتزاز ـ البندقيتان المتقاطعتان (شعار الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة) على النوافذ والجدران احتراماً، وتقديراً لأول هجوم حقيقي في عصر العنف الثوري. وكانت العشرات من السيارات التي تحمل شعارات ـ القيادة العامة ـ تجوب شوارع العاصمة اللبنانية مطلقة ابواقها باثة الرعب عند السكان غير الفلسطينيين.

في ذلك الوقت شقت سيارة من هذا النوع، وهي مليئة بالمسلحين المحتفلين بعملية كريات شمونا طريقها من منطقةالمزرعة باتجاه حارة عين الرمانة، وبالتالي نحو الحادث المميت الذي سيورط الشعب كله بعنف لا مفر منه.

في نفس ذلك اليوم كان القائد والزعيم الروحي للكتائب الشيخ بيار الجميل يشارك في مناسبة سارة من نوع مختلف كلياً ـ وهي مناسبة تدشين كنيسة مارونية جديدة في حارة عين الرمانة، ورغم ان الجميل كان يستقل سيارته ضمن موكب سيارات حماية إلا أنه هو ومرافقته الأجنبية الكتائبية المسلحة ما كانوا يتوقعون اية متاعب في ذلك اليرم الربيعي. اثناء طقوس تدشين الكنيسة ارتطمت السيارة ذات اللوحة الغامضة والتي تقل أنصار ـ القيادة العامة ـ المحتفلين بالحاجز الدفاعي المقام خارج الكنيسة وأطلق من فيها عدة صليات نارية على الحشد.

ورغم ان بيير الجميل لم يصب بأي من الطلقات النارية إلا أن أربعة ماتوا جراء اصابتهم ، احدهم من كبار أعضاء حزب الكتائب. لقد كانت جرأة الهجوم كبيرة بحيث اعتبرت محاولة لقتل زعيم وطني خاصة، وأن عشيرة الجميل بما تملكه من نفوذ سياسي، وسيطرة على تجارة وتهريب المخدرات المحظورة كانت تحكم فعلاً الكثير من لبنان. وقد اعتبرت المسيحية المارونية تلك الصليات النارية الموجهة لبيير الجيمل تهديداً خطيراً للوجود الماروني الذي مر عليه الف سنة بالمنطقة. ولذلك لابد أن يكون الانتقام سريعاً.

انتشر نبأ اطلاق النار في عين الرمانة بجميع أرجاء شرقي بيروت المسيحية مثل الوباء. إذ أغلق السكان حوانيتهم وأخرجوا اسلحتهم من مخابئها وأعدوا أنفسهم لقتال حاسم ومدمر ضد الوجود الفلسطيني في بلادهم.

بعد ذلك وفي آخر النهار كان باص مليء بمسلحي القيادة العامة يشق طريقه من حي المزرعة، نحو الطريق الممتد إلى مخيم تل الزعتر شرقي المدينة. وفي الوقت نفسه كان الذين تحسّبوا من وقوع المزيد من الهجمات ينتظرون في كمين معدين رشاشاتهم البلجيكية ف ن 7,62 مم ومسدساتهم الآلية من عيار 30 جاهزين لأي عمل.

عندما اقترب باص ـ القيادة العامة ـ من موقع الكمين أصبح واضحاً للقيادات الكتائبية بأن الهجوم الفلسطيني الثاني في طريقه للوقوع(*) لذلك أمروا رجالهم باطلاق النار، وبعد عشر دقائق من النيران المتواصلة قتل 27 من الفلسطين وجرح 19.

وفي الساعة 18,30 عندما كانت الشمس تغرب على البحر الابيض المتوسط بوميضها الباهت بدأ استخدام قاذفات القنابل والمدافع الرشاشة الثقيلة في معارك الشوارع المتقاربة التي اصبحت الآن تحتدم بين المسيحيين والمسلمين الفلسطينيين. وبعد قليل أخذت حواجز الطرق تنتصب على الزوايا، ومقابل الحوانيت الكبيرة التي تضم داخلها بضائع غوتشي وبيير كاردان، كما انتصبت اعشاش الرشاشات قرب سيارات الروزرويس، وأخذت أكياس الرمل تحيط بمداخل الكازينوهات الفخمة التي كان الاغنياء والمتنفذين يلعبون على طاولاتها قبل أقل من 12 ساعة.

امافي طرابلس ـ الميناء الشمالي ـ فكانت المعارك أيضاً في طريقها اليه. وفي مصيف بلدة بيبلوس وفي بلدة زحلة المسيحية شرقي وادي البقاع اللبناني.. وعلى هذا النحو أخذت حرب شاملة تجري وتتسع في بلد كان مسالماً من قبل.

ومع أن الحرب الأهلية ـ والعمليات الدموية في لبنان كانت بمثابة نوع من النزاع الذي حركه ورتبه وسيطر عليه العامل الفلسطيني. إلا ان أبا اياد الرجل

(*) الحقيقة ان الباص كان يقل مدنيين من نساء واطفال عائدين بعد حضورهم المهرجان المركزي للجبهة، والمؤلف يحرف الحقائق هنا بقصد واضح.

الثاني في منظمة التحرير الفلسطينية كان قد ذهب بعيداً جداً حين أعلن بأن الطريق إلى فلسطين يمر عبر عينطورة والمتن وجونيه، وهي المعاقل المركزية الثلاثة للمسيحية اللبنانية.

رغم ذلك لم تكن تلك هي الحرب التي أرادها أو احتاج اليها الفلسطينيون. فقد كانت كارثة على رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات. إذ أن برنامجه الهادف إلى تحويل منظمة التحرير الفلسطينية إليكيان سياسي شرعي ودبلوماسي سيصعب تسويقه في عواصم اوروبا لأن قواته في لبنان تنشغل في قتال شوارع للسيطرة على زوايا الشوارع والأزقة...

انتقد عرفات علانية، وبشدة اندلاع القتال الفئوي، واعتبره مأساة عربية وتحول جنوني عن الهدف الحقيقي: «تدمير إسرائيل». ولكنه أمر رجاله العاملين في لبنان بالقيام بكفاحهم حتى النهاية. ربما كان على انفعالات ابو إياد أن لا تخرج للعلن، إلا أن تصريحه رسم صورة دقيقة للاستراتيجية العسكرية الفلسطينية.

فالطريق إلى فلسطين يمر فعلاً عبر لبنان. لكن ما هو الثمن؟.

عام 1974 أمر جبريل بالهجوم على كريات شمونا لتخريب تقارب الفلسطينيين مع العملية السلمية، فمن خلال عمليات كهذه كانت ـ القيادة العامة ـ تعبر عن تصميمها على منع أصحاب القرار السياسي داخل العالم العربي من بحث اتفاقية تسمح بإقامة دولة فلسطينية مستقلة في المناطق التي احتلتها إسرائيل بعد حرب 1967. فالبيان الذي صدر عن ـ القيادة العامة ـ بعد العملية يقول: «ان عملية كريات شمونا قد نفذت للتأكيد على أن حرب التحرير ليست محصورة في الضفة الغربية ـ وقطاع غزة وإنما تشمل جميع الأراضي الفلسطينية».

وعلى نحو منذر بالسوء لم يؤد شبح كريات شمونا إلى جعل احمد جبريل رجلاً مطلوباً ـ ومطارداً ـ فحسب، وإنما أدى من خلال العمليات الانتقامية الإسرائيلية واشتعال المعارك الحقيقية في 13/4/1975 إليوضع بذور قتال الأخوة ضد بعضهم البعض بين اللبنانيين وبين الفلسطينيين على السواء.

لقد نسف جبريل العملية السلمية، وبشكل مواز أضعف القدرة العسكرية التقليدية للفلسطينيين للابد.

لم تكن مشاكل عرفات عام 1975 مع اللبنانيين لوحدهم. فمنذ عام 1973 وتشكيل جبهة الرفض بقيادة جبريل، أخذت القطع التي حوّلت لغز منظمة التحرير الفلسطينية إلى صخرة قاسية تتساقط بسرعة. ففي عام 1973 أعلن أحد مسؤولي فتح الذي كان يقوم بمهمة مدير مكتب المنظمة في بغداد، ويدعى صبري البنا والمعروف باسمه الحركي - ابو نضال - عن تشكيل فتح - المجلس الثوري - كمنظمة معادية لعرفات، وسعى إلى التخلص من جميع الزعماء الفلسطينيين الذين سيلتحقون بركب التسوية مع إسرائيل.

كان ابو نضال المحارب القديم في فتح، والذي كان يمثل شخصية غريبة الاطوار في المنظمة مديراً لمكتب الخرطوم بالسودان. حيث لعب دوراً فريداً في الاستقلالية والعنف المتطرف.

ثم انتقل إليالعراق، وأقام علاقة قوية مع المخابرات العراقية، طورها فيما بعد إلى تحالف كامل.

وبمساعدة العراق المالية، والتسليحية، والتأييد انشق ابو نضال عن عرفات متعهداً بتطهير منظمة التحرير الفلسطينية من زعيمها الخائن.

ولقد كان من الصواب ان يعمل ابو نضال وأحمد جبريل معاً لتحقيق هزيمة عرفات، لكن الخصومة بين العراق وسوريا التي ترعى - القيادة العامة - جعلت هذا التحالف مستحيلاً. إذ لم تكن في الحقيقة أولى عمليات المجلس الثوري موجهة ضد منظمة التحرير الفلسطينية، ولا ضد إسرائيل وانما ضد السوريين. ففي 25/ 9/ 1976 قام ثلاثة «إرهابيين» من المجلس الثوري، تحت اسم منظمة حزيران الاسود بالسيطرة على فندق سمير اميس بدمشق وبخطف تسعين رهينة داخله، حيث قتلوا أربعة من الرهائن وجرحوا 34 آخرين قبل ان يهاجم الكوماندو السوري المبنى.

لم يكن المثل التاريخي المشهور في الشرق الاوسط: «اعدو عدوي صديقي»

ينطبق على الفلسطينيين. فعندما اندلعت الحرب الأهلية في لبنان وكان الفلسطينيون يقاتلون كتلة واحدة ضد الميليشيات المسيحية، وضد الجيش اللبناني كانت كل منظمة منهم تتطلع دوماً إلى مصالحها أولاً، وكان احمد جبريل اكثر عقل استقلالي من جميع الزعماء الفلسطينيين.

كان جبريل يدرك ان رجاله، وان كانوا أصحاب خبرة تقليدية إلا أن عددهم قليل ولذلك شكل تحالفا مع ميليشيا المسلمين السنة (المرابطون) بقيادة إبراهيم قليلات مما جعل قواتهم المشتركة تشن هجمات عنيفة ضد القطاعات المسيحية في بيروت.

أصبحت لبنان خلال تسعة اشهر جحيماً. كانت المعارك التي تجري في شوارع بيروت وداخل مخيمات اللاجئين وفي أنحاء المدن الرئيسية بلبنان من أعنف المعارك التي جرت في الشرق الاوسط الذي ابتلي بالعنف عبر ما يزيد على نصف قرن. كانت حرب المدن التي تجري على طول الخط الاخضر، الذي يقسم بيروت وعلى طول الشارع الذي يفصل بين بيروت الغربية المسلمة وبين النصف الشرقي المسيحي لا تقارن أبداً بالعنف الذي ساد عمان اثناء أيلول الاسود بل ان ما جرى في عمان كان بمثابة حفلة شاي بالمقارنة مع الذي جرى في لبنان.

ومع ان اندلاع الحرب الاهلية اللبنانية فاجأ المخابرات الإسرائيلية وأبقى إسرائيل بعيدة عن المشاركة ودون تقديم الاسلحة او المال لأي من الاطراف المتقاتلة إلا أنها أرسلت فريق استطلاع من الموساد لبحث إمكانيات خلق تحالف إسرائيلي ـ مسيحي في المنطقة.

أما سوريا فكانت لها قصة أخرى.

فبقدر ما يتعلق الأمر بدمشق لم تكن «الاضطرابات» في لبنان سوى ازعاجاً، وفرصة مناسبة شريطة ان يبقى القتال متوازناً دون أن يتحقق لطرف السيطرة والهيمنة على البلاد. فحزب البعث السوري كان يعتبر لبنان مجرد امتداد لسوريا الكبرى ـ التي تضم كل لبنان والكثير من شمال إسرائيل والأردن.

وبينما كان القتال يشتد عنفاً، وكثافة أخذ الجيش اللبناني الذي يسيطر عليه

المسيحيون يفقد المزيد من الأرض امام القوات المشتركة ـ وهي القوات التي تضم القوات المسلحة ـ للفصائل الفلسطينية ـ (تحالف جبهة الرفض مع فتح ـ 20 ألف مقاتل) وكذلك قوات اليساريين اللبنانيين والشيوعيين والحزب التقدمي الاشتراكي وقواته ـ والحزب القومي الاجتماعي (السوري سابقاً) ـ وجيش لبنان العربي إضافة إلى ميليشيات صغيرة من الجيوش الخاصة، وعصابات الشوارع التي تشكل منها وحدات شبه عسكرية بحيث تجاوز عددهم جميعاً (الـ 35 ألف مقاتل).

ظهرت سوريا للعالم الخارجي بدور الوسيط داعية إلى الوقف الفوري للعنف غير العقلاني، لكن سوريا كانت في الحقيقة تلعب دوراً غير مباشر في القتال عندما بدأت تنقل عناصر جيش التحرير الفلسطيني، وكذلك وحدات من منظمة الصاعقة إلى داخل ميدان المعركة في 26/ 12/ 1975 . كان حافظ الاسد يراقب ذلك الجنون من الجانب منتظراً بمكر بارع الزمن المناسب للعمل الحاسم.

كانت سوريا معنية بوقف الشوارع البدائي الذي انشغل فيه رجال يرتدون أغطية رأس ووجه لاخفاء شخصياتهم وهو يتطور إلى قصف مدفعي وصاروخي.

كانت دمشق تراقب بهدوء تلك الممارسات على مدار سنة، وفي الوقت نفسه كانت تجري محاولات لايقاف القتال ـ خاصة من قائد الميليشيا الكتائبية بشير الجيمل ورئيس مخابرات منظمة التحرير الفلسطينية علي حسن سلامة (الامير الاحمر المسؤول عن تخطيط عملية أيلول الاسود في الملعب الرياضي بميونيخ) للتوصل إلى ترتيبات دائمة لوقف اطلاق النار. ومع ذلك كان الرجلان بالصدفة من المسجلين في حسابات السي آي أيه كعملاء سريين لها.

كان أي إحتكاك يؤدي دوماً إلى اشتعال النيران مما لا يجعل وقف النار يصمد طويلاً. كان الفلسطينيون يشكلون خصماً مخيفاً للقوات المسيحية، غير المنظمة والتي تنقصها قيادة مؤهلة. وأخذت التدخلات السورية تزداد محاولةً التأثير على مجرى القتال بشكل ملح من خلال نفوذها في الاحزاب السياسية اللبنانية (وميليشياتها) وعلى الحركات الفلسطينية التي تخضع لنفوذها. . .

فقد كانت سوريا من خلال قيادتها لجيش التحرير الفلسطيني ومنظمة الصاعقة وتحالفها مع الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة التي برهن قائدها على انه اكبر الشرارات التي تشعل الاضطرابات الطويلة. فالقيادة العامة كانت أول منظمة تقوم بشن الهجوم على المسيحيين وأول من اعاد التقليد اللبناني بالخطف إلى سابق عهده.

ففي 29 حزيران 1975 بعد ستة اسابيع من بدء تنفيذ وقف النار المفترض بالصيف، اختطفت القيادة العامة الكولونيل آرنيست مورغان الملحق العسكري الأمريكي في لبنان، وهو خارج من مبنى السفارة وادّعت ظاهرياً بأنه محجوزٌ عند منظمة تطلق على نفسها منظمة العمل الاشتراكي الثوري، لكن الحقيقة ـ هي ان هذه المنظمة هي ـ الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة مستخدمة اسما مستعاراً بغية تجنب الرد الأمريكي المحتمل.

وقد قيل أن الكولونيل مورغان اختطف من أجل تأمين طعام وتموين للقطاع الفلسطيني المحاصر في الكارنتينا، وهي المنطقة التي تلقت ضربات قوية من القوات المسيحية وتحولت إلى مسلخٍ فعلي. وعلى اية حال شكلت عملية الخطف نزاعا داخليا خطيراً داخل المعسكَر الفلسطيني.

إذ ناشد عرفات على مدى اسبوعين جبريل إطلاق سراح الرهينة معتبراً ان اختطاف الرهائن خاصة من الأمريكيين لا يفيد القضية الفلسطينية بشيء. وذكرت تقارير ان عرفات أمر وحدة خاصة من قوة الـ 17 ـ (وهي تشبه الحرس الجمهوري) ـ للاعداد لعملية انقاذ تستهدف المخبأ الذي يعتقد بأن القيادة العامة وضعت فيه الكولونيل مورغان.

كان جبريل يكره عرفات اكثر مما يكره الميليشيا المسيحية وتعهد بأن تبقى القيادة العامة الكولونيل محتجزاً أطول مدة مناسبة لها.

لكن دمشق قامت في النهاية بإقناع جبريل بالافراج عن الكولونيل مورغان بعد اسبوعين من دون ضرر.

رغم ذلك كانت براعة وشجاعة الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ في ميدان

القتال مؤثرة. فخلال معارك مخيم اللاجئين الفلسطينيين - ضبية - (القريب من المرفأ المسيحي في جونية)، ومعارك مدينة الاكواخ الكرانتينا، التي تسيطر على الطريق الرئيسي من المنطقة المسيحية من بيروت، وباتجاه قلب الارض المسيحية في شمال شرقي لبنان اثبتت المجموعة القتالية للجبهة الشعبية - القيادة العامة - على أنها اقوى محاربي المدن.

فقد كانت مجموعات جبريل القتالية بما توفر لها من تدريب في سوريا وليبيا واليمن الجنوبي، وبما تلقته من إرشادات على يد أكبر العقول العسكرية السوفياتية والكوبية والالمانية الشرقية والكورية الشمالية خبيرة في معارك المدن على غرار خبرتها في عبورها للحدود داخل إسرائيل لخطف الرهائن.

ولأن هؤلاء تدربوا على عمليات الكوماندو فقد كانت قدراتهم عليالتسلل عبر الحدود المحصنة بسرعة وقوة نارية، لا يضارعهم فيها أي من وحدات القوات الخاصة العربية.

كما برهنت قوات جبريل على أشد القسوة في قتال الشوارع، والقتال من ل لآخر، وغرفة لأخرى، وهو القتال الذي صبغ معظم مواجهات الحرب لية، وأوقعت الخسائر الجسيمة في صفوف القوات المسيحية المتقدمة. ندما اتخذ الفلسطينيون موقع الهجوم في كانون الثاني 1976 مكتسحين مدن كان المسيحيين في الدامور والجية، كانت وحدات الجبهة الشعبية - القيادة في مقدمتهم. وبالرغم من ان تلك المدن كانت تشكل مراكز هامة للحياة حية على طول الساحل المتوسطي اللبناني فقد جرت السيطرة عليها ونهبها. شكلت مذبحة العديد من المسيحيين في الدامور نموذجاً لفظاعة الحرب هلية. وعلى الفور انشأت الجبهة الشعبية - القيادة العامة قاعدة تدريب شمرة ب الدامور على بعد عدة أميال من بلدة الناعمة.

وأصبح جبريل مثلاً لرجاله، عندما شارك في القتال للسيطرة على فندق (هوليداي إن) ببيروت في نيسان 1976 مما جعل «منه اسطورة يتحدث بها المقاتلون».

وقد أصيب بساقه في القتال القريب، الذي احاط بالمدينة، وتعين ان يتلقى علاجا طبياً طارئاً في احدى العيادات الفلسطينية المجاورة. وبعد ذلك برهنت الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ على قدراتها القتالية الحقيقية أثناء القتال الذي دار في مخيم اللاجئين الفلسطينيين ـ تل الزعتر شرقي بيروت ـ كان ذلك المخيم لايضم سكاناً فلسطينيين وأرمن وأكراد وشيعة. بل فلسطينيين فقط، وكان أوسع المخيمات امتداداً حيث يعيش فيه 35 ألف ساكن تقريباً. وكان في السابق مخيماً هادئاً مستقراً ولكنه لسوء حظه تحول إلى مخيم مسلح على يد منظمة التحرير الفلسطينية عام 1970 . وبسبب موقعه المطل على السهل الاستراتيجي الذي يتحكم بقسم من طريق بيروت ـ دمشق الذي يعتبر أهم طريق في كل لبنان، فقد أصبح هذا المخيم هدفاً هاماً للمسيحيين.

كانت السيطرةعلى المخيم مقسمة بين خمسة مناطق، كل منطقة تديرها منظمة فلسطينية ـ فتح ـ والجبهة الشعبية ـ والجبهة الديمقراطية ـ والصاعقة ـ وبالطبع القيادة العامة.

وكان السكان يدفعون ضريبة أتاوة إلى المنظمة، التي تسيطر على منطقتهم مقابل حمايتهم من الأخطار، وكانت تلك المنظمات تجند الكثير من سكان المخيم في صفوفها. ومما يدعو للغرابة أن تل الزعتر كان مسالماً في السابق، رغم أنه كان مخيماً قذراً. وعند اندلاع القتال الفئوي في بيروت قام الفلسطينيون بسرعة بتحويل تلك المنطقة إلى منطقة محصنة. حيث أقيمت الحواجز، ووضعت الكمائن والافخاخ للدبابات واعدت مواقع الرشاشات على المنعطفات الحيوية. وأخذت الدوشكات السوفياتية 12,7 مم، وشبكات المدفعية الرشاشة الثقيلة تظهر على أسطحة المنازل التي كان من بينها سطح مبنى عيادة، كانت تديرها راهبات مارونيات لرعاية الاطفال اللقطاء.

وفي حين اعدت فتح، وبقية المجموعات نفسها للقتال من الارض المرتفعة قامت الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة بحفر الخنادق والأنفاق. وربما تطبيقاً لما قرروه في كتاب تاريخ فييتنام الشمالية، الذي زودهم به المدربون الفييتناميون قام

ضباط القيادة العامة بأمر رجالهم بحفر انفاقٍ عميقة، للاتصالات وللتخزين تحت شوارع المخيم.

كان احمد جبريل قد أصبح مولعاً بالأنفاق وباحتمالات شن حملة عبر الانفاق ـ يوماً ما ضد إسرائيل. فهو كان قد قرأ قصص انتصارات الفيتكونغ وجيش فيتنام الشمالية عبر الانفاق، كقواعد تحت أرضية لإطلاق النار ولخزن الاسلحة وكقواعد انطلاق. وتحفز لتطبيقها على مسرح العمليات اللبناني. مما جعلها في متناول يده الآن.

بدأ الحصار على تل الزعتر في 1/1/1976، عندما قام 300 مقاتلاً من ميليشيا «التنظيم» ـ وهي منظمة مسيحية صغيرة متعصبة ـ بوضع مواقعهم خارج بوابة المخيم وبدأوا يعترضون دخول الفدائيين. دام هذاالحصار ستة أشهر. أثناء ذلك لم تكن حرب المسيحيين تسير على مايرام فهم لم يتمكنوا من تأمين حماية نصف العاصمة اللبنانية كبوابة نحو بقية أجزاء البلاد أو دخول بيروت أخيراً.
ولقد حاول الكثير من السكان الفلسطينيين الابتعاد عن المتاعب القادمة لكن منظمة التحرير الفلسطينية منعتهم من مغادرة تل الزعتر.

وبينما كان المسيحيون على حالهم هذا، كان لبنان يزداد توتراً ويزداد الحصار كثافة ومدى أوسع.

في الأول من حزيران 1976 قام الجيش السوري «بدخول» لبنان وذلك عن طريق تحركه إلى داخل سهل البقاع ومن ثم أخذ يتقدم على طريق بيروت فقد خشي الرئيس الأسد بشكل واضح من سوء تطور الأحداث.

كان تل الزعتر قد حوصر من قبل الوحدات المسيحية في 22/6/1976 ثم دام الحصار المدمر (52) يوماً بعد ذلك. واستناداً إلى تقارير متعددة تمكن المسيحيون من احضار بطاريات مدفعية ثقيلة لإحكام الحصار وكانوا يقذفون أربعة الاف قذيفة في اليوم داخل المخيم. وفي حين قررت قوات منظمة التحرير الفلسطينية الالتحام بالمسيحيين على الفور.

قررت الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة، التراجع إلى كهوفها وخنادقها وانفاقها

بغية شن حرب انتقامية عنيدة، وعنيفة ضد المسلحين المسيحيين. كان مقاتلو القيادة العامة يخرجون من ملاجئهم تحت الارض ويكمنون للدوريات المسيحية ويقتلون العديد من رجال الميليشيا المسيحية ويأسرون البعض الآخر ـ وهؤلاء الأسرى كانوا يعذبون ويستجوبون وبعد ذلك يقتلون ـ فميثاق جنيف لا ينطبق على الحروب الاهلية. ورغم أن رجال جبريل يظهرون إنضباطاً في القتال إلا أنهم كانوا في النهاية معدين ومكرسين للحرب الشاملة ضد إسرائيل، وكانوا مقاتلين أكثر من أن يكونوا ثوريين، وهذه الكفاءات الحربية هي ما كان جبريل يبحث عنه. اما الأمر الذي جعل ذلك الحصار البطولي (والداعي للغرابة) لتل الزعتر مأساويا جداً فهو حقيقة ان المسيحيين استغلوا دخول القوات السورية وأخذوا يقصفون الفلسطينيين بقسوة وضخامة. ويصبح الأمر أشد غرابة حين يأخذ المرء بالاعتبار حقيقة الجولات الاستطلاعية الأولى للموساد ـ وأمان الإسرائيلية في لبنان بهدف اقامة مكتب ارتباط وثيق مع القوات المسيحية جعلت (الموساد وأمان) يطلّعان على الحصارعن كثب.

في 6 أب احتل المسيحيون بشكل نهائي مخيم تل الزعتر اثر حصار دام 52 يوماً وأدى إلى قتل 2500. أما مقاتلو القيادة العامة فبعد أن صمدوا مدة تسمح بها ذخائرهم المتناقصة تسللوا في الليل من المخيم متجهين إلى قواعد البقاع. ويبقى حصار تل الزعتر فصلاً مأساويا في التاريخ اللبناني ـ علماً أن الكثير يعزون صمود الفلسطينيين المثير للإعجاب لمقاتلي الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ المدافعين الشرسين والانتحاريين.

وجهت السياسة السورية المتوازنة في لبنان ضربة قاسية لأحمد جبريل الذي قضى الكثير من الوقت بعد الحرب الاهلية في دمشق.

اثناء حصار تل الزعتر على سبيل المثال اصطدمت وحدات من فتح علانية بقوات الصاعقة في أرجاء بيروت الغربية كما سجل اطلاق نار من فتح ضد وحدات جيش التحرير الفلسطيني. إلا أن أشرس قتال فلسطيني ـ فلسطيني كان الذي جرى بين رجال عرفات والجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ إذ ان جبريل لم

يستطع اخفاء نفوره من عرفات والدخول السوري قاد الثورة الفلسطينية بكاملها نحو الفرز بين مؤيد لدمشق ـ ومعارض لها. كانت الورطة في غاية العنف لكن موالاة أحمد جبريل لسوريا لم تلائم العديد من رجاله خاصة قائد العمليات والناطق الرسمي ابو العباس.

كان أبو العباس طفلاً مدللاً عند جبريل قضى عشر سنوات تقريباً يتعلم فن «الإهراب» وشن حرب العنف الثوري وتعلم أيضاً بأن احتكار الحركة من قبل أي دولة عربية يمثل خطراً على تحقيق تحرير فلسطين اكبر من خطر وجود دولة إسرائيل. ولذلك اعتبر ابو العباس التدخل السوري وبالتالي طرد المقاتلين الفلسطينيين من مواقعهم بالقوة خيانة .

كان العراقيون ينتظرون من أبي العباس بشوق اتخاذ القرار الذي لا يصدق ـ وهو الانشقاق عن جبريل. لذلك قام ابو العباس في 24/ 4/ 1977 بالإعلان عن تشكيل جبهة التحرير الفلسطينية كفصيل مستقل مؤيدٍ للعراق، متعهداً بتأييد رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات. وكان من الاهداف الرئيسية لجبهة التحرير تدمير الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ بقيادة جبريل. كما ان اتخاذ ابو العباس للاسم الاول القديم لمنظمة جبريل، قد شكل دليلاً على الكراهية المفاجئة التي سادت بين الاستاذ وتلميذه. وقد أغرى ابو العباس الكثير من أكفأ ضباط جبريل على الانشقاق معه، خاصة المسؤولين عن العمليات الخاصة ضمن وعوده لهم بالدولارات العراقية وبشروط الحياة المرفهة لهم ولعائلاتهم. أما جبريل فقد وجه أوامره لمجموعات الموت التي كانت تتجول في لبنان بمطاردة المنشقين.

كان ابو العباس مدينا في الحقيقة لجبريل، ولكنه الآن كزعيم «ارهابي» سيستفيد من عبقرية أستاذه للسنوات القادمة. وهكذا اصبحت خطوط القتال ترتسم على نحو واضح في بلاد تسودها وحشية جنونية . كانت الحرب تدور فعلياً بين العراق وخصومها بالدم الفلسطيني من اجل نيل قلب وروح الثورة الفلسطينية.

كانت الحرب صراعاً تعهد جبريل كسبه عن طريق عنف دموي لا رحمة فيه. ومع أن العنف الفلسطيني ـ الفلسطيني كان شائعاً منذ بداية نشوء الفدائيين في غزة

والضفة الغربية في الخمسينات، الا أن حرب ـ القيادة العامة ـ مع جبهة التحرير، والتي تورطت فيها بقية المنظمات الفلسطينية كانت شديدة العنف. ففي بعض الحالات كانت تجري محاولة السيطرة على عدم توسع العنف عبر عملية مثل اغراق (القيادة العامة) لسفينة الشحن (س. س. سبيروس) المسجلة في قبرص ـ فماغوستا، والتي اعتقد جبريل أن ما تحمله من اسلحة، يمكن أن يغير ميزان القوى بشكل كبيرلصالح خصومه. ولذلك قام بارسال الضفادع المدربين في سوريا لتلغيم السفينة. وقد شكل ضياع تلك الاسلحة صدمة قوية لأبي العباس، لأن حملته العسكرية ضد أحمد جبريل لم تحرز سوى ايقاع خسائر قليلة بالارواح.

في ذلك الوقت كان معظم أنصار ـ القيادة العامة ـ قد أرسلوا ضمن السياسة التنظيمية للجبهة خلف الستار «الحديدي» لتلقي دورات عسكرية تدريبية واعتبرهم السوريون بأنهم من الفلسطينيين الموالين لهم.

وكان للعراقيين نفس الاعتقاد. فقد كان القتال يندلع حتى بين فتح المؤيدة للعراق والجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ ومن معها من المنظمات المؤيدة لسوريا، مثل الصاعقة وجيش التحرير الفلسطيني.

حاول ابو العباس قيادة القوات المعادية لقوات جبريل، إلا أنه على غرار التجارب السياسية الفلسطينية ابتليت حربه الاهلية بطابع الخطابة. وكانت المخابرات العراقية من خلال جيش جبهة التحرير العربية التابع لها، تحاول الإمساك أيضاً بالزعامة الروحية العسكرية للثورة الفلسطينية، عن طريق الوعود المقنعة بأن الطريق إلى فلسطين يمر من بغداد. ففي مخيم عين الحلوة البائس قرب صيدا اندلعت معارك شرسة بين جبهة التحرر العربية والجبهة الشعبية ـ القيادة العامة . كانت تلك المعارك استناداً إلى تقارير المخابرات الأمريكية في ملخصها الذي نشرته وكالة مخابرات البنتاغون من أعنف المعارك التي جرت في لبنان.

وبلغ الصراع الداخلي الفلسطيني أوجه في 13/ آب / 1978 عندما قام خبراء التخريب في الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ والذين دربوا للقيام بمهام داخل إسرائيل بوضع جهاز تفجير من تصميم مروان خريسات داخل مقر جبهة التحرير

الفلسطينية في بيروت الغربية. كان ذلك المبنى الفخم المرتفع عالياً، والموجود في ضاحية هامة في بيروت، هو بنتاغون جبهة التحرير، الذي حشد فيه ابو العباس بغباء جميع أفراد القيادة، ورجال التخطيط في طابق واحد. كان هذا خطأً مميتاً. فقبل الظهر تماماً مزق الانفجار الضخم المبنى، كان الانفجار مخيفاً بحيث جعل البيروتيين يعتقدون بأن زلزالاً كبيراً قد أصاب تلك المنطقة المتحاربة في العاصمة . فكتلة اللهب، وما تلاها من الدخان الكثيف المنبعث من حفرة الانفجار، التي ضربت مقر ابو العباس شوهدت على بعد اميال. وكانت الخسارة البشرية مروعة ـ فقد قتل ما يزيد على 250 من ضباط جبهة التحرير ومقاتليها في ذلك الانفجار* .

كانت المأساة ضخمة جداً، والخسائر البشرية كبيرة والضرر على القضية الفلسطينية لا يمكن تعويضه تقريباً، بحيث قرر احمد جبريل وابو العباس إنهاء حربهما الدموية، واللجوء إلى الوسائل غير العنيفة لحل نزاعاتهما الفلسطينية الداخلية.

ومما تجدر ملاحظته ان القتال الفصائلي بين جبريل وابو العباس كان يجري مقابل ستارة خلفية دراماتيكية فريدة من التورط الإسرائيلي واسع النطاق في لبنان.

كان ربيع 1978 يمثل فترة اضطراب وهجوم على الفلسطينيين. فمنذ تشرين ثاني 1977 يوم وقوع الحدث التاريخي المتمثل بزيارة رئيس مصر انور السادات السلمية إلى القدس، أجبرت منظمة التحرير الفلسطينية على ادراك أن أسوأ كابوس لها ـ وهو اجراء بلد عربي لسلام منفصل مع إسرائيل ـ اخذ يجري امام نظرها. فمصر زعيمة العرب، وأقوى قوة عسكرية عربية، أصبحت الان أكبر خائن للقضية الفلسطينية. ولذلك تعهدت منظمة التحرير الفلسطينية باغتيال السادات، وبالتحريض على حرب أهلية مصرية، أشد قسوة من الحرب الأهلية في لبنان

* لقد اشارت كافة المعلومات الى وجود أصابع إسرائيلية في ذلك الانفجار ولم تكن للقيادة العامة وجبريل أي علاقة بهذا العمل الخطير. بل ان هذا ما اشار اليه المؤلف بعد اسطر قليله كدليل على وجود الاصابع الإسرائيلية.

والأهم أنها تعهدت بنسف مفاوضات السلام. وممايلفت النظر ان الذي دشن هذا الهجوم كان فتاة فلسطينية تقود مجموعة مسلحة ففي 11 آذار 1978 تقدم خمسة عشر مسلحاً من منظمة فتح عبر سفينة أم توقفت مقابل المياه الأقليمية الإسرائيلية، وقفزوا إلى قوارب زودياك صغيرة بمحركات، وانتظروا لبرهة للتدقيق بأجهزتهم البحرية لآخر مرة، ثم تحركت قواربهم عبر مياه المتوسط بأقصى سرعتهم نحو الهدف ـ ضاحية بات يام ـ في تل البيب حيث افترض ان يسيطروا على فندق فخم واختطاف رهائن من النزلاء للمساومة على تبديلهم بمئات «الإرهابيين» الفلسطينيين المحكومين في السجون الإسرائيلي. ولسوء حظ «الإرهابيين» غرق اثنان منهم عندما سقطا من ظهرالقارب إلى أعماق المياه جراء ثقل معداتهما.

كما أخطأ «الإرهابيون» كثيراً في اتجاههم، إذ وجدوا أنفسهم على شواطىء كيبوتس «معجان ميخائيل»، وهو كيبوتس زراعي جماعي يقع في منتصف الطريق بين تل أبيب وحيفا، أي على بعد 80 ميل من الهدف المقصود. وبشجاعة بارزة أمرت قائدة المجموعة وهي فتاة تدعى «دلال مغربي» متابعة المسير نحو الشاطىء. وبعد أن قتلت المجموعة «مصوراً للطبيعة»، سيطرت على باصين يقلان مسافرين إسرائيليين في عطلهم، وكذلك موظفين من شركة باصات (ايجد) الإسرائيلية حيث جمعوا الركاب في باص واحد وانطلقوا نحو تل أبيب. التي لم يصلوا اليها. فقد وضعت قوات الامن الإسرائيلية، ونخبة الوحدات العسكرية وقوة الكوماندو المضادة للعمليات «الإرهابية» من حرس الحدود حاجزاً على مفترق «نادي الريف Country Club والذي يبعد 11 كلم خارج حدود مدينة تل أبيب. وبدأت على الفور معركة دموية مفجعة. فقد تسببت مذبحة نادي الريف «كما أصبحت تعرف ، بمقتل 35 راكباً وجرح 71 آخرين وقتل تسعة «ارهابيين». كانت هذه العملية من أشد العمليات «الإرهابية» تدميراً للدولة اليهودية. لكنها لم تمر بدون انتقام.

بعد ذلك حث الرئيس الأمريكي جيمي كارتر والرئيس المصري انور السادات مناحيم بيغن رئيس وزراء إسرائيل على ضبط النفس. لكن بيغن لم يشعر بأنه قادر على تحمل دفن 35 من المواطنين دون القيام بعمل ما. لذلك وفي 14 آذار 1978

قام الجيش الإسرائيلي بشن غزو من الحجم الصغير على الجنوب اللبناني مستخدماً كما قالت التقارير 20 ألف جندي عبروا الحدود، لتطهير منطقة الحدود من قواعد «الإرهابيين» الفلسطينيين، وابعادهم إلى ما وراء نهر الليطاني بعيداً عن مدى الحدود الإسرائيلية . كانت عملية الليطاني هجوماً إسرائيلياً ضد فتح، وضد منظمات اخرى خاصة ـ الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ التي ساهمت بدورها في القتال الذي حمل نذير شؤم على إسرائيل.

ففي نيسان 1978 قامت مجموعة خاطفة تابعة للجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ بخطف أبراهام عمرام الضابط الاحتياطي الإسرائيلي عندما كان يعمل على تراكتور بالجنوب اللبناني.

كان هدف الخطف هو أخذه رهينة للمقايضة عليه فيمابعد. كان جبريل يدرك ان منظمته تمر في مرحلة انتقالية خطيرة، وهي بحاجة إلى اتجاه جديد وإلى بعض الدماء الجديدة. وكان الإسرائيليون يحتجزون شخصاً يريد جبريل استعادته مهما كان الأمر.

لقد بقيت تفاصيل المحادثات السرية لتبادل الاسرى بين الجيش الإسرائيلي وممثلي جبريل سرية. لكنه علم أن المحادثات كانت ساخنة واستغرقت اكثر من سنة للتوصل إلى اتفاق مبدئي. كان جبريل قد طلب في الاصل اطلاق سراح 140 سجين. وفي آذار 1979 اطلق سراح الرهينة الإسرائيلية مقابل 76 سجين فلسطيني جميعهم من نواة «الإرهاب»، ومن ضمنهم ثمانية حكموا بالسجن مدى الحياة ولأول مرة سمح لعدد من «الإرهابيين» المحررين ومنهم ستة نساء بالعودة إلى بيوتهم في الضفة الغربية بينما نقل البقية جواً إلى ليبيا. وكانت النقطة المرهقة في تلك المفاوضات الصعبة هي مسألة اطلاق سراح حافظ الدلقوموني. الزعيم الكبير الشأن للجبهة الشعبية ـ القيادة العامة . المحتجز في السجن الامني الكبير قرب عسقلان والرجل الذي اعتبره جبريل ممن برهن على نبوءة جديرة بالملاحظة.

أثارت عملية التبادل عام 1979 الاختلاف. فلأن التعامل مع «الخاطفين» «والقتلة» هو ضد السياسة الحكومية الرسمية، فقد جرت متابعته بشكل مثقل في إسرائيل. .

لكن إسرائيل بملايينها الاربعة، هي بلد صغير يسهل نسبياً الوصول فيه إلى أي من زعمائها . فإذا رغبت والدة جندي سجين برؤية رئيس الوزراء يتحقق لها ذلك خاصة وان صفتها كعائلات اسرى الحرب يمكن أن يحرك جبالاً من الضغط السياسي، ويجبر الحكومة على العمل، وكأن مسدس عاطفي مصوب على رأسها. وهذا الضغط ـ كما قال المراسل العسكري لجريدة الجروزليم بوست هيرش غودمان ـ هو الذي دفع وزير الدفاع عيزر وايزمان لاطلاق سراح 76 من رجال جبريل عام 1979مقابل الضابط احتياط ابراهام عمرام.

هكذا بدأت السابقة الخطيرة في إجراء الصفقات مع «الإرهابيين».

الفصل الخامس

الحرب في لبنان
المرحلة الثانية

الفصل الخامس

ـ الحرب في لبنان
ـ المرحلة الثانية

عطلت الحرب الاهلية اللبنانية قدرات الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ على شن عمليات هامة ضد إسرائيل، في حدودها الشمالية، كما تقلصت العمليات داخل المناطق المحتلة نوعاً وشكلاً. فالخلايا الداخلية توقفت اعمالها، ولم يعد يعرف ما إذا كانت ستستدعى للعمل مرة اخرى .

لكن أكبر عملية مميتة كانت تلك التي وقعت في 4 تموز 1975، حين استخدمت ثلاجة مهملة، وضعت خارج مقهى ألاسكا على طول شارع القدس ـ يافا بعد أن زرعت داخلها عبوة من عدة كيلو غرامات من المتفجرات متصلة بجهاز توقيت شديد الحساسية. أحدثت العبوة انفجاراً هائلاً أدى إلى قتل 15 فرداً من المشاة وجرح 62 آخرين.

أصبح انفجار القدس هذا هدفاً لتحقيقات مكثفة من الشرطة، وقوات الامن خاصة بعد أن أعطت الاجزاء المتبقية من آثار الانفجار دلائل فنية قيمة. كان يراد لعملية التفجير هذه ان تسخن حرارة اهتمام الشرطة، والجيش (والشين بيت) والامن السري داخل المناطق المحتلة للضغط على خدمات الامن، واشغالها بعيد عن خلايا جبريل داخل المناطق المحتلة. . . وقد نجح جبريل في مقصده هذا إلا

أنه في7 شباط 1977 جرى اعتقال المجموعة التي نفذت تلك العملية من قبل (الشين بيت) ـ الامن السري ـ الذي يشبه إف بي آي الأمريكية ـ وهو القوة المضادة «للارهاب» والتجسس، والمعد لضرب الخلايا «الإرهابية». العاملة داخل الاراضي التي تسيطر عليها إسرائيل.

ساعدت عملية تبادل الاسرى التي أدارها جبريل مع الإسرائيليين على استعادة مركزه. السابق داخل منظمة التحرير الفلسطينية، خاصة وأن معظم الفلسطينيين الذين اطلق سراحهم كان من منظمة فتح، وليس من أنصار جبريل ـ كما أدرك جبريل انه يتعين عليه تأكيد وجوده وترك بؤس الحرب الاهلية وقتال الاشقاء الذي تولد عنها خلفه.

لذلك قامت الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ مرة أخرى بمحاولة السير نحو الساحة الدولية رغم ان شبكاتها ضعفت اثناء سنوات البطالة. في20 حزيران 1980 اعتقلت قوات الامن السويدية رجلين عند الحدود الدانماركية، كانا قد خططا لتنفيذ هجوم مسلح، على شكل (اضرب واهرب) ضد ملاحي طائرة العال في مطار كوبنهاجن. وهكذا طار معظم افراد شبكة جبريل السويدية والسكندنافية بسبب المحاولة الفاشلة والتحقيقات الامنية التي تلتها، مما جعل ما لديه في اوروبا الشمالية ضعيف جداً.

أقنع الفشل في السويد قيادة الجبهة بعدم ملاءمة الوقت، للعمليات الخارجية وأنه يتعين اقامة بيوت سرية في مالطا ـ واليونان ـ ويوغسلافيا وبالطبع المانيا لاستخدامها في أوقات أخرى. لكن القيادة العامة استمرت في تدريب الاجانب خاصة ـ الاثيوبيين وأعضاء الجيش الجمهوري الايرلندي والجيش الارمني السري لتحرير ارمينيا في قواعد التدريب بلبنان. فثمة الكثير من العمل الذي يجب القيام به في الوطن.

كان عام 1981 هو الوقت المكرس لإعادة بناء القيادة العامة. فمذبحة لبنان وامكانية التدخل الإسرائيلي ـ الواسع النطاق فيها، لا سيما وأنها قاعدة الانطلاق الاخيرة للعمليات ضد الدولة اليهودية، أقنع الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ بأن

غابة لبنان تستدعي تعزيز القوة. وبالمساعدة الليبية الكريمة تمكنت الجبهة من تجميع اسلحة تقليدية مخيفة في لبنان في وادي البقاع وقواعد الناعمة. فقد تجاوز ما لديها من بنادق الكلاشينكوف حجم أية منظمة قادرةعلى استخدامه، كما بدأت باستيعاب اسلحة الكتلة السوفياتية الحديثة، مثل قواعد إطلاق صواريخ كورية شمالية من عيار 122 مم متعددة الفوهات ـ والصواريخ المضادة للدبابات الموجهة عبر الاسلاك من طراز Sagre ساغر ـ وكذلك أجهزة اطلاق الستريلا ـ أرض / جو (S.A).

وحتى ذلك الوقت كان السوفيات اكبر مساهم كبير في اسلحة ـ القيادة العامة ـ فأثناء عملية الليطاني، على سبيل المثال بدأ السوفيات بشحن كميات كبيرة من السلاح، واستناداً إلى تقارير متعددة، أفرغت سفن الشحن السوفياتية والبلغارية في موانىء لبنان وسوريا حمولات ضخمة من البنادق الهجومية حديثة الصنع. والآربي جي والمدافع المضادة للطائرات من عيار 23 مم. وقد زود السوفيات القيادة العامة كما يظهر بأحدث اجهزة المناظير، الليلية التي تعمل على الانفراريد ـ ما تحت الحمراء ـ حيث كانت بعض هذه المناظير وما شابهها في قمة الاجهزة التي لم تدخل إلى الخدمة الا للقوات الخاصة السوفياتية. كما قدم السوفيات التدريبات العسكرية التقليدية للكثير من أعضاء الجبهة في معسكرات فائقة السرية بجانب موسكو، والبحر الاسود حيث كان الخبراء السوفيات المتمرسون والقوات الخاصة السوفياتية ـ والكي جي بي ـ والجي ار و (G.R.U) يقدمون للفلسطينيين برامج تدريبية عسكرية، واستخباراتية ومضادة للتجسس إضافة إلى البرامج الشيوعية.

وكانت بعض هذه الدورات، تتضمن التدريب على الصواعق الحارقة، والمواد المتفجرة، والتعلم على معرفة ما هو مفيد، وغير مفيد من الذخائر التخريبية. وكذلك معرفة طرق الدفاع عن الجسور، واستخدام العربات القتالية، وقيادة السيارات بسرعة عالية، والتكتيك المتبع بالهروب، والابتعاد وكيفية عدم الانهيار، امام التحقيق الإسرائيلي واستراتيجية حرب العصابات، والتمويه، والتضليل، والتعلم على كافة أنواع الاسلحة السوفياتية.

كما كانت تجري هناك دورة هامة تتعلق بالقيمة السياسية للخطف، وهو التكتيك الذي تعلمه جبريل وبرع في تطبيقه بعد سنوات.

كانت القواعد التدريبية منتشرة في كافة أرجاء الاتحاد السوفياتي وتشيكوسلوفاكيا، والمانيا الشرقية، وبولندا، وبلغاريا. وكان المجندون يسافرون إلى تلك المناطق المتعددة تحت ستار من السرية والغريب، انه كان يسمح لهم بالدخول إلى المدن المجاورة بمناسبات متعددة للراحة، وقضاء الاجازات.

ويتذكر الكثير من السياح في تلك المناطق الريفية الوجود المفاجىء لرجال شرق اوسطيين يتحدثون العربية. وكان العديد من الفلسطينيين تنتهي تدريباتهم ببعض المتاعب، مع السلطات المحلية اثر حوادث تهريب العملة الأجنبية والمخدرات والدعوة للاسلام، التي يسخر منها الشيوعيون الملحدون. كما كان العديد من الطلاب الفلسطينيين هناك يعاقرون الفودكا الروسية، والبولونية، والبيرة التشيكية فيثمل بعضهم ويتعرض لمتاعب قانونية، حيث يجري تهديده بالشكل المناسب بالطرد (وامكانية الاعدام عند العودة إلى لبنان) أو ما هو أسوأ من ذلك ما لم يوافقوا على العمل لصالح السوفيات كعميل سري بينما كان آخرون منهم ينغمسون مع المومسات التابعين «للكي جي بي» حيث يجندون، (أو، يجري ابتزازهم) لصالح التجسس للسوفيات وحلف وارسو. كانت هذه الدورات شبه التقليدية عادة ما تدوم ستة أشهر أو ثمانية. وعند التخرج كان المتدربون يحصلون على رتبة عسكرية رمزية وشهادة. كانت إسرائيل تعلم بهذه العلاقة، من خلال الوثائق الهائلة التي اكتشفتها في لبنان اثر اجتياح عام 1982، حيث أضيفت هذه إلى الاوراق التي يضمها أرشيف المخابرات الإسرائيلية.

وكان الكثير من معدات الجبهة، والتدريب السوفياتي تدفع اثمانها من اموال البترول الضخمة التي يقدمها معمر القذافي في ليبيا.

فليبيا كانت الدولة العربية الوحيدة بعد سوريا، التي تستثمر مبالغ ضخمة في التأييد السياسي لأحمد جبريل، ومقابل استثمارها هذا شكلت أهمية عسكرية فريدة، يعتقد الكثير بأنها كانت جزءاً من التسابق على انقوة التي كانت يديرها

القذافي لتحدي سيطرة حافظ الاسد على الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ فعناصر جبريل لم تكن تتدرب في ليبيا على فن «الإرهاب» فحسب، بل ان عشرات من فدائييها تلقوا فرصة فريدة حين تدربوا كطيارين على الطائرات المقاتلة، حيث كانوا يتلقون تدريبهم هذا في الاتحاد السوفياتي والكتلة الشرقية ليصبحوا ضباطاً معارين للقوات الجوية الليبية وسلاحها الجوي، مستخدمين طائرات ميغ 23 وتوبوليف.

وكان الطيارون المعارون يبرهنون على قدرات بارعة في قيادة الطائرات ويتفوقون على رفاقهم الطيارين الليبيين في المناروات الجوية والقتالية. واستناداً إلى تقارير متعددة، عمل هؤلاء الطيارون بنجاح كبير في تشاد على غرار مجموعات كوماندو العمليات الخاصة، الذين أجبر جبريل على ارسالهم إلى ليبيا في عقده المالي مع القذافي. وكانت ليبيا تزود وحدات القيادة العامة، أيضاً بأحدث الاسلحة السوفياتية مثل (سام 9) نظام صواريخ ارض ـ جو، والتي عادة ما يكون لها أجهزة اطلاق متعددة، وتثبت على العربات من نوع (BRDM - 2A)، حتى أن السوفيات الذين كانوا يزودون الدول المتعاملة معهم، مثل سوريا والعراق وليبيا بالصواريخ، لم يرغبوا بأن تسلم صواريخ (سام 9) للفلسطينيين، لأنهم كانوا يخشون من أن تقع الانظمة السرية لهذه الصواريخ اثناء القتال بأيدي الجيش الإسرائيلي، ومن ثم يجري تسليمها لخبراء حلف الاطلسي لمزيد من التدقيق. لكن القذافي كان يدعي بأن القيادة العامة ـ بحاجة ماسة لنظام الدفاع المضاد للطائرات، لحماية قواعدها في لبنان، من الغارات الجوية الإسرائيلية متمسكاً بفكرة أن فدائيي جبريل الاقوياء لن يسمحوا أبداً للإسرائيليين بوضع يدهم على هذه الاسلحة الفائقة السرية. وقد أثبتت عملية تحديث جبريل لأسلحة منظمته حكمة لأنه أصبح من الواضح للجميع بأن لبنان قادم على أن يكون مسرحاً لحرب إسرائيلية ـ فلسطينية تقليدية.

إذ وصل عدد جميع الأفراد العسكريين للفصائل «الإرهابية» داخل منظمة التحرير الفلسطينية إضافة إلى القيادة العامة وجبهة الرفض ما يقرب من 20 ألف مقاتل مسلح حتى عام 1981 (كانت منظمة عرفات تمثل اكبر حجم عسكري حيث بلغ عدد عناصرها المقاتلة 14 ألف) منتشرين في مواقع، تمتد من الحدود

الإسرائيلية إلى حدود المدينة الشمالية طرابلس إلى الجبال التي يكسوها الثلج في الشمال الشرقي.

فهذه القوة المسلحة من الرجال، والنساء لا بد من استخدامها بشكل ملح، خاصة وأن التوترات بين الفلسطينيين في لبنان والإسرائيليين كانت تطل برأسها في ربيع عام 1981.

منذ آذار 1978 كانت إحدى الاهتمامات الرئيسة للأمن الوطني الإسرائيلي هي جنوب لبنان، قاعدة انطلاق تدمير إسرائيل. فبعد عملية الليطاني ساعد الجيش الإسرائيلي على اقامة ميليشيا لبنانية صغيرة، يقودها الميجر المسيحي سعد حداد، حيث ضمت تلك القوة مواطنين مسيحيين وشيعة من جنوب لبنان. وكان جيش لبنان الحر التابع للميجر حداد يمتد من 10 إلى 15 كيلو متر - من ساحل البحر الابيض المتوسط إلى قاعدة جبل الشيخ، فيما كان يعرف باسم (فتح لاند). وكانت المجاملة المتعمدة في العلاج المحلي المضاد، لتوسيع توسع الوجود الفلسطيني في جنوب لبنان، هي وجود قوات الامم المتحدة، (اليونيفيل). فقد تم استدعاء قوات حفظ السلام اصحاب القبعات الزرقاء التابعين للأمم المتحدة لتشكيل قوة فصل صغيرة، كانت غالباً ما تساعد المسلحين الفلسطينيين على العبور نحو إسرائيل. فقد استمال الفلسطينيون الكثير من جنود (اليونيفيل)، الذين كانوا يشعرون بالملل والوحدة في ارض لا تؤيد قوات حفظ السلام، بل أن بعض أفرادها جندوا كعملاء عمليات نشيطين. ففي احدى المرات اعتقل ميجر نيجيري ممن كان يقود مجموعة من قوات اليونيفيل داخل إسرائيل وهو يهرب كمية من الأسلحة للخلايا «الإرهابية» في الضفة الغربية. وكانت المواجهات بين الإسرائيليين وجيش حداد ضد الفلسطينيين وقوات الامم المتحدة تجري على شكل حملة تتضمن عمليات جمع للمعلومات التجسسية والاغتيالات والكمائن المخادعة. لقد كانت تلك المنطقة تشهد حرباً قذرة صغيرة تجري على تلال يقيم فيها رجال حرب العصابات، والعنف لا يتوقف فيها أبدا.

على أية حال كان لا بد للوضع أن يتدهور علانية، وبشكل كبير ويعم القتال كافة الارجاء . إذْ لم يبق في تلك اللحظة في ميزان القوى الحساس سوى خيط

صغير من التوتر. وكان لا بد لسوريا من ان تصبح لاعباً رئيسياً على طاولة القمار جنوب لبنان أيضاً. فرغم انه كان من الصعب فهم سياسة التدخل المترجرجة في لبنان، او التنبوء بأبعادها، إلا أنها كانت سياسة فعالة. فعندما ساعد التدخل العسكري السوري بجعل ميزان القوى لصالح المسيحيين، عاد السوريون مرة أخرى، وبدلوا مواقعهم نحو تأييد الفلسطينيين، مما جعل هذه التطورات الدراماتيكية تحث الإسرائيليين والكتائبيين المسيحيين على تشكيل علاقة عسكرية مترابطة، تطورت فيما بعد، وأصبحت تحالفاً سياسياً وعكسرياً مثيراً للجدل. كان أول اتصال بين الطرفين قد جرى 12 نيسان 1976، عندما ساعدت عملية للمخابرات العسكرية الإسرائيلية (أمان) باحضار ضابط كتائبي كبير إلى إسرائيل. وخلال السنوات الخمس التي تلت ذلك اللقاء جرى استثمار إسرائيلي كبير للكتائبيين. فقد أرسل كل من الموساد، والمخابرات العسكرية الإسرائيلية ممثلين لهما إلى لبنان، وأخذ ضباط الكتائب يتلقون بشكل سري، التدريبات على أسلحة الجيش الإسرائيل، وبعد انتخاب بيغين رئيساً للوزراء، أخذ التأييد المفتوح السياسي والعسكري، يتدعم بين القدس وشرقي بيروت.

ومع ان الكتائبيين كانوا على غرار الفلسطينيين، لديهم نزاعات داخلية وقد يكونوا حلفاء خطرين مقلقلين، كما تقول عنهم المخابرات العسكرية الإسرائيلية، إلا أن إسرائيل استندت في استراتيجيتها بلبنان على المسيحيين.

جاءت أولى علامات النزاع المتوقع، في كانون أول عام 1980 حين استعاد الكتائبيون مدينة زحلة، العاصمة المسيحية للبقاع اثر قتال عنيف ضد القوات السورية. ولكن السوريين بفرقتهم، التي يبلغ عدد قواتها ثلاثين ألفاً في لبنان كانوا يشكلون القوة الحاسمة في البلاد، ولذلك اعتقد الكثير بأن الكتائبيين هاجموا زحلة لجر الإسرائيليين للحرب.

بعد ذلك قام السوريون بحصار محكم على المدينة، كاجراء عقابي وليس كحصار استراتيجي لمعاقبة المسيحيين، وليس للسيطرة على المدينة . ثم قام المهندسون العسكريون السوريون بحفر قواعد لبطاريات المنصات المتحركة

للصواريخ (سام 6) أرض/ جو في سهل البقاع، وكان نصب الصواريخ القابلة للتحرك في مواقع ثابتة إشارة لإسرائيل بأن أي تدخل منها لصالح المسيحيين سيؤدي إلى تحريك الصواريخ إلى مناطق لبنانية، يحلق فوقها سلاح الجو الإسرائيلي في أحيان كثيرة.

وفي 18 نيسان 1981 أسقطت طائرتان إسرائيليتان من نوع فالكون ـ ف 16 طائرة نقل عسكرية سورية فوق سماء زحلة. فردت دمشق على الفور بارسال قواعد الصواريخ إلى لبنان، ولم تنجح سوى الجهود الدبلوماسية الأمريكية، التي قام بها المبعوث الأمريكي الخاص فيليب حبيب في تجنب حرب شاملة.

لكن الدفع باتجاه الحرب استمر. في 14 تموز 1981 أسقطت طائرة ميغ 23 سورية في السماء، حينما كانت تحاول تعقب مقاتلات سلاح الجو الإسرائيلي أثناء قصفها لمخيمات منظمة التحرير الفلسطينية في جنوب لبنان. وهذه المرة رد الفلسطينيون بقصف المدينة الشمالية نهاريا بمدفعية 130 مم وصواريخ الكاتيوشا. مما جعل مناطق واسعة في الجليل، شمال إسرائيل تضطر إلى قضاء ليال متوترة في ملاجئها. وفي 17 تموز قامت إسرائيل برد انتقامي بواسطة غارات جوية على قواعد فتح ـ والجبهة الديمقراطية في بيروت، تسببت بمقتل مئة شخص تقريباً.

بعد ذلك قامت الوحدات الفلسطينية في جنوب لبنان، ومن ضمنها وحدات ـ القيادة العامة للمدفعية والتي يشرف عليها السوريون بفتح نيرانها العنيفة، وصواريخها على الجليل، واستمر القصف دون توقف لمدة عشرة أيام، وتسبب القصف بخراب مادي، ومعنوي لمدن كريات شمونا ومعالوت. وبعد أن أصبح الوضع شديد الانفجار أرسلت الولايات المتحدة مبعوثاً خاصاً إلى المنطقة، هو فيليب حبيب لترتيب وقف لاطلاق النار، والتوصل إلى اتفاقية فصل للقوات كاجراء ملح لمنع الحرب.

أدرك ياسر عرفات ان قواته ليست تلك القوة التي تقف في وجه الجيش الإسرائيلي بلبنان، كما ادرك ان رئيس الوزراء بيغين ووزير دفاعه المشاكس شارون مصممان على طرده مع قواته من «دولته الصغيرة» اللبنانية، بل مصممان على السيطرة على بيروت، مهما كان الثمن السياسي.

ولذلك أقام عرفات من أجل كسب الوقت جيشاً من نوع غير ثابت في الجنوب. جيش مهمته تأخير الهجوم الإسرائيلي نحو بيروت، إلى أن يؤدي الضغط الدولي إلى وقف الهجوم كان لديه ثلاثة ألوية ـ اليرموك، والقسطل، والكرامة ـ وكتيبة دبابات من طراز تي 34 المستخدمة أثناء الحرب العالمية الثانية (رومانية وهنغارية). كما كان لديه بطاريات مدفعية عيار 130 مم سوفياتية، ورشاشات متوسطة وقواعد صواريخ كورية شمالية. وكانت بقية الفصائل قادرة على زج 8500 رجلاً من الميدان بوحدات نظامية اما القيادة العامة فقد قامت التقارير الاستخبارية انها عرضت 900 مقاتل من رجالها من أجل الدفاع عن لبنان.

كان جميع اللاعبين يعدون محركاتهم للعمل في لبنان، وكانت التسوية التي توصل اليها فيليب حبيب متقلقلة، ولا تتحرك الا بصعوبة فائقة.

وكان جبريل أحد الزعماء الفلسطينيين القلائل، الذين يعارضون بشكل حاد وقف اطلاق النار، بل انه حاول تخريبه، عن طريق القيام بشن هجمات على إسرائيل. وقد نجحت تقريباً الحملة التي كان يقودها جبريل لوحده، حينما أعدت إسرائيل الهجوم المكثف على طول الحدود الشمالية في الزمان والمكان المحددين. وكان من الملاحظ أن عرفات مارس ضغطاً كبيراً على شتى المنظمات كي يضمن وعداً من جبريل بالالتزام بوقف النار. كما قام عرفات بنشر قوات شرطة عسكرية من فتح للاحاطة بالمواقع المتقدمة للجبهة الشعبية ـ القيادة العامة.
كان الهجوم الإسرائيلي الفعلي عام 1982 يمثل تتويجاً لثلاثة احداث رئيسية في المنطقة:

1 ـ انتقال قاعدة العمليات «الإرهابية» الفلسطينية من الأردن إلى لبنان.

2 ـ الحرب الاهلية اللبنانية، وما أفرزته من نتائج أدت إلى وجود سوري عسكري دائم في المنطقة، وما سببته من تحالف عسكري متقلقل بين إسرائيل والكتائب.

3 ـ توقيع اتفاقية السلام المصرية ـ الإسرائيلية التي تم التوصل اليها عبر اتفاقيات كمب ديفيد.

كان الحشد الفعلي للمنظمات الفلسطينية «الإرهابية» في لبنان يشكل ضعفاً تكتيكياً لها ويسهل هزيمتها بشكل حاسم عن طريق حملة عسكرية. كما أن الوجود السوري في لبنان جعل التدخل العسكري الإسرائيلي فيه ضرورة استراتيجية، فإذا لم تجر حماية هذا الجناح الإسرائيلي، من القوة المحتملة لثلاثين ألف جندي سوري، فسيتحول الأمر إلى انتحار امني وطني لإسرائيل. ولا شك ان الحلفاء المسيحيين الجدد لإسرائيل، قد قاموا باعطاء الدولة اليهودية اول حلف عسكري في المنطقة - وكذلك أنشطة سياسية، ومعنوية مشتركة، طالما سعت إسرائيل إلى الحصول عليها منذ 40 عاما. وفي التحليل الأخير أتاح السلام الحديث العهد بين إسرائيل ومصر لإسرائيل أن تحذف اكبر قوة عربية عسكرية، وسكانية من قائمة أعدائها.

ولم يبق سوى شرارة صغيرة ليشتعل كل شيء.

في 3 حزيران 1982 قام ثلاثة مسلحين من «فتح» ابو نضال بنصب كمين لشلومو آرغوف سفير إسرائيل في بلاط سانت جيمس، خارج فندق دوشبستر الفخم في لندن. وبعد أن اطلق المسلحون النار وقع أرغوف جريحاً. وهذا ما اطلق الشرارة..

يبدو ان المقصود من عملية أبو نضال في لندن، كان خلق استفزاز للحرب، او ايقاع ضرر عسكري من نوع ما. كانت عمليات ابو نضال تديرها العراق المنافس الكبير لسوريا في العالم العربي، وكان من صالح العراق القومي ان تحدث حرباً تضعف الإسرائيليين والسوريين والفلسطينيين. كما كان ابو نضال، ومنظمته المعادية فعلاً لمنظمة التحرير، وعرفات معنيين برؤية إسرائيل وهي تدمر منظمة التحرير الفلسطينية، حتى يتسنى لأبي نضال الظهور كزعيم حقيقي للفلسطينيين. ويُعتقد، استناداً إلى تقارير أجهزة المخابرات العربية، بأن ابو نضال كان يتوقع ان يؤدي أي اجتياح إسرائيلي للبنان إلى صراع مدمر لها، على غرار ما لاقته الولايات المتحدة في فيتنام. لكن إسرائيل شعرت بأنها ملزمة بالرد على منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان. ولم يصغ رئيس الوزراء مناحيم بيغين الذي كان شارون قد أغتصب قراره - إلى مسؤولي المخابرات الإسرائيلية (الشين بيت)

الذين حذروه من أن الفصيل المسؤول عن اطلاق النار في لندن، لم يكن من فصائل منظمة التحرير الفلسطينية.

في 4 حزيران 1982 وعند الساعة (15) قام سرب من طائرات سلاح الجو الإسرائيلي بقصف قواعد منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت الغربية، مما تسبب بتدمير شامل وبعشرات القتلى. وبعد ساعات قامت المدفعية الفلسطينية وصواريخ الكاتيوشا بقصف الجليل، وتسبب هذا أيضاً بمقتل عدد من المدنيين الإسرائيليين وباجبار عشرات الآلاف من سكان الجليل على التوجه نحو الملاجىء . اقسم بيغين بعد ذلك بأنه «لن تسقط بعد الآن قذيفة واحدة على الجليل». وفي الساعة الحادية عشر من صباح 6 حزيران توجهت أول الوحدات الإسرائيلية المسلحة عبر الاسلاك الشائكة للحدود الفاصلة بين لبنان وإسرائيل. وكما قالت التقارير الأجنبية كان عدد القوات الإسرائيلية الغازية (60) الف رجل. لقد بدأت أخيراً عملية «سلامة الجليل».

كان هدف عملية «سلامة الجليل» ظاهرياً، هو دفع الفلسطينيين إلى الخلف، بغية انشاء منطقة عازلة من 40 كلم عن حدود إسرائيل. ولكن حقيقة الأمور كانت تقول ان إسرائيل عازمة على التقدم إلى بيروت.

جرى الاجتياح عبر هجوم على كامل الحدود من خلال ثلاث محاور: الطريق الساحلي عبر التلال الجنوبية الوسطى، وشرقاً باتجاه المجابهة وجهاً لوجه مع القوات السورية والفلسطينية في سهل البقاع. وظهر في البدء كما لو أن الهجوم الإسرائيلي سيصبح نصراً إسرائيليا سريعاً وحاسماً. فقد تقدم الهجوم عن طريق الساحل بسرعة خاصة وأن الكثير من قادة فتح ـ عرفات أخذوا يهربون عندما شاهدوا الهجوم الإسرائيلي. لكن الكوادر الوسطى، والعناصر بقيت في الخلف للقتال الذي كان يجري أحياناً حتى آخر رجل. كما كانت الاشتباكات حول مخيمات اللاجئين المحيطة بالمدينة الساحلية القديمة صور عنيفة جداً وعلى شكل حرب شوارع. وفي 7 حزيران بدأ سلاح البحرية الإسرائيلية اكبر عملية له في تاريخ إسرائيل، حيث انزل قوات بحجم فرقة من المظليين على روافد الأولي قرب صيدا. وبعد معارك مريرة مع القوات الفلسطينية في مخيم عين الحلوة،

وكذلك في القصبة بصيدا، تمكنت وحدات الجيش الإسرائيلي المحمولة بالاتصال ببعضها البعض، واندفعت للسيطرة على الدامور وبيروت. اثناء ذلك كانت قوات أخرى تستعد للالتحام بالسوريين للسيطرة على الطريق الاستراتيجي بيروت ـ دمشق.

وفي النهاية تقدمت من الشرق الوحدات المدرعة الإسرائيلية بحذر، نحو سهل البقاع لئلا تستفز حتى ذلك الوقت السوريين. ففي البقاع كان لدى دمشق 19 من قواعد صواريخ (سام 6) أرض/ جو يشغلها السوفيات في بعض الأوقات، وهذه يمكنها ايقاع خسائر مميتة في سلاح الجو الإسرائيلي.

لكن سلاح الجو الإسرائيلي قام في 9 حزيران بشن أكبر هجوم مفاجئ بالجو في تاريخه، حيث استخدم سلاح الجو الإسرائيلي مجموعة من الخدع الالكترونية من بينها نشر طائرات بلا طيار لإرباك ميدان المعركة الالكتروني السوري، قبل ان تظهر طائراته في الوضع القتالي. وانقض بعد ذلك على مواقع الصواريخ حيث دمرها بفاعلية ومهارة. وعندما حاول سلاح الجو السوري مطاردة القاذفات الجريئة الإسرائيلية القوية، كان بانتظاره اسراب من المقاتلات الإسرائيلية الجاهزة لتدميره.. (في تلك المعارك الجوية البطولية كانت تتجابه 150 طائرة إسرائيلية وسورية في قتال مدفعي وصاروخي)، وقد برهن سلاح الجو الإسرائيلي على سيادته في السماء فطائراته من طراز اف 15 ـ اف 16 فانتوم ـ وكفير قامت بتدمير العشرات من طائرات الميغ والسوخوي. خسر السوريون خلال عدة أسابيع ما يقرب من مئة طائرة بينما خسر سلاح الجو الإسرائيلي طائرتين فقط، خلال تلك الحرب وكانتا قد اسقطتا من النيران الارضية الفلسطينية كما يعتقد.

خلال أسبوع من القتال وصل الجيش الإسرائيلي إلى بوابات بيروت لقطع التعزيزات والامدادات عن الفلسطينيين، والسوريين عن طريق سيطرته على طريق دمشق ـ بيروت. وبعد قتال عنيف بين الدروع، الإسرائيلية ووحدات الكوماندو السورية المضادة للدروع، أكمل الجيش الإسرائيلي حصار بيروت.

كان الهدف النهائي العسكري من الحصار هو ابعاد «الخمسة عشر ألف»

«إرهابي» فلسطيني من العاصمة اللبنانية .(وهي الملجأ الاخير «لإرهاب» منظمة التحرير الفلسطينية، حتى يتحقق ابعاد الوجود «الإرهابي» للحدود الشمالية الإسرائيلية المحاصرة للأبد.

أما من الناحية السياسية، فقد استهدف حصار بيروت مساعدة بشير الجميل قائد الكتائب عليتولي رئاسة الجمهورية اللبنانية.

لكن لبنان أخذ يتحول بشكل أو بآخر إلى ورطة مميتة ومربكة. إذ لم تتمكن وحدات الجيش الإسرائيلي من دخول العاصمة إلا بعد شهرين وبشكل بطيء في حين كانت الوحدات الجوية، والمدفعية تزيد من ضغطها على العاصمة بقصف لايتوقف.

كان هذا أول حصار عسكري يصور بالأفلام حيا، من قبل شبكات التلفزيون العالمية، مما سبب ضرراً كبيراً لصورة إسرائيل عن طريق مذبحة الساتلايت » ـ (الاقمار الصناعية) وكان الضغط السياسي الدولي يزداد لايجاد حل ونهاية لمعاناة بيروت. ولذلك جرى استدعاء السفير الأمريكي فيليب حبيب مرة أخرى إلى المنطقة بغية انجاز معجزة أخرى. وتحت ضغط سياسي كبير استطاع حبيب وضع صيغة اتفاق يسمح بموجبه للمقاتلين الفلسطينيين بمغادرة بيروت، دون المساس بهم وكذلك القوات السورية الموجودة في المدينة. ورغم الاضرار التي لحقت بمنظمة التحرير الفلسطينية، إلا أن قوة منظمة التحرير الفلسطينية لم تدمر بشرياً في حين أنجزت إسرائيل ما اعتقدت بأنه الابعاد النهائي «للارهابيين» من لبنان. أما مسألة حماية عشرات الآلاف من المدنيين الفلسطينيين سكان بيروت فستتولاها القوات متعددة الجنسية (م ن ف) من قوات المارينز الأمريكية، وقوات المظليين الفرنسيين والمشاة الايطاليين. كانت الصفقة قاسية على عرفات، لكنها الحل الممكن، والوحيد لما تبقى من الوجود العسكري الكبير لمنظمة التحرير الفلسطينية. كان قرار اخلاء بيروت لقمة مرّة في حلق قادة منظمة التحرير الفلسطينية. فبعد ست سنوات من الوعود بقذف اليهود إلى البحر، وجد الفلسطينيون الآن انفسهم مجبرين على الخروج عن طريق البحر الابيض المتوسط.

ادعى الفلسطينيون بأنهم أجبروا على الانتشار، بسبب اخفاق حلفائهم بمساعدتهم. والحقيقة أن جميع المنظمات ومن ضمنها ـ القيادة العامة ـ لعبت دوراً مهماً في قرار الانسحاب.

ما بين 21 آب والأول من أيلول أخلي من بيروت 14938. مقاتل وقد غادرت معظم وحدات فتح وجبهة التحرير العربية والجبهة الديمقراطية وجبهة التحرير الفلسطينية عن طريق البحر متوجهة نحو منافي جديدة إلى معسكرات التدريب بالعراق، وجنوب، اليمن، والسودان، والأردن، وتونس، حيث ستقيم بطانة عرفات قواعدها السياسية، والعسكرية الجديدة.

وكانت القوات المتعددة الجنسية تقوم بحماية الخروج الفلسطيني، تحت أنظار القوات الإسرائيلية ومسؤولي مخابراتها المتشوقين لرؤية بعض اكبر «الإرهابيين» المطلوبين. كان مشهد الفلسطينيين الصاعدين إلى البواخر اليونانية الصدئة في رحلتهم المجهولة، وهم يبكون مروعا رغم أنهم اطلقوا (كنوع من الاحتفال بالنصر) عشرات آلالاف من العيارات النارية بالهواء. كما جرت حالة مماثلة على طول طريق بيروت ـ دمشق حين كانت قوات اللواء 85 السوري المتمركزة في بيروت تعود أيضاً إلى دمشق. فقد اصطفت القوات الإسرائيلية لمشاهدة عشرات الآلاف من القوات السورية، وجيش التحرير وقوات الصاعقة، وهي تركب عرباتها في رحلة بطيئة وقاسية. كان حوالي ألف من قوات ـ القيادة العامة ـ قد انسحبوا أيضاً إلى سوريا، ومعظمهم شق طريقه عن الطريق البري، بينما صعد بعض مئات إلى السفن في بيروت متجهين إلى المرفأ السوري في طرطوس. وكان أحد هؤلاء هو أحمد جبريل المتعطش للانتقام، والذي كان موجوداً في بيروت وما حولها اثناء الحصار الإسرائيلي. فقد جعلت هذه الحرب القيادة العامة أكثر تعطشاً لإراقة الدماء الإسرائيلية.

والحقيقة أن بيانات القيادة العامة كانت تتعهد منذ ما قبل حرب عام 1982 بأنها ستكون الطليعة في جميع العمليات المعادية للصهيونية.

فعملاء جبريل كانوا قد أمنوا امتلاك مناظير الرؤية الليلية، واجهزة الاتصالات

الحديثة مسبقاً من الغرب كما انهم بدؤوا بإجراء مفاوضات مع مصنعي الاسلحة في سويسرا، والبرازيل لتأمين قطع مدفعية ذات مدى أكبر من 40 كلم.

إلا أنه عندما اندفع الجيش الإسرائيلي باتجاه الطريق الساحلي نحو بيروت ومن ثم باتجاه البقاع لم تبد وحدات القيادة العامة سوى مقاومة غير فعالة. ففي حالات كثيرة كانت الوحدات تطلق نيرانها من بنادقها الروسية لمرات قليلة، ثم تهرب بأقصى ما لديها من سرعة. وكما قال احد ضباط المخابرات المنضم إلى قوات القطاع الساحلي. .» عندما كنا نضرب كان رجال ـ القيادة العامة ـ يختفون في قلب الريح.

كان اداء منظمة ـ القيادة العامة ـ التي تحمل فكرة نشر العنف الثوري مثيراً فمعضم ضباط فتح ـ والجبهة الشعبية ـ والجبهة الديمقراطية لم يستطيعوا استيعاب انسحاب منظمة تملك وفرة من العتاد، والاسلحة المتقدمة بمثل هذه البساطة. حتى أن وحدات ـ القيادة العامة ـ فشلت في حماية مخازن ذخيرتها الضخمة، التي أعدتها في الناعمة قرب الدامور. فجيش الدفاع الإسرائيلي وضع يده على كل قطعة من عتادها وضمن ذلك ـ بطاريات اطلاق صواريخ أرض / جو سام 9 ـ غاسكينز التي قدمها لهم الليبيون. ولم يزعج هذا الأمر جبريل وحده بل ازعج أيضاً ضابط الارتباط الليبي الكابتين حمدوني، الذي تولى مسؤولية الأسلحة الدفاعية الجوية في الناعمة، وعدداً آخر من الضباط الليبيين.

كان الجيش الإسرائيلي يتوقع ان يكون القتال ضد قاعدة ـ القيادة العامة ـ الرئيسية بلبنان عنيفاً وقد خصص لها قوة هامة من المظليين، ومن مشاة غولاني ومن وحدات مسلحة، ومدفعية وهندسة للقيام بتدميرها.

وكان ضباط المخابرات الإسرائيلية قد أبلغوا تلك القوة، وقوادها بتوقع حدوث قتال عنيف ومميت. وقدم للجنود الإسرائيليين صورة عن سجل جبريل خاصة عملية كريات شمونا. وكذلك معلومات عن التدريب العسكري الفريد لقواته. ورغم ان الجيش الإسرائيلي تكبد فعلاً خسائر خطيرة أثناء عملية سيطرته على الدامور في 10 حزيران إلا أن الدفاع «الستالينغرادي» الذي وعد به جبريل لم

يتحقق. أثناء تقدم القوات الإسرائيلية نحو الدامور، وبقية لبنان وقع بالاسر عدة مئات من المقاتلين الأساسيين في ـ القيادة العامة ـ وفي التحقيقات التي جرت معهم قاموا بتزويد المحققين بنظرة داخلية قيمة لتركيبةالجبهة الشعبية ـ القيادة العامة.

كما زود مقاتلون أسرى آخرون من القيادة العامة القوات الإسرائيلية بمعلومات مماثلة، وبمزيد من التفاصيل عن أعمال الجبهة، وعملياتها المقترحة، والمخططة وعن قوتها داخل الضفة الغربية، وقطاع غزة. وكان جميع من أسر في لبنان قد جرى احتجازه في معسكر أنصار قرب صور، الذي أصبح يضم حتى نهاية الحرب عشرة آلاف فلسطيني ولبناني من «الإرهابيين» المعروفين، والمشتبه بهم. كانت عملية ضرب ـ القيادة العامة ـ في الساحة اللبنانية قاسية، اذ جعلت جبريل «الإرهابي» العالمي الشهير الذي كان يعتز بنفسه، وبخبرته العسكرية قائداً ميدانياً بائساً. ومع انه كان عبر سنوات طويلة قائداً مخلصاً ومنفتحاً على رجاله يهتم دوماً بشؤونهم الاجتماعية، ويتأكد من جاهزيتهم للعمل، الا أنه لم يستطع جمعهم في القتال. كانت خيانة رجاله مسألة عويصة الفهم. لم ينتقد الإسرائيليون وحدهم قلة شجاعة القيادة العامة وتقصير رجالها أثناء الحرب، بل إنه يمكن اعتبار مساهمة القيادة العامة بقتال 1982 لا شيء يذكر، لو لم تلعب القيادة العامة دوراً حاسماً في واقعتين حاسمتين هامتين جداً شقتا طريقهما إلى النفسية الإسرائيلية بشكل صارخ.

ولا شك أن الكثير سوف يعتبر عناد جبريل بشأن التعامل مع الرهائن الإسرائيليين استراتيجية قاسية، هدفها استعادة سمعة ـ القيادة العامة ـ كمنظمة يحسب لها الحساب. وبالفعل فبعد حرب 1982 أصبح لديه الكثير مما يبرهن عليه لزملائه الفلسطينيين والسوريين، بل وحتى لمؤيديه الليبيين.

الفصل السادس

إسرائيل تصبح رهينة

الفصل السادس

إسرائيل تصبح رهينة

في 11 حزيران من عام 1982 تقدمت وحدات الدبابات الإسرائيلية إلى داخل سهل البقاع، الذي تسيطر عليه سوريا بهدف السيطرة على ملتقى طرق البوابة الموصلة إلى قرية السلطان يعقوب. في الايام الخمسة الأولى من القتال برهنت القوات المدرعة الإسرائيلية على أنها قوة لا تقهر أمام المقاومة الفلسطينية والسورية. كانت الحرب هناك امتحاناً عسيراً للدبابة الرئيسة في القتال من نوع ميركافا كدبابة من تصميم إسرائيلي وكعربة مدرعة بمواصفات ثورية تهتم أولوياتها بحماية طاقمها اكثر من اهتمامها بسرعتها وقوتها النارية. كما ادخلت عملية «سلامة الجليل» جهازاً مبتكراً إلى التطوير العسكري سميّ «المدرعة اللاهبة»، وهي عبارة عن علب مستطيلة الشكل، محشوة بمادة متفجرات، تتفجر عند الاصطدام بها، مما يجعلها تدمر القذيفة القادمة نحوها دون أن تسمح لها باختراق درع الدبابة. وقد وضعت هذه القطع «الدروع اللاهبة» حول العربات القتالية القديمة للجيش الإسرائيلي لزيادة حمايتها أثناء المعارك. وقد أثبتت «الدروع اللاهبة» على أنها إضافة عبقرية لدبابات السنتوريون والباتون. لكن هذه «الدروع اللاهبة» لم تستطع على اية حال ان تضمن حياة الدبابة في وضع كثرت فيه المعارك المضادة للدبابات. والسلطان يعقوب هو جحيم هذا الوضع القتالي.

تقرر لكتيبة دبابات الباتون الإسرائيلية المجهزة «بالدروع اللاهبة» بقيادة المقدم ايفروني مهمة اقامة محور دفاعي في سهل ضيق، تحيط به تلال كالابراج قرب قرية السلطان يعقوب للحراسة من أي هجوم مضاد، تقوم به الفرقة الثالثة المدرعة السورية. وكان معظم جنود ايفروني من الاحتياطيين الذين يقومون بالخدمة ضمن البرنامج النظامي، جنود يجمعون بين الخدمة العسكرية وحلقات الدراسة الدينية.

كان تقدم الجيش الإسرائيلي إلى سهل البقاع سريعاً جداً، بحيث لم تنجح أجهزة جمع المعلومات الحديثة الوصول إلى الوحدات المندفعة في وقت وصولها، كما لم تكن المعلومات الحديثة جداً عن الانتشار السوري متوفرة لدى مقدمة الدروع الإسرائيلية المتقدمة. ولا شك أن الفجوة في الاتصالات كانت مميتة. إذ أن كتيبةكاملة من الدبابات الإسرائيلية كانت تتوجه بشكل مستقيم نحو منطقة توضع الفرقة الثالثة المدرعة. وقد صعق السوريون على غرار نظرائهم الإسرائيليين من هذاالوضع. وعندما أدرك كل طرف مايجري بدأ القتال الدموي.

السلطان يعقوب ستدخل سجل التاريخ العسكري الإسرائيلي في ميدان القتال القريب من أجل البقاء سادت بها الشجاعة والارتباك بشكل فائق. حاولت الدبابات الإسرائيلية المنحصرة في الوديان والممرات المنحدرة في البدء صد السوريين بواسطة إطلاق صليات نارية من الدبابات المتحركة على منحدرات التلال المحيطة برشاشات من عيار 50 كاليبر، بدون توقف يصاحبها اطلاق دقيق لقذائف مدفعيتها 105 مم. إلا أنه عندما قامت قوة الدبابات السورية بكاملها والمؤلفة من دبابات تي 72 ـ ومن قوات كوماندو مسلحة بالآر بي جي وصواريخ الـ «ساغر» الموجهة، بالهجوم تحولت المعركة الى مذبحة كبيرة: وخلال ساعات معدودة تبعثرت عشرات الدبابات المدمرة، والمعطلة في الطريق الضيق. وبعد معركة ذلك اليوم التي تسببت بمقتل 20 جندياً إسرائيلياً كان من بين الدبابات التي اصيبت من النيران المضادة للدبابات دبابة (باتون م60) يقودها الكابتين زوهار ليفيشتس الذي قتل جراء وابل من النيران المضادة التي اصابت دبابته، بينما نجح سائقها بالهرب اثناء ماجرى من فوضى، اما ضابط الاتصالات فيها، وكذلك الملقم فقد أنقذا على ايدي قوات صديقة، وبقي مصير الرامي يهودا كاتس غامضاً

حتى يومنا هذا لأنه ما يزال مفقوداً. بعد ذلك اليوم عرض التلفزيون الأردني صور فيديو لفدائيين من منظمة الصاعقة وهم يستعرضون دبابة باتون م 60 إسرائيلية مجهزة «بالدرع اللاهب» فائق السرية في أزقة مخيم اليرموك الفلسطيني بدمشق. والأهم من ذلك هو أن الدبابة عرضت جنباً إلى جنب مع عدد من الاسرى الإسرائيليين أمام سكان المخيم المبتهجين والمهللين. وقد أحبط الموظفون الإسرائيليون الذين شاهدوا بعد ذلك شريط الفيديو في تل أبيب في تحديد وجوه الاسرى بشكل ايجابي بسبب زاوية التصوير البائسة لكاميرا الفيديو. وكانت هذه الصورة السوداء للافراد الإسرائيليين الذين أسروا في القتال، قد شوهدت في إسرائيل التي تستقبل التلفزيون الأردني بشكل واضح نسبياً. وكان صحفيوا جريدة لاستامبا الايطالية في العاصمة السورية قد ادعوا بأن أسرى الحرب الإسرائيليين (لم يحدد عددهم ابدا) قد احتجزوا على يد سرايا الدفاع، التي يقودها رفعت الاسد شقيق الرئيس حافظ الاسد. لكن المخابرات الإسرائيلية تمكنت من التأكد من ان هؤلاء الاسرى احتجزوا من قبل صلاح معاني قائد الصاعقة. ولم يستطع احد التأكد من حقيقة اولئك الرجال بالفعل او فيما إذا كان الرامي يهودا كاتس من بينهم. وفي نفس الوقت الذي اصيبت خلاله تقريباً دبابة القتال الرئيسة التي كان يقودها كابتين ليفشيتس، اصيبت دبابة أخرى من طراز م 60 بنيران معادية. وأحدثت القذيفة الخارقة للدروع التي اخترقت جسم الدبابة انفجاراً كبيراً وكتلة من اللهب. ونجح طاقمها بالهرب، لكنه لم يستطع تجنب المأساة.

فاريك ليبيرمان الرامي أسر على يد السوريين وتسفيكا فيلدمان الملقم ورئيس الاتصالات ويعقوب باوميل السائق لم يسمع أحد عنهم شيئاً منذ ذلك الوقت وما زالا في عداد المفقودين. أما ملحمة قائد هذه الدبابة فما تزال تستوحذ على اهتمام إسرائيل حتى الآن. . حازي شاي قائد طاقم الدبابة الاحتياطي كان آخر من ترك الدبابة بعد أن اصيبت، وأخذ يركض داخل التلال المحيطة، خشية ان تتقدم القوات السورية وتتمكن من أسره. وبالأساس كان هو وأريك ليبيرمان معاً يحاولان العودة إلى الخطوط الإسرائيلية، لكنه بسبب الاضطراب الذي ولده الدخان والانفجارات المستمرة فقد كل منهما أثر الآخر.

ويستذكر حازي شاي، كانت الظلمة شديدة السواد حين كان يزحف فوق اوراق الشجر، والحشائش محاولاً العودة إليالخطوط الإسرائيلية. وبعد أن نزل من منحدر احدى التلال توجه نحو ما اعتقد أنه صوت عجلات دبابة، إلا أن زحفه البطيء مالبث أن قوطع... إذ خرج صوت من الظلمة وسأله بالعربية: «من هناك»؟ ولأن والديه ولدا في بغداد، أجاب حازي بلغة عربية ثقيلة: «انني من القوات العراقية في المنطقة»، ومضت لحظة صمت من مكان خروج الصوت، ثم طلب من حازي التقدم. ثم خرج صوت آخر من الظلام من مكان يشبه خيمة صغيرة، وأمر الشخص المجهول «بالانتظار دقيقة». وبعد لحظات ظهر على الفور عدد من المسلحين بألبستهم المموهة (من الفوتيك)، وبأيديهم بنادق روسية وهم يدققون بحازي عن قرب. أدرك حازي الذي كان يرتدي ثيابه العسكرية غير القابلة للاشتعال من نوع (نوميكس) (اوفروهول)، وجزمته العسكرية الإسرائيلية بأن تنكره قد انتهى. قال بصوت ما زال فخوراً للمجموعة المسلحة التي أحاطت به بأنه «جندي إسرائيلي».. كان حازي شاي قد تعثر دون ان يعلم بموقع متقدم للجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ بالبقاع ويبدو ان المسلحين كانوا يهاجمون القوات الإسرائيلية المتقدمة هناك.

أدرك المسلحون الذين أسروا حازي شاي قيمته، فعاملوه بدرجات متعددة من السلوك المدني والرقة. وأبلغوه بأن لا يقلق، ولم يضربوه أو يشتموه حتى أنهم قدموا له فواكهه طازجة وماء. وفي الفجر عصبت عيناه وقيدت يداه وساقاه بحبل وشريط باحكام ثم أدخل إلى سيارة مدنية نقلته إلى قاعدة للقيادة العامة في لبنان. وهناك رفس عدة رفسات، واستجوب قليلاً، ثم نقل إلى شقة في مبنى سري للجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ قرب دمشق حيث أصبح ذلك المبنى المنزل الذي أقام فيه مدة ثلاث سنوات.

لم يبلغ جبريل الجيش الإسرائيلي عن أسر أحد الجنود، كما لم يبلغ الصليب الاحمر أيضاً. بل أنه أهمل في الحقيقة ذكره للسوريين لفترة ما. فجبريل طالب التاريخ يدرك القيمة الكبيرة للإسرائيليين الاحياء وثمنهم الضخم في السوق الحرّة. كما يدرك أن هناك عشرات الآلاف من الجنود الإسرائيليين يتجولون في انحاء

لبنان. فهم خائفون بعيدون عن الوطن، وفي أرض الشرور لا يحافظ على حياته سوى الأشد قسوة. ولم يكن هؤلاء قد تلقوا سوى القليل من التدريب في الجيش الإسرائيلي، الذي ارسلهم الى جحيم وجنون المشرق. وجه جبريل من مركزه الاساسي في بيروت الأوامر لقادة العمليات بالتفكير بخطة تجعل من القيادة العامة أكبر كيان يخشاه الجيش الإسرائيلي.

في 4 ايلول 1982 قامت مجموعة من عشرة مسلحين من قوات الاقتحام وتحت غطاء من الظلمة بمهاجمة موقع متقدم للجيش الإسرائيلي قرب بحمدون. كانت المجموعة قد تسللت عبر الخطوط الإسرائيلية واقتربت خلسة من هدفها دون إثارة أي انتباه. وبمعركة صغيرة لم تطلق النار خلالها تغلبت على مجموعة مجندين إسرائيليين وأسرتهم. وهكذا وقع بالاسر روبين كوهين ـ داني جلبوع ـ ايلي ابو تبول ـ آفي كورن فيلد ـ وآفي مينتا فيلسكي ـ ورافي خزان ـ ونسيم شاليم ـ ويوسف غروف. كان هؤلاء من المجندين الالزاميين الذين تنقصهم الخبرة القتالية وجميعهم أصغر من 20 عاماً. لقد أحسن جبريل اختيار هدفه. كان جميع الجنود المختطفين من قوة «الناحال» ـ (الشبيبة الطلائعية المحاربة) ـ وهي من لواء مشاة، ومزارعين ممن يقومون بالخدمة العسكرية على أساس الواجب القتالي، وحماية المستوطنات الزراعية الحدودية. حيث كان صفة الرجل المزارع المقاتل العامل بالارض، هي أحدى أهم أحلام الأب الإسرائيلي المؤسس دافيد بن غوريون. وكان شعار الناحال ـ السيف والمنجل، وهو ما يمثل حلم بن غور يون، للاشتراكيين المخلصين الذين كانوا يعملون بالارض ويدافعون عنها في آن واحد. كان الناحال يمثل الايقونة القومية القديمة التي يصعب تدميرها.

وعلى نحو غامض لم يحتفظ جبريل على اية حال بجميع اسراه. اذ جرى تسليم ستة لفتح ربما كان سبب ذلك استرداد الانسجام، وربما كنوعٍ من اعتذار القيادة العامة عما فعلته في الحرب اللبنانية. فتعقيدات الصفقة المعقودة بين عرفات (ومعه نائبه ابو اياد وابو جهاد) وأحمد جبريل ما تزال غامضة حتى يومنا هذا. إلا أن نتيجة هذا الاجراء لم تكن موضع تفكير كثير. فرجال عرفات الآن لديهم ستة جنود وجبريل يسيطر على جنديين معترف بهما وحازي شاي وربما

الجنود المفقودين الثلاثة من منطقة السلطان يعقوب. هكذا بدأت أكثر فترات الحرب الإسرائيلية المثيرة ضد «الإرهاب» فقد أصبحت دولة إسرائيل رهينة بأيدي جبريل.

أصابت الحرب في لبنان النفسية الإسرائيلية بضربة عنيفة، وأضرت بشعور إسرائيل بقوتها، وواجبها اكثر من أية فترة مضت في تاريخ الشعب اليهودي. فقد كلفت الحرب إسرائيل حتى نهاية عام 1982 ما يزيد على ثلاثمائة قتيل وألف جريح تقريباً. وقد أدى اغتيال الرئيس اللبناني المنتخب بشير الجميل رجل إسرائيل في لبنان في 14 ايلول الى تدمير أية فرصة لاتفاق سلام يوقع مع أي زعيم مسيحي في لبنان. وبعد أيام من مقتله، قام رجال الميليشيا الكتائبية بارتكاب مذابح صبرا وشاتيلا المخيفة ـ حيث قاموا بمجزرة كانوا خلالها قد ذبحوا ما يقرب من ثمانمائة مدني فلسطيني بغرب بيروت انتقاماً لمقتل بشير الجميل. ورغم أن المسيحيين دخلوا المخيمات على عاتقهم، ولغرض البحث عن مخابىء السلاح الفلسطيني، إلا أنه وبسبب أن الجيش الإسرائيلي، هو الذي سمح لهم بالدخول إلى المخيمات، فقد قام العالم بانتقاد إسرائيل لأعمال القتل هذه.

ظلت مسألة الجنود المفقودين تزيد من الخلاف، والنزاع المثير، الذي تميزت به عملية «سلامة الجليل». فالخلاف بشأنها لن ينتهي، مالم يحسب الحساب لكل قضية من قضايا الجنود المفقودين. خاصة وان احدى الروابط الاساسية بين الحكومة الإسرائيلية وجنودها، هو قيام الحكومة بأقصى ما لديها لتأمين اطلاق سراح أي اسير أو أسيرة تقع في أيدي العدو. ولأن الجيش الإسرائيلي يعرف بأن جثة الجندي الإسرائيلي القتيل مقدسة، فقد كان من بين معتقدات التي يتعلمها الجنود عدم ترك الميت والجريح في ميدان المعركة. كانت إسرائيل قد تعلمت هذا الدرس اثناء المعركة المريرة للسيطرة على اللطرون عام 1948 ولذلك مايزال حرصها ساري المفعول دينياً حتى يومنا هذا.

يعتبر خطف الرهائن من الظواهر الاساسية الموجودة في براري الشرق الاوسط، مثله مثل وجود ارزات لبنان، والمنحدرات الرائعة لتلال صحراء النقب.

فهو شكل من الاعمال التجارية القديمة قدم المنطقة نفسها، كما كان سلاحاً فعالاًيجري استخدامه في نزاعات المنطقة. ولم يكن جديداً على النزاع العربي ـ الإسرائيلي أيضاً بل أن الخطف والسيطرة على الرهائن كانا في الحقيقة العملة التي استخدمها جميع اللاعبين في المنطقة.

ففي اواخر الثلاثينات، والاربعينات كان رجال «العصابات» العربية كثيراً ما يعمدون إلى خطف المستوطنين الإسرائيليين، للمقايضة على اطلاق سراحهم. وأثناء الصراع ضد البريطانيين قام «الإرهابيون» اليهود من منظمة «أرغون» بخطف ثلاثة رجال رقباء من الجيش البريطاني وأعدموهم، عندما رفض البريطانيون طلباتهم باطلاق سراح السجناء اليهود. وفي سنوات العمل الفدائي الفلسطيني الأولى في الخمسينات كان رجال «العصابات» الفدائية يخطفون المستوطنين الإسرائيليين ويحتجزونهم إلى ان يقوم الجيش الإسرائيلي خاصة وحدة الكوماندو (101) بقيادة شارون بخطف بعض العرب وإجراء عملية تبادل. وفي عام 1954 وقع اربعة إسرائيليين من قوات المظليين الاستطلاعية، والمشاة حين كانوا يثبتون بطارية على جهاز تنصت تابع للمخابارت العسكرية (أمان) في مرتفعات الجولان في قبضة القوات السورية، فقامت قوات المظليين بعملية اطلق عليها اسم «اوراق الزيتون» في 11/ 12/ 1955 أغاروا فيها على التحصينات السورية في الجولان قتلوا ما يزيد على خمسين جندياً سوريا، وأخذوا ثلاثين آخرين اسرى. وبعد بضعة شهور جرى تبادل للاسرى.

وفي أشهر عملية قام بها الجيش الإسرائيلي بهدف تأمين اطلاق سراح الاسرى الإسرائيليين قامت مجموعة كوماندو من «قوات الاقتحام الخاصة بالاركان» (سايريت ماتكال) بالعبور إلى داخل لبنان لخطف خمسة جنرالات سوريين كانوا يتجولون في جنوب لبنان، بمهمة استطلاع وتعاون مع الفدائيين، واحتجزتهم إسرائيل إلى أن أعاد السوريون ثلاثة طيارين إسرائيليين وقعوا بالاسر خلال حرب الاستنزاف التي جرت منذ عام 1967 إلى عام 1970. وفي بعض الاحيان كانت الصفقات الإسرائيلية بهذا الشأن تجري على نحو غير متناسب، فالجيوش العربية كانت تدرك قيمة حياة الفرد في الجيش الإسرائيلي (بل حتى

الجثة)، ولذلك كانت تستثمر هذه الحساسية القومية، والدينية كسلاح فعال. فبعد حرب عام 1967 بادلت إسرائيل ما يزيد على خمسة آلاف جندي مصري (ومن بينهم جنرالات ومرشالات) بدزينة من الطيارين ورجال الكوماندو البحري الإسرائيليين ممن وقعوا في الاسر، وكذلك بعض جواسيس (أمان) (المخابرات العسكرية الإسرائيلية) (عملاء سوزانا الاسطوريين) والذين وقعوا بالاسر عام 1954 في القاهرة والاسكندرية لمحاولتهم استفزاز المشاعر المعادية لمصر، في واشنطن، ولندن عن طريق تفجير المصالح الغربية في مصر وتوجيه اللوم بعد ذلك للاخوان المسلمين على هذه الاعمال. وبعد حرب عام 1973 جرت صفقات غير متوازنةأيضاً بين الإسرائيليين، والسوريين، والمصريين.

كانت مسألة الجنود الإسرائيليين المفقودين تشكل تحدياً صعباً للجيش الإسرائيلي وفرع القوات البشرية المسؤول عنها . بعد انجاز الهدف التقليدي لعملية «سلامة الجليل» في اوكتوبر 1982 وصل عدد الجنود المفقودين والأسرى الى 17 جندي هم جنود دبابات السلطان يعقوب الخمسة، وثمانية من الجنود المشاة (الناحال)، وأهارون أخياز طيار السكاي هوك الذي أسقطت طائرته في جنوب لبنان وأسرته فتح، وسائق الشاحنة الاحتياطي الذي أسر عندما كان يتجول عن طريق الخطأ داخل الخطوط السورية. وطاقم طائرة الفانتوم (آ رف4) التي اسقطت في البقاع في 25 /7/ 1982 على يد صاروخ سام 8 السوفياتي الصنع (وقد احتجز الفلسطينيون والسوريون أيضاً جثث بعض الجنود الإسرائيليين، من بينهم جنود سقطوا اثناء اجتياح عملية الليطاني عام 1978).

في 21 آب 1982 اطلق سراح أخياز كجزء من الصفقة التي سمح بموجبها لمنظمة التحرير الفلسطينية بمغادرة بيروت بسلام، وسلمت في الوقت نفسه جثث الجنود الإسرائيليين الذين قتلوا في 1978 إلى الممثلين الإسرائيليين. كانت هذه رغم حجمها الصغير. هي البداية وكما قال قائد فرع القويالبشرية في الجيش الإسرائيلي الميجر جنرال موشيه نتيف: «ان عودة جنودنا هو هدف كبير، وأخلاقي لمصداقيتنا العسكرية وشخصيتنا القومية فمن أجل استعادة اولادنا، سنجند امكاناتنا القومية في هذه العملية. وهذا تطلب منا عملاً ضخماً.

وقعت مهمةايجاد الاسرى الإسرائيليين (والمفقودين)، واقامة الاتصالات مع الذين يحتجزونهم، والعمل على تأمين اطلاق سراحهم على قوة لا يعرف عنها الكثير، تخضع لقيادة فرع القوى البشرية هي «وحدة الجنود المفقودين». فإعادة الاولادإلى وطنهم لم تكن مهمة سهلة، إذ يتلزم سوى السوريين باعطاء معلومات عن الأسرى الأحياء الذين وقعوا بأيديهم، وسمحوا بالفعل لمندوبي الصليب الاحرم بزيارة ثلاثة أسرى كانوا يحتجزونهم هم: جيل فوغيل ـ ويوحانان آلون ـ وآرييل ليبيرمان.

وفي بعض الاحيان كانت فتح تقدم بعض المعلومات الناقصة مثل الالغاز عن المفقودين الذين تحتجزهم رغم أنها لم تفعل ذلك إلا بعد أن قامت إسرائيل ببادرة حسن نية تمثلت بإطلاق سراح عدد محدود من السجناء الفلسطينيين.

أما «القيادة العامة» فلم تعترف حتى بأسماء من تحتجزهم، أو ماذا تريد مقابلهم. ولذلك اضطرت إسرائيل إلى البحث بدقة في سجلات المخابرات والمسودات والشين بيت وأمان عن أي جزء من معلومة، تدل على أسماء الذين يحتجزهم جبريل. وتم استجواب «الإرهابيين» الاسرى بدون توقف، وطلب من مكاتب الارتباط الأجنبية بأن تقدم أية مساعدة يمكنها تقديمها. وكما قال الليفتنانت كولونيل كرامي القائد السابق لوحدة البحث عن المفقودين: «كانت هناك بعض الألغاز التي يتوجب فهمها من خمسمائة قطعة معلومات، وبعض آخر من آلاف القطع. وفي بعض الاحيان كان المرء يغرق في المعلومات التي يحصل عليها وفي احيان أخرى لا يجد امامه شيئاً».

وكان يجري احياناً إدخال آباء وزوجات الجنود المفقودين إلى هذه المفاوضات الدولية الحساسة خاصة لأن الزوجات لهم قوة عاطفية في إقناع بعض الوكالات الحكومية لتقديم العون، والمساعدة في مثل هذه المهام.

كانت أهم قناة اتصالات وأمل تمر عبر العاصمة النمساوية ـ فيينا ـ من خلال مساعدة رئيس الوزراء النمساوي برونو كرايسكي، وهو نفسه يهودي وإن كان يميل كثيراً نحو منظمة التحرير الفلسطينية. وكذلك السفير هربرت ايمري السفير

النمساوي في اثينا. كان للنمساويين قيمة هامة في هذه العملية. فقد استخدموا اتصالاتهم الدبلوماسية لتنمية الثقة والأمل عند السوريين وعند ـ القيادة العامة. ونظراً لأن السوريين وفتح كانوا يجرون اتصالاتهم علانية بالنمساويين ـ ومن ثم بالإسرائيليين ـ بشأن قضية الاسرى، فقد أوليت قنوات اتصالاتهم، إهتماماً كبيراً أغضب جبريل وأجبره على إثبات أو نفي احتجازه لأي أسير حرب. فقد شعر بأن تجاهل إسرائيل له يدل على عدم تقدير لخطورته. كانت إسرائيل تشك دوماً باحتجاز جبريل لأفراد من الجيش الإسرائيلي، وكانت تخرجه من حسابها لكي تسمح له القيام بالخطوة الأوليبغية تحسين موقعهافي المساومة. ففي مقابلة مع صحيفة أردنية طرح طبريل سؤالا خطابياً محيراً وجهه لضباط المخابرات الإسرائيلية لمعرفته بأنهم سيقرؤون المقال ـ سأل جبريل: «لماذا لا يتوجه الإسرائيليون إلينا فربمايكون لدينا أسيران او ثلاثة». في تلك المقابلة تحدث جبريل عن جندي إسرائيلي استخدم له إسماً افتراضياً بدا مشابهاً لاسم حازي شاي، لكن أحد في تل أبيب لم يعط أية جدية لهذه المقابلة، التي كانت بمثابة الاتصال الأولي الهام رغم طبيعته غير المباشرة. كانت إسرائيل تواجه معضلة مربكة، لأن مجموعات منفصلة كانت تحتجز رجالها، ولذلك تطلب الأمر اجراء ثلاث صفقات منفصلة. ومع ذلك كان لإسرائيل على أية حال ورقة رابحة واحدة. فمنذ الايام الأولى لغزو لبنان مر على سجن انصار ما يقرب من عشرة آلاف فدائي، او مشتبه به حيث كان الجيش الإسرائيلي قد اعتقل نصف هذا العدد، والنصف الآخر اعتقلته قوات حرس الحدود التي استدعيت للعمل بلبنان للبحث عن «الإرهابيين» المطلوبين واعتقالهم.

وكان من الواضح ان يتعرض الفلسطينيون إلى ضغوط داخلية للعمل على استعادة رفاقهم السجناء، وهذا ما جعل إسرائيل. تشعر بأن لديها اوراق مساومة كبيرة. لكن الوقت لم يكن يعمل لصالح إسرائيل، فقد وقع في 10 ايار 1983 تمرد داخل منظمة التحرر الفلسطينية، وأعلن العقيد محمد سعيد موسى مراغه المعروف باسم ابو موسى تمرداً مؤيداً لسوريا داخل فتح، فاندلع قتال داخلي بين صفوف لواءا ليرموك في البقاع، وانتشر إلى الشمال نحو طرابلس التي كان عرفات

قد اقام فيها قاعدة أخرى. وهكذا وقع قتال أهلي بين مؤيدي عرفات والمتمردين بقيادة أبو موسى وأشارت تقارير المخابرات العسكرية الإسرائيلية (أمان) إلى أن فتح التي تحتجز الاسرى الإسرائيليين الستة في طرابلس أصبحت محاصرة.

كان المسؤول عن تنسيق الجهود الإسرائيلية لاستعادة الجنود هو المحامي أَرييه ميرينسكي ضابط سابق في منظمة «ارغون»، والذي عينه وزير الدفاع موشيه ارينز كمستشار لوزير الدفاع للمهام الخاصة. كان ميرينسكي رجلاً لا يعرف التبجح بأقواله او أعماله. كان صلباً ذا طاقة لا يضارعها سوى إخلاصه ووطنيته. وكما يقول أحد اصدقائه: «كان لا يهتم بالتفاهات، ويعرف كيف يلقى بالضغوط على خصمه . فخلال خبرته في حل عقدة الجنود المفقودين كان شعاره يلخص فكرته في أصعب مهمة اختيارية عاطفية». فقد قال آنذاك: «يجب شن حملة حرب نفسية ضد منظمة التحرير الفلسطينية، لأن خمسة آلاف ام «للارهابيين» لا بد وأن تمثل قوة هائلة فالأم العربية ليست مسألة يسيرة..».

كان الهدف الأول امام ميرينسكي، معرفة مصير الجنديين اللذين لم يقعا بأسر فتح، نيسيم شاليم ويوسف غروف، لأن اسم حازي شاي كان قد ظهر في الصحافة الأردنية، رغم عدم التأكد من ظروفه بدقة. وبغية الحصول على المعلومات الضرورية تقدم ميرنيسكي بتهديد مقنع، وبأشد لهجة مؤثرة ورهيبة نقله إلى عرفات وجبريل عن طريق مندوبي الصليب الاحمر الدولي.

إذ أعلن ميرينسكي «أن مصير خمسة آلاف فلسطيني معتقل بالكاد يساوي مصير الثمانية الجنود الإسرائيليين الاسرى».

وكرر ميرينسكي فيما بعد، بأن «الخمسة آلاف معتقل فلسطيني يمكن ان يصبحوا خمسة آلاف جثة». وهدد بإمكانية ادخال جنود الميجر سعد حداد «قائد جيش لبنان الحر» المتعصب والمتعطش فعلاً لدماء الفلسطينيين الى معسكر انصار. وبغية التحقق من وجود شاليم وغروف أحياء، أعد الإسرائيليون قائمة اسئلة طلبوا فيها منهما املاءها. كانت هذه بمثابة استجواب داخلي، ساهم بوضع اسئلة افراد عائلتهما.. فإذا ما كانت الإجابة صحيحة، وقدم جبريل دليلاً على أنه

يحتجز جثتيهما فسيرى ميرينسكي امكانية اطلاق سراح 40 معتقل من القيادة العامة، وإذا ما فشل جبريل في هذا الامتحان، فسيعزل المعتقلون ويجري التعامل، معهم بطريقة اخرى.

وبغية زيادة فرص الحصول على أية كلمة من شاليم وغروف وشاي، توجه ميرينسكي، وفريقه إلى قناة وحيدة هي العقيد صلاح التعمري من التابعين القريبين لياسر عرفات، وضابط كبير لفتح في سجن انصار، حيث كان التعمري يتلقى امتيازات خاصة، من ضمنها زيارات متعددة مع زوجته إلى فنادق خمسة نجوم في تل أبيب. ومما زاد في المكيدة انه كان متزوجاً السيدة دينا عبد الحميد الزوجة الأولى لملك الأردن حسين، وهي إمرأة رقيقة كان يخاطبها الإسرائيليون باسم الاميرة دينا. في صيف عام 1983 قام ميرينسكي مع رئيس فرع القوى البشرية الميجر جنرال ناتيف، والميجر جنرال مئير زوريع مراقب نفقات الجيش الإسرائيلي بزيارة إلى انصار للتحدث مع صلاح التعمري . حيث أبلغ ميرينسكي التعمري بأن إسرائيل مهتمة بعملية تبادل واحدة تضم جميع الاسرى والمفقودين الإسرائيليين.

وكان على ضابط فتح ان يختار فرداً من المحتجزين في انصار يوثق به لنقل الرسالة إلى عرفات وجبريل، على اساس أن إسرائيل تريد القيام بصفقة. كان المسؤولون الإسرائيليون يدركون دوماً بأن مفتاح أي عملية تبادل اسرى، هو سجن انصار رغم ان من مصلحة الامن الوطني الإسرائيلي الاحتفاظ بآلاف السجناء داخل السجن أطول مدة ممكنة. لكن انصار كان كابوساً ادارياً . فقد كان انصار يسمى «الاكاديمية الدولية للارهاب» لأنه كان يضم رجالاً دربهم اختصاصيو مخابرات الكتلة الشرقية.

ورغم وعود التعمري والأميرة دينا إلا أنهما فشلا في إعطاء أية ثمرة، فلم تصل أية إشارة تدل على وجود سالم وغروف. كما لم يعترف جبريل بوجود حازي شاي في معتقله. ولذلك قرر الإسرائيليون رفع الوتيرة النفسية إلى مستوى أعلى. فقد طلب من «شاباز» (أي ادارة السجون الإسرائيلية) بأن تقوم بنشر

شائعات داخل مختلف السجون الإسرائيلية التي تضم أخطر «الفدائيين» والمحكومين بالسجن مدى الحياة بأن «تبادلاً للأسرى كان قد أصبح وشيك الحدوث، لو لم يؤخره عناد جبريل» وقد أريد لهذا التكتيك، أن يزيد من ضغط عائلات السجناء ليضغطوا بدورهم على جبريل في دمشق.

وفي السجون الإسرائيلية التي تضم أخطر السجناء، كانت ادارة السجون قد بدأت بفرز الأفراد في الزنازين، حسب الميول التنظيمية، بحجة الحفاظ على الأمن بين السجناء، لأن اعضاء الفصائل المتحاربة، لا ينبغي ان يكونوا معاً في نفس غرف السجن.

لا أحد مثل حافظ دلقموني كان على دراية بالاساليب المعقدة للقوة التفاوضية داخل النزلاء الفدائيين في سجون إسرائيل. كان حافظ قد قضى عشر سنوات، كان خلالها «شاويش» (ممثل كبير) لسجن عسقلان جنوب إسرائيل، وضابط ارتباط بين السجناء والسلطات.

كان دلقموني يدرك ان هدف تحرير السجناء مهمة مثيرة، ستحرر الكثير من سجناء القيادة العامة. ولذلك فإن أي اخفاق في مهمة التبادل (خاصة إذا ما وقع اللوم في ذلك على جبريل) لا بد وأن يشعل تمرداً بين المخلصين، وربما يضعف وربما بشكل دائم شبكة المنظمة داخل إسرائيل. وقد استدعي الشين بيت (الامن الداخلي) أيضاً للعمل بهذا الحقل، وتلقى أوامر بزيادة الضغط في الضفة الغربية، وغزة خاصة في المناطق التي تتمتع بها القيادة العامة بسيطرة هامة. فالضغط سوف يرتد على جبريل من خلال عملائه في المناطق المحتلة. وعندما فشل التعمري بتقديم أدنى تفاؤل للإسرائيليين، قام ميرنيسكي والجيش الإسرائيلي بلعب ورقة جيش حداد للمرة الاخيرة.

فبعد أن استدعي ضابط فتح إلى تل أبيب، للاجتماع الاخير به، بدأ الجيش الإسرائيلي بفصل عناصر جبريل في «أنصار» عن بقية السجناء، ونقلهم إليمكان بعيد عن المخيم. وبعد ساعات أخذت العربات العسكرية التي تحمل رجال ميليشيا حداد تظهر عبر الاسلاك الشائكة لكي يراها الجميع. وبدأ رجال الميليشيا

المسلحون يوجهون الشتائم للفلسطينيين، ومن ثم يصطفون وقد صوبوا رشاشاتهم عبر الحاجز باتجاه الفلسطينيين. كان الهدف من احضار رجال حداد هو احداث ضغط نفسي، كان الفلسطينيون يعرفون أن وحدات الجيش الإسرائيلي لن ترتكب مجزرة، لكن جيش حداد المعروف بذبحه للسجناء بدم بارد سوف يفعل ذلك بالتأكيد. واعتقد الكثير من الفلسطينيين انهم سيقتلون بل ان بعضهم كتب رسائله الاخيرة لاسرته* . كان صلاح التعمري يعتقد بأنه أُحضر إلى فندق بتل أبيب لزيارة زوجته، لذلك بقي هادئاً خلال رحلته من لبنان. إلا أن العربة التي أقلته اتجهت نحو منشأة عسكرية تحيط بها الحراسة المشددة بدلاً من ان تتجه إلى شاطىء البحر. وفي هذه المرة لم يكن ميرنيسكي، غير ودي نحو التعمري بل وغير مهذب. قيل للتعمري «بأن مذبحة ستبدو مذبحة صبرا وشاتيلا ازاءها حفلة شواء على الشاطىء يمكن أن تبدأ الآن في انصار». وقيل له بأنه «إذا قام بأية ازدواجية أخرى فسيجد نفسه بين القتلى».

وبعد أن بين ميرينسكي بأنه كان إرهابيا، قبل ان يرضع التعمري حليب أمه، قال ميرينسكي بلهجة حادة وثابتة: «لن تعود إلى انصار، لأن انصار سوف يصبح بعد قليل مقبرة . . لقد أخفقت في وفائك بالوعد، بالمساعدة والآن عليك ان تدفع الثمن»* .

وأخيراً نجح هذا التكتيك. فبعد أسابيع قليلة عادت الاميرة دينا إلى تل أبيب اثر نجاحها في زيارة شاليم وغروف في مخبأ جبريل بدمشق، وأكدت على أنهما أحياء. وبعد أسابيع أخرى قام الدكتور هربرت آمري بالسفر إلى دمشق أيضاً، حيث قام بتصوير شريط فيديو للأسرى الإسرائيليين، علماً أن جبريل لم يوافق على هذه الزيارة، الا بعد ان ساعده النمساويون في الحصول على قائمة تضم 112 من سجناء القيادة العامة الذين كانت إسرائيل تحتجزهم.

---

* يحاول الكاتب هنا أن يصور «إسرائيل» وجيشها كسلطة تحترم الانسان حتى لو كان أسيراً ولا تقتله . . . وهذا ما لا يتوافق ابداً مع سجل قتل الجيش الإسرائيلي ليس للسجناء فحسب وإنما للمطلوبين من الفدائيين في الضفة الغربية وقطاع غزة حيث كان يصفيهم وهم جرحى.

* يعترف الكاتب بأن وسيط التبادل هو رجل «ارهابي» ـ وذو سجل حافل ب«الإرهاب». .

وفي الوقت الذي كان فيه المسؤولون الإسرائيليون يشاهدون شريط شاليم وغروف كان ضباط المخابرات السورية يضربون حازي شاي اثناء الاستجواب اليومي له، فسلامته لم تضمن بعد لعدم معرفة إسرائيل بمكان وجوده، وكان على جبريل ان يثبت فيما بعد بأنه كان محتجزاً لدى القيادة العامة.

كان لجبريل طلبات ينبغي تلبيتها قبل الاتفاق على صفقته مع إسرائيل. فبغية استمرار المفاوضات أمر (لوفا الياف) الوسيط الحكومي بشأن الاسرى المفقودين اصطحاب عائلتي شاليم وغروف إلى فينا، لكي يظهروا على شريط فيديو وهم يشاهدون ما يعرضه شريط الفيديو الذي ضم ابنيهما*.

وقد اعتبر ميرنيسكي هذا الطلب الغريب، بمثابة الشعرة التي قصمت ظهر الجمل، فهو يرفض السماح «للارهابي» بأن يملي شروطه، خاصة عندما يتعلق الأمر بتدمير عائلات الجنود المفقودين.

أحبط هدف ميرنيسكي الساعي لاجراء صفقة واحدة مشتركة لتأمين اطلاق سراح الجنود المفقودين على جبهتين عندما تسبب تدهور صحته باستقالته من الطاقم الحكومي للمفاوضات، وعندما أجرت فتح صفقة منفردة مع إسرائيل.

ففي ليلة 23/ 11/ 1983 أفرجت إسرائيل عن 4500 سجين فلسطيني ممن اعتقل في لبنان، من انصار ومئة سجين آخر كانوا من المسجونين في إسرائيل، مقابل ستة جنود من ناحال كان يحتجزهم عرفات. ونقل الفلسطينيون إلى تونس، بينما نقل الإسرائيليون بواسطة سلاح البحرية الفرنسي الى قارب صواريخ إسرائيلي كان ينتظرهم في المياه اللبنانية لإعادتهم عبر البحر إلى إسرائيل. ورغم ان هذه العملية أثارت خلافاً في إسرائيل، إلا أنها لم تفجر غضباً إسرائيلياً كبيراً. إذ كان الكثير من سجناء انصار مجرد مشبوهين، وكذلك المئة سجين فلسطيني من المحكومين

---

* كان جبريل يدرك أن الإسرائيليين يخفون الكثير من الحقائق عن اهالي الاسرى الإسرائيليين ولذلك كان طلبه هذابهدف إجبار السلطات الصهيونية على ابلاغ أهالي الجنود الاسرى بما يجري... ولكي يستخدم الاهالي انفسهم كضاغط في اجبار العدو على الانصياع لمطالب الجبهة.

في إسرائيل. وعملية كهذه مقابل ستة جنود أسرى لم تكن غير متوازنة كما اعتقد الكثير من الناس.

كان التعامل مع جبريل يجري على نحو بطيء . . فهو لم يعترف بوجود حازي شاي أسيراً عنده إلا في صيف عام 1984. وعندما وجهت عليه ضغوط للحصول منه على معلومات عن الجنود المفقودين كاتس ـ وفيلدمان وباوميل بقي جبريل غامضاً، كما أنه ألمح إلى نضوج الوقت لمزيد من العمليات داخل إسرائيل. في آب 1983 قام عملاء (الشين بيت) الذين يعملون مع المخابرات الإسرائيلية باعتقال عدد من اللبنانيين والدروز الإسرائيليين، وكذلك سيارة مليئة بمئات الكيلو غرامات من المتفجرات، حين جرت محاولة تهريبها عبر الحدود اللبنانية في رأس الناقورة على ساحل البحر المتوسط. كان جبريل قد أمر هذه المجموعة بتفجير برج شالوم في تل أبيب. وهو أعلى بناء في المدينة، لتنفيذ مذبحة من طراز كريات شمونا في مركز المدينة. ولكن سجن هذه المجموعة لم يتم لفترة طويلة. ومنذ بداية المفاوضات مع جبريل، حسب الجدول المعد لها قامت إسرائيل بسحب قواتها من لبنان (باستثناء عشرة كيلو مترات كمنطقة عمق أمني عن الحدود الإسرائيلية) حتى نهاية عام 1985. وبغية تخليص الشعب الإسرائيلي من أزمة لبنان، والضرر السياسي الذي خلفته الحرب في لبنان، تعين إنهاء هذا النزاع بلبنان واستعادة الجنود الاسرى إلى الوطن، رغم أن ستمائة جندي قد قتل في التورط الإسرائيلي بلبنان. وبتوجيهات من شمعون بيريس الذي جرى انتخابه ضمن حكومة الوحدة الوطنية في 13/ 9/ 1984 رئيساً للوزراء بدأ رابين وزير الدفاع (رئيس اركان الجيش في حرب 1967 ورئيس وزراء سابق ورئيس الوزراء الحالي عند طباعة هذا الكتاب) بإجراء مفاوضات حساسة لاستعادة الجنود الثلاثة إلى الوطن.

في 14/ 12/ 1984 بدأ الرقص الحذر، والحساس مع جبريل الذي كان في مركزه الآمن في دمشق، يثير المخاوف طوال الأشهر الستة التي تلت ذلك التاريخ.

واستناداً إلى بعض التقارير الأجنبية كانت قيادة الاركان الإسرائيلية قد درست امكانية القيام برد عسكري على موقع جبريل على غرار هجوم عملية كوماندو عنتيبه ضد المنزل الذي كان الاسرى الإسرائيليون الثلاثة محجوزين فيه.

ومع أن تفاصيل خطط هذه العملية الإسرائيلية بقيت سرية جداً، إلا أن البعض ما زال يعرف أن ردا عسكرياً على تصلب جبريل قد جرى فعلاً رغم انه طمس. ففي أواخر عام 1983 تسلل الكوماندو الإسرائيلي (استناداً الى تقارير اجنبية) من قوات الاقتحام في هيئة الاركان (سايريت ماتكال) إلى أعماق بيروت وخطف مراد بشناق المعروف باسمه الحركي ابو علي وهو ضابط كبيرفي القيادة العامة وابن شقيقة أحمد جبريل.

اعتقد لوفا الياف الرجل الذي اصبح يتولى مسألة مصير شاليم وغروف وشاي بأن خطف ابو علي سوف يضمن فعلياً الافراج السريع عن الإسرائيليين. لكن ذلك لم يحدث. فمع ان مكتب آمري والياف قدم عرضاً بتبديل ابن اخت جبريل مقابل الإسرائيليين الثلاثة. إلا أن جبريل رفض حتى الرد على هذاالعرض. واعتبر ذلك إهانة له لأنه لا يمكن أن يجبر على قبول أي شيء يعرضه الإسرائيليون.

كان أحمد جبريل يدرك جيداً بأنه يحتجز اكثر من ثلاثة احياء، فهو يحتجز الآن شعباً من أربعة ملايين كرهائن. وطالما يسره ذلك فهو يمكنه الاحتفاظ برهائنه لسنوات طويلة، وبامكانه تعذيبهم أو إعادتهم زاحفين عاجزين... وتقول بعض التقارير ان جبريل الذي كان موجوداً حين رفض حازي شاي الاجابة على اسئلة المحققين الذين قاموا باستجوابه قال لهم: «انه مايزال مفقوداً ويمكن ان يحدث له أي شيء».

كان الياف ودلقموني يجريان عبر الوسطاء النمساويين مفاوضات حادة وساخنة احياناً، قام الياف خلالها بما يزيد على ثلاثين رحلة إلى اوروبا ومواقع اقليمية اخرى. وبعد ذلك انضم إليالعملية شموئيل تامير الرئيس الرسمي للجهود الإسرائيلية والقائد الجديد لقسم القوى البشرية في الجيش الإسرائيلي الميجر جنرال عاموسى يارون. كان يارون الضابط السابق في «قوات سايريت متكال»

«الوحدات الخاصة» والقائد لسلاح المظليين والمشاة اثناء حرب «سلامة الجليل» رجل العمل الحاسم والجرأة الواعية.

كان الإسرائيليون يدركون انهم سيجبرون على اطلاق سراح عدد كبر من الفلسطينيين، بغية تأمين سلامة وعودة شاليم وغروف وشاي. ولم يتوقعوا حتى تلك اللحظة المطالب المهينة التي سيطلبها جبريل. وعند وصول القائمة عن طريق النمساويين، أخذ رجال المخابرات والشرطة العسكرية ومسؤولو الامن السري يجدون انفسهم وكأنهم ينظرون إلى سيف مسلط على رقابهم. فحتى هؤلاء الرجال الذين تمرسوا على القتال، والصفقات السرية فوجئوا كثيراً بجرأة ما طلبه جبريل. فمقابل اعادة الإسرائيليين الثلاثة بسلام طلب جبريل من إسرائيل اطلاق سراح 1150 سجين فلسطيني من بينهم 400 فدائي سجين يقضون أحكاماً لمدى الحياة على أعنف وأرهب العلميات المسلحة التي شنت ضد دولة إسرائيل. ولو كانت عقوبة الاعدام في إسرائيل موجودة، لكان من المؤكد ان يواجه هؤلاء المشنقة منذ مدة طويلة. تضمنت قائمة جبريل اسماء المسؤولين عن عملية السيارة المفخخة في سوق محانيه يهودا في القدس في 22/ 11/ 1968 والتي قتل فيها 12 إسرائيلي، والفتاتين اللتين بقيتا على قيد الحياة بعد عملية خطف طائرة سابينا 707 إلى مطار اللد في 9/ 5/ 1972، والرجل الذي بقي على قيد الحياة بعد عملية الهجوم على فندق سافوي بتل أبيب في 5/ 3/ 1975 والتي قتل فيها ثمانية من الإسرائيليين، والأحياء الثلاثة من عملية مذبحة «نادي الريف» (دلال مغربي) في 11/ 3/ 1978، وأحد عناصر القوة البحرية لجبهة التحرير الفلسطينية المسؤول عن قتل عائلة حاران في نهاريا في 4/ 4/ 1979 .

ولعل أعنف رجل في القائمة لم يكن فلسطينياً. ففي جرأة كان القصد منها تمريغ أنف إسرائيل بالوحل طلب احمد جبريل إطلاق سراح اوكاموتو عضو الجيش الأحمر الياباني المسؤول عن مذبحة مطار اللد في 30/ 6/ 1972 . كان اوكاموتو احد الناجين في تلك العلمية وكان ينتمي لجبهة جورج حبش والمسؤول عن قتل 29 إسرائيلياً منهم 27 حاجا من بروتوريكو، في احدى أشرس الهجمات داخل إسرائيل. فكوزو الذي اصبح مريضاً عقلياً داخل المعتقل الإسرائيلي كان

يتمتع بقيمة شعبية لا تنكر كبطل عائد من فلسطين، وكثوري أممي، وكان كوزو يشكل احراجاً كبيراً. وقد ادرك جبريل ان اطلاق سراحه سيشكل ضربة مؤلمة جداً للإسرائيليين*.

وأخيراً وافق رئيس الوزراء بيريس ووزير الدفاع رابين على طلبات جبريل ليصبح قرارهما هذا اكثر القرارات الإسرائيلية إثارة للجدل في تاريخ الحكومة الإسرائيلية. اذ عارض الكثير في سلطة الحكم، ومن ضمنهم شموئيل تامير المطالب غير القابلة للمناقشة التي تقدم بها جبريل.

لقد كان الثمن بعبارة بسيطة باهظاً جداً، لكن الزمن كان لا يعمل في صالح إسرائيل. فالبلاد كانت قد أعدت جدول اتمام انسحابها المرحلي من لبنان حتى حزيران 1985، والجيش لا يستطيع مغادرة الأراضي اللبنانية الا بعودة جنوده الأسرى سالمين.. وكانت هناك عوامل ضغط أخرى. فبعد الجلسة العاصفة للمجلس الوطني الفلسطيني المنعقدة في نومفبر 1984 بعمان قامت ـ القيادة العامة ـ والجبهة الشعبية ـ والصاعقة ـ وجبهة النضال ومتمردو فتح ابو موسى وجناح طلعت يعقوب في جبهة التحرير الفلسطينية بتشكيل جبهة الإنقاذ الفلسطينية ككتلة عسكرية وسياسية تدعمها كل من ليبيا، وسوريا للقيام بعمل عسكري ضد عرفات. وهنا خشي العديد من مسؤولي المخابرات الإسرائيلية من أن إنشاء جبهة الانقاذ في 25/ 3/ 1985 يمكن ان يؤدي إلى اشتعال جولة جديدة من القتال الداخلي، الأمر الذي قد يؤخر اية صفقة تبادل ممكنة. كما سادت مخاوف من ان يقوم فصيل مناوىء لجبهة الانقاذ بمحاولة خطف أو قتل الجنود الإسرائيليين كوسيلة لإضعاف جبريل والإساءة إليه...

---

* حينما طلب جبريل كوزوا وكاموتو وقبل 24 ساعة من موعد التبادل ارسلت إسرائيل رسالة عاجلة للوسيط النمساوي تقول له فيها أن يعرض على الجبهة اطلاق سراح مئة اسير آخرين شريطة عدم طلب اطلاق سراح المناضل الأممي الياباني اوكاموتو.
ولكن جبريل وكما نذكر ذلك جيداً أبلغ الوسيط النمساوي بأن الجبهة تصر على طلب اوكاموتو الياباني لأنه جاء من أقاصي الأرض لنصرة شعب فلسطين ولعل المئة أسير التي تريد إسرائيل اطلاقهم بدلاً منه يدركون جيداً انهم سيتحملون الأسر لأنها قضيتهم وسيفضلون تحرير هذا المناضل الياباني بدلاً منهم..

ولذلك كانت إسرائيل ترى أن الوقت قد حان الآن مهما كان الثمن. وأدرك جبريل والدلقموني بان الإسرائيليين يائسون، ولذلك أعدا تفاصيل الصفقة على نحوٍ شديد القسوة.

فقد كان الناطقون باسم القيادة العامة غالباً ما يسربون عبر اذاعة القدس ـ التي يديرونها ـ تواريخ مزيفة لبدء عملية التبادل، متلاعبين بعواطف عائلات الرهائن. كما أصرّ جبريل على أن تؤخذ أمهات الاسرى الإسرائيليين إلى يازور، مسقط رأسه لتلتقط لهن صور أمام كوخ، على منحدر ادّعى أنه كان بيته حين غادر عام 1947.

ولو كانت الظروف عادية لما وافق الإسرائيليون ابداً، على هذا المطلب الفظيع. فلم يكن ثمة وقت للاهتمام بشجاعة الحفاظ على ماء الوجه، فالعائلات القلقة على أولادها يمكن، ان تفعل أي شيء. ولذلك وافقت بسرور على تلبية هذا الطلب. وقدمت الصور بالابيض والاسود لجبريل في دمشق.. وكان استلامها دليلاً على انتصاره. وكما قال احد ضباط الأمن الإسرائيليين: «نجح جبريل في النهاية بلعبة الترويض».

وفي كتاب «سقوط البانام 13»: ـ «داخل التحقيقات بشأن لوكربي» الذي ألفه كل من ستيفن ايميرسون وبرايان دافي يزعم المؤلفان «بأن الدلقموني أصرّ على ان يسلم الإسرائيليون كل سجين سيطلق سراحه رسالة تقول: «الأخوة والرفاق المناضلين الأعزاء يتقدم اعضاء الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ـ القيادة العامة ـ وكوادرها وقيادتها بتحياتهم الثورية لكل مناضل «باسمه» ويثمنون عالياً نضالكم ويُقدرون بإعجاب صمودكم الطويل، ومعاناتكم، وآلامكم، داخل السجون ويودون ان ينقلوا اليكم الأنباء عن تحريركم الوشيك».

كانت هذه الرسالة إهانة للإسرائيليين، وكما قال أحد ضباط الشرطة العسكرية: «إن رجالنا يتعفنون في جحيم «الإرهابيين» بينما جبريل يسلمنا دعوات العرس».

لقد تسببت طلبات جبريل هذه، بليال دون نوم وبضغوط كبيرة، على رجال

قسم القوى البشرية وقوات الشرطة العسكرية الإسرائيلية وإدارة السجون. كان «الإرهابيون» المطلوب اطلاق سراحهم محتجزين في اربعة سجون منفصلة ـ (نابلس ـ عسقلان ـ الرملة ـ ونيفيه تيرتسا) ولا بد ان يستدعي تجميعهم في موضع آمن ومتماسك جهوداً كبيرة. وكان الرجل المسؤول عن تحديد مكان كل فدائي سجين، وعن القيام بالتدقيق الأمني والتثبت من وجود السجين في السجن إضافة إلى موظفي ادارة السجون المقدم (بي) رئيس ادارة العمليات في قيادة الشرطة العسكرية. ولم يكن لديه الوقت الكثير لتنظيم وتنسيق العملية الضخمة لاطلاق سراح السجناء. بعد أن حدد موعد التبادل بشكل أولي في أيار 1985. كانت تعليمات جبريل دقيقة، بشكل مفصل: أن يسمح ل ـ 610 من السجناء الذين سيطلق سراحهم من سكان الضفة الغربية وقطاع غزة بالعودة إلى منازلهم، فالباصات سوف تقوم ببساطة بنقل السجناء المحررين من السجن إلى قراهم، ومدنهم و390 سجين ممن كانوا في أنصار والمعتقلين في السجون الإسرائيلية، يجري نقلهم بالطائرات إلى جنيف بسويسرا في طائرات تابعة لسلاح الجو الإسرائيلي و 150 من المعتقلين المطلوب اطلاق سراحهم يتعين نقلهم عبر مرتفعات الجولان للعبور إلى سوريا، عند موقع وجود قوات الامم المتحدة في القنيطرة. كان التبادل الفعلي، هو الذي سيجري فوق الأراضي السويسرية تحت اشراف ممثلي الصليب الاحمر الدولي. وكان عدد الفدائيين التابعين للجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ هو 271 سجيناً من بين 1150 سجين سيجري اطلاق سراحهم.

وبعد عدد من التلميحات، والاشارات المزيفة التي أعطيت لشاليم وغروف وشاي في دمشق تحدد أخيراً يوم التبادل في 21/5/1985.

وفي الساعة 14 من يوم 20 / 5/ 1985 بدأ السجناء الفلسطينيون بالدخول في العملية الطويلة والبيروقراطية التي سيجري من خلالها تحولهم من «سجنا امنيين» إلى أبطال ثورة محررين. وجرى تسليمهم مجموعة ملابس من الصليب الاحمر الدولي الالزامية، وبدلوا ثيابهم كما بدلوا أوراق شخصية أخرى من ضمنها وثائقهم. وسمح لهم باجراء حمامات، وحلاقة ذقن وقدمت لهم وجبة الطعام

الاخيرة الساخنة (منح سجناء انصار ثياب جديدة، ونقلوا تحت اجراءات امن مشددة بالباصات إلى المطار، ومن ثم إلى نقطة العبور عند القنيطرة). وقبل التوجه إلى مطار بن غوريون الدولي، او إلى المناطق الارضية التي سينطلق منها العائدون إلى الضفة الغربية وقطاع غزة قام المقدم (س) ضابط كبير في الشرطة العسكرية، بتوجيه خطاب شخصي للسجناء. حيث دعاهم إلى عدم نسيان «المعاملة الانسانية التي تلقاها كل منهم في المعتقل الإسرائيلي، وعبرّ عن أمله بأن يساعد هذا في تغيير مفاهيمهم المليئة بكراهية إسرائيل».

وقد أصغى الفدائيون الفلسطينيون والدوليون لخطابه بصمت، رغم أن الكثير منهم كان يفكر بالعودة قريباً إلى إسرائيل ليحتل تل أبيب وحيفا والقدس* .

هكذا ستستقبل الثورة بعد قليل فرقة جديدة متجددة من المحاربين المقدسين.

كان على أسطول من 27 باصاً نقل السجناء من معتقلاتهم إلى مطار بن غوريون الدولي. كما تقرر أن يكون السائقون من شركة ايجد الوطنية للباصات من ذوي السجل الأمني الموثوق، وطلب منهم القَسَم على الحفاظ على السرية ولم يتضح فيما إذا سلموا أسلحة صغيرة للحماية الشخصية.

وكانت العملية الأمنية في نقل السجناء إلى المطار من المهام الجسيمة جداً. إذ أحاطت بقافلة الباصات عشرات من العربات المحملة بالمئات من رجال الشرطة والقناصين المسلحين، كما أشرف على كامل عملية التبادل جيش من موظفي الصليب الاحمر الدولي الذي حافظ على اتصالات لاسلكية وسلكية دائمة مع زملائه في جنيف ومع رجال جبريل في دمشق.

استغرقت العملية البيروقراطية لايصال الرجال والسيارات من السجون إلى مدرج المطار يوماً كاملاً. وعندما كان السجناء يدخلون القسم العسكري الآمن في مطار بن غوريون، كان التدقيق بأسمائهم يجري وفق قائمة إسرائيلية، ثم تدقيق

* لعل الكاتب نفسه يسخر من هذا الضابط حين يضيف قائلاً بأن الكثير كان يفكر بتحرير تل أبيب وحيفا والقدس.

آخر وفق نسخة ثانية من نفس القائمة للصليب الاحمر. . . ولم يكن يسمح بصعود السجناء إلى طائرة البوينغ 707 التابعة لقوات سلاح الجو، إلا بعد ان يتم التدقيق الكامل للتأكد من تطابق الاسماء مع الاشخاص، تهيئة لانطلاق الطائرة إلى جنيف. وكان آخر الصاعدين إلى الطائرة هو أبو علي ابن أخت احمد جبريل الرجل الذي كثيراً ما قابلته الصحافة الإسرائيلية . كان ابو علي يصعد سلم باب الطائرة وهو يلوح بأصابعه بـ (V) ـ علامة النصر. وفي نفس ذلك الوقت الذي كانت تجري فيه التحضيرات في القسم العسكري من مطار بن غوريون الدولي كان أحمد جبريل يهلل لانتصاره.

ففي مؤتمر صحفي عقد في قواعد جبريل في دمشق، عرض جبريل الأسرى الإسرائيليين الثلاثة، وهم في حالة ارتباك على الصحافة الدولية. وبدا نسيم شاليم رزينا بعينيه السوداوين وشاربه البارز، وظهر حازي شاي بمظهره الجسماني المناسب. أما يوسف غروف فقد حمل فمه الذي فقد بعض أسنانه، علامة بلوته. كان الثلاثة يبدون على نحو مستنزف عاطفياً، وهم يحدقون بارتباك في عدسات الكاميرات وأضوائها ويردون على اسئلة الصحفيين . وقد ظهر عليهم التواضع والبؤس.

وكان الفدائيون يجلسون خلفهم وجبريل معهم في أوج فرحتهم. وفي الساعات الباكرة من صباح 21/ 5/ 1985 أقلعت الطائرات الثلاث التابعة للجيش الإسرائيلي وهي تحمل على متنها السجناء من إسرائيل، لرحلة أربع ساعات طيران إلى جنيف وفي نفس ذلك الوقت جرى انطلاق 150 سجيناً من أنصار نحو القنيطرة، وكذلك جرى صعود ما يقرب من 600 سجين من العائدين إلى بيوتهم في الضفة الغربية وغزة إلى الباصات التي كانت بانتظارهم في ساحات السجون، لتوصيلهم إلى منازلهم المنتشرة في كل انحاء الضفة والقطاع وإسرائيل.

كان 21/ 5/ 1985 يوماً حاراً لطيفاً في جنيف، وكان المطار يعج بالحركة والنشاط بينما كانت دوريات شرطة مكافحة «الإرهاب» المسلحة من نخبة وحدات شتيرن والكوماندو السويسرية تغطي المطار، ومدارجه بمدرعات من طراز (م113)

. كما اشترك أيضاً ضباط يرتدون ملابس مدنية، وهم يحملون بنادق من طراز هيكلر الالمانية وكوخ (م بي 5) مخبأة في حقائب صغيرة، تعززهم قوة قناصة على الأسطحة. كما جند الجيش السويسري طائرات مروحية من طراز (بيل 205) لتحلق على ارتفاع منخفض حول المطار، وهي تحمل رجال الكوماندو لبسط سيطرتها والإشراف على رؤية كل شيء في هذه العملية فائقة الحساسية. ولم يسمح إلا لمندوبي الصليب الاحمر ومعهم شموئيل تامير ولوفا الياف والميجر جنرال عاموس يارون وعدد من ضباط الجيش الإسرائيلي بالتجول في أنحاء المطار. وكانت الصحافة موجودة أيضاً ولكن في مكان بعيد آمن، وكان يارون في الحقيقة هو أكثر من يبدو عليه القلق من بين الحضور. فبصفته ضابط سابق في العمليات الخاصة كان يعرف بأن التعامل مع «الإرهابيين» هو مهمة شديدة الحذر، إذ يمكن لأي خلل صغير ان ينسف العملية بكاملها. ولم يكن يارون الذي كان يلبس آنذاك بنطالاً فضفاضاً أزرق اللون وقميصاً عاديا باللون، الأبيض قادراً على التخلص من ملامح القلق الظاهرة على وجهه.

كانت الخطوط العريضة للتبادل بسيطة: احضار الفلسطينيين المنوي تحريرهم من مطار جنيف إلى سويسرا في ثلاثة طائرات ثم إحضار اسرى جبريل إلى جنيف بثلاثة طائرات، اثنتان ليبيتان وواحدة نمساوية من طراز بوينغ 727 حيث سيجلس في كل طائرة أسير معصوب العينين تحيط به حراسة مشددة، وكل جندي إسرائيلي سيجري تبادله بما تحمله كل طائرة إسرائيلية من السجناء الفدائيين، الذين سيستقلون طائرة ليبية، في رحلة العودة المظفرة إلى طرابلس حيث سيلقون هناك استقبالاً بطولياً وتحيات شخصية من العقيد معمر القذافي.

هبطت الطائرات الإسرائيلية في وقتها المحدد، بينما حصل تأخير في إقلاع الطائرات المقابلة في سوريا، مماجعل الإسرائيليين يقلقون على الفور، ويتحسبون من حدوث مؤامرة شيطانية، خطط لها جبريل، ولذلك اتصلوا بالقدس للتزود بتعليمات إضافية. ورغم أن طائرات جبريل كانت تقل أيضاً مندوبين من الصليب الاحمر ومن أطبائه، فقد اعتقد بأن طياري الجيش الإسرائيلي الموجودين في جنيف كانت لديهم أوامر بالأقلاع بطائراتهم عند ملاحظة أية بادرة تدل على فخ

في علمية التبادل ـ مثل كمين مسلح، او عملية عسكرية لتحرير السجناء الفلسطينيين دون الافراج عن الاسرى الإسرائيليين ـ او في أسوأ الأحوال محاولة خطف الفريق الإسرائيلي المفاوض الذي يضم ضباطاً كباراً كرهائن. لكن في النهاية وصلت الطائرات الثلاث من دمشق (حيث اصطفت في زاوية المطار بعيداً عن الطائرات الإسرائيلية).

واستناداً إلى الخطط التي أعدت قبل اسابيع من هذا الموعد كان من المفترض ان يجري التبادل فور وصول جميع الطائرات، وهبوطها على الارض. وفي نفس الوقت كانت إسرائيل قد بدأت بتنفيذ المرحلة الأولى، من عملية التبادل بعصبية اذ كان يجري نقل 610 من السجناء في الضفة الغربية وقطاع غزة بالباصات إلى منازلهم، بل ان بعضهم كان يسكن داخل إسرائيل، ونقل إلى مدن وقرى يسكنها اليهود. وقد اشعلت هذه العودة الجماعية للسجناء احتفالات عفوية وضخمة في جميع ارجاء المناطق المحتلة. وذبحت الاغنام، وأقيمت الحفلات بالبراري، وأخذ السكان يرقصون من سكرة الفرح، ويتعهدون بتدمير إسرائيل. لقد ظهر، وكأنهم حققوا انتصاراً حاسماً في معركة الانعتاق الروحي لينعموا بمجد انتصارهم ـ فجوهرياً تم فعلاً كسب معركة لكن صاحب النصر رجل واحد فقط هو: احمد جبريل. وبينما كانت الاحتفالات تتواصل طوال الليل كانت في الجانب الآخر، وحدات الجيش الإسرائيلي ومسؤولو المخابرات (الشين بيت) يعدون أنفسهم لفجر عهد جديد من العنف في المناطق . فقد أصبحت حياة مسؤولين الامن في المنطقة فجأة اكثر صعوبة وأعمالهم أشد خطورة. فأحمد جبريل أجبر إسرائيل على اطلاق سراح السجناء داخل إسرائيل، ومقابل ذلك منح نسيم شاليم حريته التي فقدها طويلاً. كان شاليم الذي بدل ثيابه بثياب عسكرية زوده بها الصليب الاحمر الدولي يسير على مدرج المطار، وبصحبته مندوب للصليب الاحمر لمقابلة يارون الذي احتضنه بقوة فوق ارض مطار جنيف.

فأخيراً شعر بانتهاء محنته، ورد بابتسامة عريضة على المجموعة العسكرية، وعلى الفور أدخل إلى طائرة البوينغ 707 التي ستعيده إلى الوطن. وشعر شموئيل تايمر بالابتهاج، وهو يرى شاليم وجهاً لوجه، وعلى الفور اتصل بوزير الدفاع

اسحاق رابين لابلاغه بنجاح اجراءات التبادل، واعطاء أوامره باطلاق سراح السجناء الفلسطينيين من احدى الطائرات إلى النصف الآخر من مدرج الجوي.

وفي الساعة 22، وبعد ان أطلق سراح آخر سجين فلسطيني من الطائرة الإسرائيلية الثانية التي كانت تحمل الفلسطينيين، سلم يوسف غروف إلى الوفد الإسرائيلي. وقوبل باحتضانٍ حميمٍ من الميجر جنرال عاموس يارون.

وبعد ساعة اطلق سراح الـ 150 سجين فلسطيني، الذين كانوا قد جلسوا لما يزيد على 12 ساعة، داخل الباصات في مرتفعات الجولان. وعلى الفور انتقلوا إلى الباصات الصغيرة، لقوات الامم المتحدة حيث انطلقوا عبر مئات من الأمتار من المنطقة المحايدة التي تفصل بين القوات السورية ـ والإسرائيلية. وعند سماعه بأن رجاله قد اصبحوا آمنين داخل الاراضي السورية وجه جبريل أخيراً أوامره بالافراج عن الرقيب اول حازي شاي، حيث سار هذا عبر المدرج في نفس الوقت الذي كان فيه آخر باص ينقل السجناء الفلسطينيين من مدرج المطار إلى الطائرة التي كانت بانتظارهم فوق أرض مطار جنيف. وفي الساعة الواحدة من صباح 22/5/ 1985 كانت العملية قد اكتملت. اتجه الأسرى الإسرائيليون الثلاثة إلى تل أبيب واتجهت الطائرات الليبية إلى طرابلس، وفي الساعة 19,30 سمحت الحكومة للناطق باسم الجيش الإسرائيلي بالإعلان عن صفقة التبادل التي اغضبت، وهزت انباؤها كل مواطن إسرائيلي.

ورغم ان المئات من المواطنين تجمعوا في مطار بن غوريون الدولي لتحية الاسرى العائدين، الا أن معظم المواطنين لم يصدقوا بأن تقوم حكومتهم باطلاق سراح بعض أخطر الرجال في العالم، لكي يقوموا بمهاجمة إسرائيل مرة أخرى في موعد آخر. فالافراج عن 600 «ارهابي» محكوم معظمهم قام بقتل يهود وها هم يعودون إلى الضفة الغربية، وقطاع غزة وعلى قرب مباشر من الجمهور الإسرائيلي تسبب بطعنات يائسة من الفزع. بل إن الكثير من المواطنين قام بالاحتجاج امام مكتب رئيس الوزراء، بينما كان آخرون يبكون في الشوارع. لقد أشعل اطلاق سراحهم أشد ردة فعل لدى الآباء، الذين فقدوا ابناءهم أو أعزاءهم في العمليات

المسلحة التي جرت بالماضي. فمئير آمروسي الذي فقد ابنه في مذبحة معالوت التي نفذتها الجبهة الديمقراطية صرخ قائلاً: «أثناء محنة معالوت رفضت الحكومة مقايضة 270 «ارهابي» مقابل حياة ابنائنا. فمردخاي غور رئيس الاركان قال لنا لا يمكننا الخضوع للابتزاز بالسلاح. وقبلنا ماقاله آنذاك. لكننا الآن وأمام اطلاق سراح 1150 سجين (وردت بالنص الانكليزي حيوان) مقابل ثلاثة فقط، ندرك ان أبناءنا ماتوا مجاناً». وكذلك فعل ضحايا آخرون بينهم سمادار حاران التي فقدت ابنيها وزوجها في العلمية البحرية لجبهة التحرير الفلسطينية في نهاريا، حيث تقدمت بشكوى مريرة لرئيس الوزراء شمعون بيريس معبرة عن رغبتها بمعرفة «لماذا لم يكن ضحايا «الإرهاب العربي» في إسرائيل بمثل أهمية عائلات الجنود الثلاثة الاسرى». على أية حال كان من الصعب مناقشة الصفقة، بعد مشاهدة الجنود الاسرى الثلاثة وهم يعودون إلى عائلاتهم أمام عدسات التلفزيون والصحافة. كانت عملية التبادل هذه رغم ما تثيره من خلاف، بمثابة بيان كتب بالدم والألم بأن دولة إسرائيل تفعل المستحيل ـ والذي لا يطاق احتماله ـ من أجل استعادة جنودها.

هكذا قام جبريل بعمل لم ينجح بالقيام به أي زعيم عربي. لقد جعل الإسرائيليين يفقدون توازنهم الذاتي، ويتساءلون عن أخلاقية واخلاص حكومتهم. وربما لم يتسبب حدث مماثل قامت به الحكومة الإسرائيلية بغضب، «وحنق» كبيرين لدى الجمهور مثل هذاالعمل. ولأن رابين وزير الدفاع آنذاك أدرك بأنه قام بسابقةٍ خطيرة، فقد حذر جبريل «بأن خطف رهائن جدد في المستقبل بهدف الحصول على مكاسب من إسرائيل سيكون من شأنه إيقاع كارثة على جميع «الإرهابيين» في المنطقة.

أصبح جبريل بنظر الكثير من الإسرائيليين يمثل خطراً كبيراً اذ بدا متسماً بالابهة لما فعله... وظهر بوضوح بأنه قد بدأ للتو حربه المقدسة، بعد أن تعلم كيف يسحب قطرة الدم الأولى في حرب الاعصاب الجريئة التي شنها. ويعتقد العديد من ضباط المخابرات الكبار بأنه ما يزال يحتفظ بالثلاثة المتبقين، من معركة السلطان يعقوب الإسرائيليين المفقودين لادراكه بأن الإسرائيليين لا بد وأن

يحاولوا الانتقام منه. بل انه في الحقيقة كان قد أوضح في بعض الاحيان بأن يهودا كاتس، وتسفي فيلدمان، وزكريا باوميل مايزالون على قيد الحياة رغم ادعائه بانهم غير محتجزين لدى القيادة العامة وإنما لدى حزب الله.

كما ان التلويح بأدنى أمل لعائلات الثلاثة بأن ابناءها ما يزالون على قيد الحياة يمثل تكتيكاً قاسياً، ولكنه تكتيك يعتقد جبريل بأنه سوف يضمن بقاءه حياً.

وإذا كانت مذبحة كريات شمونا تخول اصدار أمرٍ بقتل جبريل فان عملية 21/5/1985، وما جرى فيها تجعله نافذ المفعول، وكل ما يتطلبه ذلك، انما هو الوسائل والطريقة، رغم ان الكثير في إسرائيل يدرك بأن التعامل مع «ارهابي» كهذا يقتضي قدراً لا بأس به من «الحظ».

الفصل السابع

النذير السيء

الفصل السابع

النذير السيء

لم تنتظر إسرائيل طويلاً في شن هجماتها ضد الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ وبشكل خاص ضد أحمد جبريل انتقاما من علمية التبادل في أيار 1985. ففي 27/ 10/ 1985 قام طيران سلاح الجو الإسرائيلي من طراز (ف 15) و (ف 16) بشن غارات في النهار على قواعد الجبهة في البقاع، وعلى قاعدة السلطان يعقوب الاستراتيجية، وعلى قاعدة الانطلاق الارضية المتقدمة للجبهة. كان الهدف من هذه الهجمات، كما أعلن ناطق رسمي باسم الجيش الإسرائيلي للصحافة هو تدمير القواعد المسلحة للجبهة، وعرباتها القتالية، ودباباتها، ومستودعاتها، وذخيرتها.

وكانت الغارات من ضمن الغارات الروتينية لسلاح الجو الإسرائيلي، والقريبة من مواقع الصواريخ السورية (السام) لاثارتها، وليس لتهديدها أو لإعطاء سوريا مبرراً لهجوم أو دفاع عسكري.

وكما قالت العديد من تقارير الصحافة، والمخابارت كان سبب القيام بتلك الغارات هو أن «المخابرات العسكرية الإسرائيلية» (امان)، ومخابرات سلاح الجو الإسرائيلي، كانتا قد علمتا بأن جبريل يقوم في ذلك اليوم بمهمة تفتيش على قواته ومواقعه.

لكن هذه المعلومات الاستخبارية لم تكن صحيحة. فجبريل لم يحضر في ذلك اليوم الخريفي إلى البقاع بعد الظهر. ولو كان موجوداً في ذلك اليوم فلربما قتل. وقد سجل طيارو سلاح الجو اصابات دقيقة في قصف أهدافهم، كما أظهرت الصور الجوية للقصف تدميراً كاملاً لبعض المواقع.

كان احمد جبريل البراجماتي يدرك بأن انتصاره عليإسرائيل في صفقة التبادل يشكل ضربة مميتة لها. خاصة وانها اثبتت قدرة فعالة منذ ايام أيلول الاسود ومذبحة الرياضيين في ميونيخ ضد أي عمل معادٍ لها.

فاستناداً إلى التقارير الأجنبية كانت إسرائيل قد قامت بنشر فرق سريّة ضاربة من رجال الموساد في أوروبا، والشرق الاوسط لمواجهة أيلول الاسود وقتل قادتها الكبار. وكانت الحملة فعالة جداً، حيث باتت منظمة أيلول الاسود بعد سنة من مذبحة ميونيخ لا تشكل أي تهديد عملياتي لإسرائيل، فقد قتل جميع الضباط الكبار في أيلول الاسود اما باطلاق النار عليهم، او بالتفجيرات في شوارع أوروبا. كما تم احتواء شبكتها «الإرهابية» الدولية من خلال الهجوم الاستخباراتي الإسرائيلي الفعال الذي افسدها بالمخبرين، والعملاء المزدوجين، مما أضعفها إلى الابد ـ لم يتطلب الأمر عند غولدا مائير ـ رئيسة الوزراء آنذاك ـ سوى شهر واحد للرد على هجوم ميونيخ وتشكيل حكومي خاص هو مكتب مستشار رئيس الوزراء لمكافحة «الإرهاب»، الذي كلف بالتعامل مع أيلول الاسود (وما يزال هذا المكتب قائماً حتى الآن) ووضع الميكانيزم المناسب، لاتخاذ القرار بالعمليات السرية، والغامضة والذي تتولاه لجنة (اكس) المختصة باغتيال قادة المنظمات المعادية لإسرائيل.

وجبريل طالب التاريخ الموهوب بمعرفته الجيدة بسياسة إسرائيل لمكافحة «الإرهاب»، عرف بأن صفقة 1150 مقابل ثلاثة قد انتقلت الآن من خط تهديد إسرائيل له إلى خط الانتقام الفعلي منه. لذلك أدرك جيداً بأن إسرائيل ستسعى الآن إلى قتله.

والغريب في الأمر ان صفقة السجناء مع إسرائيل، لم تكسبه شعبية او تزيد

من احترامه كزعيم في الثورة الفلسطينية. فجبريل الذي نجح في اخضاع إسرائيل في مفاوضات حادة، وعنيدة ظل شخصية غامضة. والملصقات التي تحمل صورته في مخيمات اللاجئين في لبنان وسوريا والأردن لم تثمر كثيراً في تلك الأزمة، إذ لم يتطوع في صفوف الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ سوى القليل.

وكما ذكر عدد من المسؤولين الفلسطينيين كان جبريل منزعجاً دوماً من أن رجالاً مثل عرفات الذي كانت عملياته العسكرية تنتهي عادة بالفشل المخجل، ومثل جورج حبش الذي كان يحلم باسقاط كل دولة عربية، وحتى مثل نايف حواتمه الذي أصبحت افكاره الشيوعية من المستحيل تطبيقها في المنطقة، يلقون قبولاً واحتراماً اكثر منه. . . ولكن السير خلف الخط السوري، هو الذي جعل جبريل غير محبوب بين الفصائل الفلسطينية. فهذا الموقف أضعف إلى حد كبير قدرته على كسب دعم واسع بين الجماهير، التي كانت تحلم بالعودة إلى فلسطين، وليس بتأييد السياسة السورية. كما عرضته علاقاته القريبة من السوريين للانتقاد. ولذلك أدرك بأنه رجل بحاجة إلى حلفاء خارج دمشق، علماً أن ذلك لم يتطلب منه النظر بعيداً، أو الانتظار الطويل لايجادهم.

كانت الانحيازات بين الفصائل في لبنان تجري بشكل روتيني على الدوام مستثنية الساحة الشيعية. وكان الشيعة يشكلون الغالبية العظمى بين الطوائف المسيحية والسنية والدرزية، لكن وضعهم الاقتصادي الهزيل جعل منهم طبقة فقيرة معدمة. وعندما جاء الفلسطينيون في عام 1948 تجاوزوا عقدة شيعة لبنان الاجتماعية التي تتمثل في الخوف من الغرباء. وكان الفصيل الفلسطيني المنسجم مع الشيعة هو فصيل جبريل الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ كنتيجة مباشرة للتحالف القوي بين حليفيه سوريا وايران.

فسوريا أيدت الإيرانيين، وسمحت لحزب الله بشن الجهاد ضد القوات المتعددة التي تقودها الولايات المتحدة في بيروت. وكان جبريل، ومعه حزب الله متحالفين مع السياسة السورية.

وكان تبادل 21/ 5/ 1985 للأسرى، قد رفع من أسهم جبريل في أعين

المتعصبين المتطرفين بالمنطقة، مثل حزب الله. فالفصيل «الإرهابي» الفلسطيني الوحيد الذي سمح له بالعودة إلى قواعده السابقة التي أنشأها قبل عملية «سلامة الجليل» في جنوب لبنان في مواجهة القوات الإسرائيلية هو فصيل الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة.

في حين قامت قوات حزب الله، وأمل العاملة في الجنوب بالاشتباك علناً مع وحدات جبهة التحرير الفلسطينية، التي كانت تنوي التوجه نحو الحدود الإسرائيلية، ربما لخشيتها من عودة المرحلة الفوضوية التي كانت سائدة في ظل حكم منظمة التحرير الفلسطينية، اما وحدات ـ القيادة العامة ـ فقد قدم لها قادة حزب الله وأمل الدعم العسكري والتأييد اللوجستي.

وقد أقلقت ظاهرة التحالف ـ الشيعي مع جبريل إسرائيل كثيراً، لذلك أصبح الوقت ملحاً بالنسبة للجيش الإسرائيلي لاعداد نفسه، وللقيام بعملية حاسمة.

ففي ليلة 2 ـ 3 ـ كانون أول عام 1985 قامت قوة مشاة من الجيش الإسرائيلي ـ يعتقد بأنها من نخبة لواء المشاة غيفعاتي بعبور منطقة الحاجز الحدودي الآمن ودخلت إلى عمق 15 كيلو متر بعرض مواز للحدود، وهاجمت موقعاً متقدماً للقيادة العامة في منطقة العرقوب ـ التي اعتبرت ضمن أراضي (فتح لاند)، وكان ذلك الموقع استناداً لتقارير المخابرات العسكرية الإسرائيلية على وشك القيام بهجوم ضد كيبوتسات او مستوطنات الشمال الإسرائيلي. وكان الجيش يعرف جيداً بأن أي منطقة عزل أمني قابلة لأن تصبح منطقة «عصابات» خطرة، وممكنة للعمليات بسبب مضائق الجبال، والميل للعمليات الانتحارية من قبل «العصابات» المسلحة المحلية لذلك كانت قوات المشاة الإسرائيلية مسلحة بأسلحة ثقيلة مثل رشاشات ذات قدرة نارية واسعة، وآر بي جي وقاذفات قنابل، وقدرة على نشر قوة نارية واسعة.

وبما أن تلك القوة متخصصة بالمشاة، فقد نجحت القوة المهاجمة في تجاوز المضائق المثلجة دونما صعوبة تذكر، الاقتراب نحو هدفها المحصن بخلسة وتسلسل. وعلى الفور، فتحت القوة المهاجمة نيرانها بسرعة، وبصليات مميتة

وخلال ثوان معدودة قتل خمسة مسلحين من القيادة العامة، قبل ان يتمكن أي منهم من رفع سلاحه وتوجيهه نحو مصدر النار، وتم أسر عشرة عناصر في الموقع قبل أن يعرفوا ما الذي قد حدث.

من المشكوك فيه أن تكون تقارير المخابرات العسكرية الإسرائيلية قد ذكرت بأن احمد جبريل نفسه سيكون في تلك المنطقة ليلا، او ان تكون هذه العملية ضربة وقائية لتشتيت قدرات «الإرهابيين». رغم ذلك، كانت نتيجة العملية ايجابية. فعشرة فدائيين أسرى يعني ثروة من المعلومات لرجال التحقيق الإسرائيلي. كما نجحت القوة الإسرائيلية المهاجمة بغنم مدفع هاون من عيار 60 مم ورشاشين (احدهما بلجيكي ـ وكلاشينكوف (من نوع حديث) آر بي جي كيه وعشرة رشاشات كلاشينكوف من طراز أك 47 وبندقية قنص س في دي 7,62. وعدد من المناظير الليلية وألغام ارضية*.

لم تكن إسرائيل تنخدع في حملتها ضد احمد جبريل، ولم يكن ذلك الهجوم مجرد صراع عسكري عادي. لأن خبرات إسرائيل في العمليات التجسسية التخريبية ستبدأ الآن بالدخول إلى مسرح اللعبة. فالمعروف ان حملة الموساد الإسرائيلي ضد «الإرهاب» الفلسطيني كانت قد تحولت إلى ملحمة من العمل التجسسي الصغير والدؤوب مما جعل العالم يعتبر الموساد افضل جهاز ضد «الإرهابيين»، والقتلة القساة. فقد كانت حرب الموساد مثل أي حرب تقليدية، رغم أنها لم تكن تجري في ميدان المعركة ولم تكن تشن بأسلحة تقليدية. كانت صراعاً في الظلال بأدوات تخريبية واجهزة مفخخة. وكان الموساد يقاتل «الإرهاب» الفلسطيني خارج حدود إسرائيل منذ صيف 1978 عندما وسعت عملية الجبهة الشعبية بخطفها الطائرة إلى الجزائر الصراع إلى خارج حدود المنطقة.

فحرب التجسس والتجسس المضاد، كان مسرحها كل قارة، ومدينة، وقرية.

---

* لا شك أن المبالغة في هذا الوصف واضحة. فقد تناقلت معظم وكالات الانباء خبر هذه الغارة الإسرائيلية مؤكدة على أن الموقع كان مركز تموين غذائي وصحي تشرف عليه بعض عناصر طبية وتموينية.

وذات نهايات مميتة تتعدد وسائلها من إرسال الفرق الضاربة إلى اوروبا إلى ابتزاز حراس سجن الماني غربي، إلى تجنيد وزراء تونسيين، في خدمة الموساد. كل هذا من أجل ملاحقة «الإرهابيين» الفلسطينيين، الذين يسعون إلى تدمير إسرائيل».

وكانت جهودها تثمر انجازات كبيرة مثل اغتيال علي حسن سلامة في بيروت بتاريخ 22/ 1/ 1979، وفي أحيان أخرى تكون النتائج كارثة مثل العملية الفاشلة لاغتيال سلامة في ليلي هامر بالنروج عام 1973 والتي قتل فيها بالخطأ نادل مغربي على يد فرقة الموساد الضاربة، مما عرض كامل شبكة الموساد في اسكندنافيا كلها للكشف، والمحاكمة، والسجن. لكن وفي أحيان أخرى كانت جهود الموساد لها القدرة على انجاز المستحيل.

في عام 1985 قامت السياسة الإسرائيلية شبه الرسمية المضادة «للارهاب» على فكرة أن الوسائل الفعالة للتعامل مع منظمة التحرير الفلسطينية، هي الانتقام والثأر. وكان على اجهزة الامن والعسكريين في الدولة اليهودية المحافظة على مهمة الحماية التامة لحدود الدولة، ومصالحها في الخارج بأقصى ما لديهم من القدرة، وإعاقة هجمات فتح، والمنظمات، الموالية لها. وهذا يعني بالطبع استخدام الخبرات التجسسية في التسلل إلى هذه المنظمات وملاحقة اتصالاتها، واحتواء قدراتها. وعند حدوث أي عمل هجومي «ارهابي» مثل العمل الذي قامت به القوة 17، حين قتلت ثلاثة مدنيين إسرائيليين، على ظهر يخت في لارنكا* في 25/ 9/ 1985 كان على القوة العسكرية الإسرائيلية الرد بعمل سريع وتدمير لا ينسى. فبعد خمسة أيام من علمية قبرص قامت طائرات سلاح الجو الإسرائيلي (ف 15 ـ ف 16)، بقصف قواعد منظمة التحرير الفلسطينية في تونس. اما فيما يتعلق بالفصائل الصغيرة التي يقودها فرد او اثنين فلها قصة أخرى. فهذه الفصائل تمثل أهدافاً أسهل وأقل تبعة سياسية وكذلك اقل مجازفة، من الناحية العسكرية. فعند تصفية قائدها، تكف المنظمة الصغيرة هذه عن الوجود فبضربة واحدة

* جميع وسائل الاعلام ذكرت بالصوت والكلمة والصورة عن هؤلاء المدنيين الثلاثة بأنهم من كبار ضباط الموساد بل جرى دفنهم عن طريق الموساد في مقبرة خاصة في إسرائيل.

يستأصل سرطانها. وكما يقول الميجر جنرال جدعون منحانايمي مستشار رئيس الوزراء لمكافحة «الإرهاب» «ان اغتيال هؤلاء القادة هو خط سياسي، حساس ومنطقي» والفرصة المناسبة لتطبيق هذه السياسة جاءت هذه المرة من ليبيا.

في 4 شباط من عام 1986 كانت طرابلس ـ ليبيا تستضيف مؤتمراً كبيراً للمنظمات «الثورية» الرئيسة بالعالم، بحضور قادتها. وكان الهدف من اجتماعات هذا العقل الموجه، هو تنسيق وبلورة سياسة تكثيف الكفاح ضد «المؤامرات الصهيونية والامبريالية الأمريكية» وكان هذا يمثل أوج الرعاية الليبية «للارهاب» الدولي، خاصة وأن منظمات «إرهابية» عالمية، مثل الجيش الجمهوري الايرلندي، والجيش الاحمر الالماني كانت تحضر ذلك اللقاء في ليبيا. كان اولئك يمثلون الجنود الذين يشن بهم القذافي حربه المقدسة على الغرب. .
وعندما ترأس القذافي المؤتمر، الذي عقد بقاعة محكمة الحراسة وسط مدينة طرابلس، أخذ يتطلع حوله عبر طاولته المخملية ليشاهد عدداً من أخطر الرجال بالعالم: زعيم الجبهة الشعبية جورج حبش، وزعيم الجبهة الديمقراطية نايف حواتمه. وزعيم جبهة النضال الشعبي سمير غوشه، وزعيم فتح المجلس الثوري أبو نضال، وبالطبع أحد أثمن الموالين المتنفذين زعيم الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ احمد جبريل.

وكما تقول تقارير استخبارية حضر ذلك المؤتمر ممثلون عن أقوى المنظمات «العالمية الثورية»، من غير العرب من بينهم فوساكو شيغي نوبو. القائدة الغامضة لمنظمة الجيش الاحمر الياباني. كان المؤتمر يعج بالخطب الرنانة، التي يتعهد فيها كل زعيم «بتصعيد العنف ضد إسرائيل وبإرغام امريكا عليدفع ثمن سياستها الامبريالية ودعمها الاجرامي للتوسع الصهيوني». وكان كل زعيم يتلو الآخر من على المنصة وهو يتعهد بدعم القذافي، لسخائه، ودعمه المالي لتحقيق هذه الاهداف.

كان جبريل من أنشط الخطباء في ذلك اليوم، فبسبب احترامهم لهندسته عملية إذلال إسرائيل في تبادل الاسرى، جعلوه آخر المتكلمين. ألقى جبريل

كلمته وهو يرفع قبضته من على المنبر خلال ثلاثين دقيقة تقريباً معلناً«بأن قواته المسلحة سوف تلتحم قريباً بالصهاينة في لبنان وفلسطين». ووعد بإعادة «نقل الحرب الفلسطينية المقدسة ضد الصهيونية إلى الساحة الدولية»كما وعد «بتحويل شوارع إسرائيل إلى حمام من الدم». وبعد المؤتمر شغل الحضور القاعة، لعدة ساعات ومن ثم أخذوا ينتقلون بحراسة مشددة إلى المطار، للانطلاق جوا نحو بغداد ـ تونس ـ دمشق.

وكان رجال التجسس على الأفراد التابع للموساد، كما تقول العديد من التقارير موجودين هم أيضاً على أرض طرابلس، في ذلك الوقت للإعداد لعلمية درامية مؤثرة. فعند ما ينتهي المؤتمر كان على رجال الموساد رصد تحركات حبش ـ وابو نضال ـ وبالطبع احمد جبريل، وإبلاغ التفاصيل عن خطط طيران العودة إلى سوريا. وحين يتم ذلك، تقوم طائرة تابعة لسلاح الجو الإسرائيلي بتعقب طائرة الفلسطينيين، وتجبرها على الهبوط في إسرائيل. حيث يجري هناك اعتقال زعماء «الإرهاب».

وبحسب التعليل الإسرائيلي يجري بعد ذلك، احتواء منظماتهم وقهرها. كانت قد صدرت بعد ذلك بعض التقارير المتناقضة، حول من تريد إسرائيل اعتقاله بالضبط، او تتوقع اعتقاله من داخل الطائرة، اذ زعمت بعض التصورات شبه الرسمية بأن جورج حبش هو «الرجل المطلوب» بينما زعم آخرون بأن الإسرائيليين ارادوا اسر ابو نضال، وفي النهاية قالت الاغلبية بأن هدف ذلك اليوم، كان احمد جبريل البالغ من العمر آنذاك 59 عاماً. لكن المخابرات وقعت بخطأ في ذلك اليوم حين نقل عملاء التجسس الإسرائيلي من على أرض طرابلس رسالة سرية بالغة التشفير، إلى اجهزة اتصالاتهم في البحر الابيض المتوسط ـ ثم مباشرة إلى إسرائيل، بأن أحمد جبريل وربما ابو نضال استقلا طائرة ليبية من نوع غلف ستريم 2 ـ صغيرة خاصة ستقلع بعد قليل إلى دمشق.

تلقت تل أبيب الرسالة، وبلغت على الفور قيادة سلاح الجو الإسرائيلي التي وجهت بدورها الأوامر لسرب من طائرات ف 16 فالكون بالتأهب الكامل. وكان

ذلك السرب قد عاد لتوه من طلعات تدريبية، لاستخلاص المعلومات الضرورية (هذه التجربة تسبق عادة القيام بمهمة في سلاح الجو) كان قائد السرب يتحدث على الجهاز مع زملائه، عندما قاطعه نائب قائد الوحدة (جي) موجهاً اليه الأمر بالاستعداد للطيران.

خصصت أربع طائرات فقط للعملية اثنتان للتعقب القريب للطائرة الليبية عند نقطة محددة وقريبة من المجال الجوي الإسرائيلي اثناء سفر (الغلف ستريم) الطائرة الليبية، والاثنتان الآخريتان للتحليق كغطاء جوي بسرعة تتجاوز سرعة الصوت بغية عرقلة أية تدخلات من سلاح الجو السوري. وأعطيت التعليمات الموجزة للطيارين الاربعة وحين استقلوا الطائرات عادوا، وتلقوا معلومات مفصلة، وهم يربطون أحزمة القيادة ويتفحصون أجهزتهم للمرة الاخيرة.

كان الشفق الاحمر يظلل إسرائيل آنذاك . وبينما كانت السماء القرمزية اللون تتحول إلى ظلام، كانت القاعدة الجوية تعد نفسها للاقلاع غير المتوقع للطائرات الاربع. وكانت السرية في القاعدة مطلقة، ولم يكن الضباط الذين يعطون الأذن للأربع طائرات، فالكون بالإقلاع من على المدرج المضاء يعرفون طبيعة هذه المهمة، ولكنهم كانوا يعرفون أيضاً بأنه لا ينبغي طرح الاسئلة. حتى الطيارين أنفسهم ما كانوا على علم بأنهم ينطلقون نحو السماء للإمساك بأخطر «الإرهابيين» المطلوبين في العالم. وبما ان السرية هي الكلمة الملازمة في الجيش الإسرائيلي، فقد كان مجال الأمن في ذلك اليوم محكماً ولا مثيل لغموضه. وبعد أقل من ستين ثانية من صدور الأمر باطفاء الأنوار أصبحت الطائرات الأربع بأسلحتها الكاملة تتسابق نحو سماء البحر الأبيض المتوسط.

كانت الطائرات الاربعة تحلق على ارتفاع منخفض، وتكاد تصطدم برذاذ الامواج كيما تتجنب الرادارات اللبنانية والقبرصية والسورية. واتجهت نحو المثلث الجوي المنسق بين تركيا، وقبرص، وسوريا، لاستخدامه كفراغ للمناورة اثناء انتظارها للهدف. وكانت الطائرتان من نوع ف 16 الخاصتان بالتغطية تحلقان على ارتفاعات عالية للقيام بالحماية. لم تنتظر الطائرات الإسرائيلية طويلاً. فقد ظهر

أخيراً على رادار طائرة ف 16 ضوء صغير يدل على اتجاه شمال شرق بارتفاع 37 ألف قدم: «إنها الطائرة الليبية (غلف ستريم) أخذ الطيارون يتطلعون إلى الهدف المتحرك ببطء دونما صعوبة تذكر. وعلى الفور انطلق الطيارون نحو المهمة، وتوجهوا في أعقابها للتأكد من أن الطائرة الليبية لن تستطيع الفرار إلى المجال الجوي السوري. استمرت طائرتا ف 16 في تحليقهما المنخفض، إلى ان انطلقتا في لحظة واحدة إلى الاعلى بأقصى قدرتهما على القفز نحو مستوى ارتفاع الطائرة الليبية. وهكذا اصبحتا على جانب الطائرة الليبية، وبمسافة خطرة بمقدار 10 أمتار عن زوايا الاجنحة الخارجية.

والجدير بالذكر أن القانون الدولي يدعو الطائرة المتعقبة، اثناء مجريات تعقبها لطائرة مدنية ان تلوح بجناحيها عدة مرات للطائرة الاخرى، ومن ثم تنحدر بطيرانها نحو اليمين واليسار، (وجهة الاتجاه) وعلى الطائرة المدنية المقصودة، إذا ما جرى الأمر سلمياً إطاعة الطائرة القائدة والسير خلفها.

وهكذا قامت الطائرتان من طراز ف 16 باعطاء الاشارات اللازمة، غير انه ظهر أن الطيار الليبي بعد أن عرف بالأمر استمر بالتحليق، وكأن شيئاً لم يكن. وكما قال الكابتن أ ـ طيار الطائرة القائد «كنت قريباً جداً منه، بحيث تمكنت من قراءة الاحرف الخضراء لشعار الطائرة الليبية، بوضوح كما تمكنت من رؤية وجه الطيار الليبي في كابينه المضاء. وبعد عرض متوتر من لعبة القط والفأر، وما تضمنته من صبر، وحرب أعصاب، توجهت الطائرة الليبية في النهاية نحو إسرائيل إلى قاعدة رامات دافيد الجوية في الشمال. ومن أجل الحفاظ على اكبر قدر من الامن، تعين على طائرات ف 16 الإسرائيلية ان تقود الطائرة الليبية، عبر قطاع من الاراضي الخالية من المدن، والبلدات، او المستوطنات المدنية.

توقفت الطائرة الليبية على امتداد بعيد من مركز القاعدة الجوية رامات دافيد التي تحولت فجأة إلى معسكر مسلح. وعلى الفور حوصرت الطائرة الليبية ب ـ (150) من رجال الكوماندو الإسرائيلية بكامل اسلحتهم، وجلبت الاضواء الكاشفة لتحيط بالطائرة، وقامت مجموعة من الكوماندو من رجال (سيريت ماتكال) بشق

طرقها نحو الطائرة وكأنها تقتحم موقعاً معادياً. كان جميع رجال الكوماندو يرتدون سترات واقية من الرصاص من نوع (كيفلار) بأسلحتهم الجاهزة للإطلاق وأصابعهم على الزناد لإطلاق النار عند أي مقاومة مسلحة، ولو كان «الإرهابيون» فعلاً داخل الطائرة لكان على حراسهم الشخصيين اتخاذ موقف انتحاري. . ولكن المخابرات الإسرائيلية اخطأت خطأً كبيراً فأحمد جبريل لم يكن داخل الطائرة الليبية ولا جورج حبش ولا ابو نضال.

أخذ قائد مجموعة الكوماندو يحدق غاضباً بوجه كل راكب في الطائرة مكررا التحديق مرة أخرى، لئلا يخطىء. لم تكن الوجوه في الطائرة تشبه تلك الوجوه على الصور في ملفه.

وتبين أخيراً أن الإسرائيليين، قد تعرضوا بشكل غير مقصود لرحلة طيران كان ركابها ما يزيد على عشرة من المسؤولين السوريين الكبار بحزب البعث من بينهم بعض الموثوقين من قبل الرئيس حافظ الاسد، كان أحدهم عبد الله الاحمر الامين العام المساعد لحزب البعث والذي يحتل منصباً مماثلا لنائب رئيس. وبدأت القوات الإسرائيلية، وهي محرجة تفتش كل جزء بالطائرة مرة أخرى نهائية، ثم أعادت املاءها بالوقود للاقلاع. وحين قام القادة المحليون في القاعدة بالاعتذار، بشكل متواضع لم يكن أحدُ من المسؤولين السوريين من النوع الذي يجيب بعبارات أو إشارات لطيفة. وبعد 12 ساعة على الارض سمح سلاح الجو الإسرائيلي للطائرة الليبية بالمغادرة إلى دمشق. . . وهكذا ضاعت الفرصة الذهبية لأسر أحمد جبريل.

شكل حادث (الغلف ستريم) «الطائرة الليبية» إحراجاً لأجهزة المخابرات الإسرائيلية، بل ضربة قاسية للموساد، حسب تعبير مصادر مخابرات الولايات المتحدة. . ومع ذلك لم تعتذر إسرائيل . ففي مقابلة متلفزة أوضح رئيس الوزراء اسحاق شامير في اليوم التالي: «ربما خاب أملنا، ولكننا لسنا آسفين ابداً». ولو كانت المعلومات الاستخبارية تدل على الوقت الصحيح لتم الإمساك بالطائرة الصحيحة واعتقل جبريل. لكن حقيقة الأمر أن إمكانات كهذه غير متوفرة في دولة

بوليسية مثل ليبيا، كما أن المصادر البشرية لجلب المعلومات، لدى الدول الغربية كانت أيضاً غير فاعلة على الارض الليبية. ومع ذلك تبقى هذه المحاولة جهداً إسرائيلياً نبيلاً. كان السوريون قد غضبوا كثيراً على هذه العملية واعتبروا أن الطريقة التي عامل بها الجيش الإسرائيلي الاحمر والمسافرين الآخرين على الطائرة إهانة كبيرة. فقد أجبروهم على البقاء طوال الليل، في ظروف نوم قذرة، وقدم لهم طعام سيء من أطعمة الجيش كما قال السوريون. وأعلن رئيس اركان الجيش السوري حكمت الشهابي بأن إسرائيل ستلقن قريباً درساً لن تنساه. .» ولم يكن السوريون يهددون على نحو مقنع، وكذلك الفلسطينيون الذين هددوا هم أيضاً بالانتقام.

وفي 15 آذار 1986 عقد القذافي مؤتمراً آخر في طرابلس، كملتقى كبير للعقول «الثورية» والأنصار الدوليين. وكان الهدف هذه المرة من اجتماع 22 منظمة فلسطينية هو صياغة رد على خطف الطائرة الليبية. وقد عقد الاجتماع تحت شعار مناهضة الامبريالية، وكان من بين الضيوف غير الفلسطينيين ممثلين عن منظمة «ايتا» لتحرير الباسك (الوطن والحية)، وهنود حمر من الأمريكيين المتطرفين، وخبراء من المانيا الشرقية، وانفصاليين من كاتالونيا الاسبانية، وكاناكس من كاتالانيا الجديدة، ومورو من الفيليبين، ومراقبين من عشرات المنظمات من امريكا اللاتينية وجنوب افريقيا.

وكان نجم الخطباء في ذلك الصباح الشتوي هو احمد جبريل حيث عبر عن غضبه، من حادث خطف الطائرة الليبية، خاصة وأنه الهدف المطلوب منها، وأخذ يتحدث بصوت بطيء، وهادىء رافعاً عينيه نحو المجتمعين معلناً: « لن يسلم أي مسافر على الطائرات الإسرائيلية والأمريكية».

في ساعات الصباح الباكر من يوم 17 نيسان 1986 كانت الفتاة آن ماري مورفي الحامل في التاسعة عشر من عمرها، والايرلندية الجنسية، تسير نحو الجناح رقم واحد في مطار هيثرو بلندن، يرافقها صديقها وخطيبها في الوقت نفسه، الأردني المولد البالغ من العمر 32 عاما نزار هنداوي . كان الاثنان قد

تعرفا على بعضهما منذ عدة أشهر، ووقعا بالغرام من أول نظرة. وعندما ظهر ان السيدة مورفي حامل وعدها نزار بالزواج منها، لكنه رغب بأن تجري طقوس الزواج في إسرائيل، بوجود عائلته في الضفة الغربية. وأقنعها بالسفر لوحدها إلى إسرائيل، حيث سينضم اليهابعد ايام بعد أن يصفي بعض الأمور في لندن، لكي يتمكن من دفع تكاليف عرس لا ينسى في بلدته. ولم تكن آن مورفي ترغب بالسفر لوحدها، لكنها تبعت باخلاص تعليمات عشيقها، واشترت بطاقة سفر عادية وحجزت على طائرة العال رحلة (016) إلى تل أبيب، حيث كان هناك ازدحاماً على الحجز بانتظار الطائرة القادمة من مطار كينيدي من نيويورك. وفي موقف السيارات في القبو الارضي لجناح السفر رقم (1) ودع هنداوي وآن بعضهما بقبلة الوداع، وقبل أن ينهي احتضانها العاطفي الاخير سلمها هنداوي هدية خاصة اشتراها خصيصاً من أجل سفرها، هي عبارة عن حقيبة نسائية ثمينة بداخلها بعض الهدايا تعبيراً عن تمنياته لها بالحظ السعيد.

قبلته آن للمرة الاخيرة، وتوجهت نحو جناح المغادرة واجراءات الوزن.. ولم يكن لديها سوى فكرة محدودة عن آرائه السياسية، كما لم تكن تعرف حقيقة أنه حولّها إلى قنبلة بشرية موقوتة.

لم يكن هنداوي بالنسبة للسيدة مورفي سوى - نيزي - (تدليلا لاسم نزار) اللطيف والعاشق العربي المثير. توجهت آن إلى أجهزة الوزن في مقطع العال بالمطار حيث جرى فحص بطاقتها وتفتيش أمتعتها. وبعد ان دقق بها موظف أمن العال بشكل أولي، اعطيت بطاقة الصعود متمنياً لها سفرة سعيدة في رحلتها الأولى لإسرائيل. توجهت بعد ذلك إلى موظفي الهجرة والجوازات في المطار، للمرور بعد ذلك عبر أجهزة الفحص الامنية الخاصة بكشف المتفجرات، حيث سلمت حقائبها المحمولة باليد إلى موظف الامن للتفتيش، ومن بينها حقيبة هدية هنداوي و مرت جميعها عبر اشعة اكس وجرى التدقيق بها بسرعة. بعد أنهت الفحص الامني بسلامة. توجهت نحو جناح السوق الحرة للقيام ببعض التسوق قبل اقلاع طائرتها.

منذ الأيام الأولى لعمليات خطف الطائرات، وإيقاع الاذى بها في الجو قامت وزارة النقل البريطاني باتخاذ ترتيبات امنية لجميع الرحلات المنطلقة نحو إسرائيل خاصة رحلات طائرات العال. فقد كانت رحلات العال من مطار هيثرو تجري في منطقة معزولة عبر بوابة رقم 23 البعيدة عن حركة الطيران المنتظمة. ومنذ عملية ابو نضال في 27/ 12/ 1985 في مطار روما وفيينا أصبحت قوات شرطة لندن من نخبة الوحدة (دي 11) المسلحة برشاشات المانية من طراز هيكلر وكوخ من عيار 9 مم تقوم بدوريات دائمة لحماية المسافرين. وكان هذا يشكل درعاً بشرياً وتكنولوجيا كبيراً يتلوه حاجز آخر لابد من المرور فيه. فقبل أن يسمح للمسافر بالصعود إلى داخل الطائرة يقوم طاقم أمني من رجال أمن العال ـ التابعين (للشين بيت) ـ بتفتيش آخر للمسافرين، وكذلك عرض ما يحملونه على أشعة (اكس) أخرى وإجراء تفتيش على اجسامهم وحقائب يدهم. . آن ماري مورفي جرى أخذها إلى غرفة صغيرة من صفائح زرقاء، حيث قام باستجوابها رجل أمن شاب وجه اليها بأدب بعض الاسئلة الشخصية من بينها لماذا تسافر فتاة ايرلندية حامل لوحدها إلى إسرائيل؟. وعندما ذكرت عبارة صديقها العربي، قام رجل الامن على الفور باجراء فحص بيديه على الحقيبة التي تحملها بيدها بقلق بالغ، حيث اكتشف قاعاً اضافياً لها وجد داخله جهاز حاسب صغير يقوم بمقام جهاز توقيت وقد اتصل به 5,1 كيلو غرام من متفجرات سيمتيكس التشيكية. وكان المؤقت يشير إلى رقم 13,04 أي حين يكون جميع المسافرين في مقاعدهم يتناولون غذاءهم الساخن في طائرة البوينغ 747 جيمبو جيت ـ حيث تكون في ذلك الوقت على ارتفاع عال فوق جبال الالب النمساوية. ولو نجحت الخطة لانفجر بالتأكيد 375 مسافر وملاح في السماء. وإذا كانت هناك قضية تستحق جهداً بشرياً من أجل العمل ضد «الإرهاب» فانما هي هذه القضية بالذات. وببرودة اعصاب سلّم رجل أمن العال إلى ضابط الارتباط البريطاني آن مورفي حيث وضعها في غرفة جانبية، وقام بإستعادة كافة حقائبها من حجرة الشحن في الطائرة. وفي غضون ذلك أبلغ المسافرين المقرر صعودهم إلى داخل الطائرة بالانتظار والصبر ريثما يتم اصلاح عطل ميكانيكي فيها. وفي الوقت نفسه انطلق رجال المخابرات البريطانية (م 15)

وضابط ارتباط أمن العال إلى داخل المطار لاستجواب آن مورفي تحسباً من ان يكون هذا الأمر محاولة إشعال مزيفة للقيام بعلمية شيطانية أضخم.

أما نزار هنداوي فلم يبق في هيثرو للاطلاع على نجاح ما قامت به يداه.. إذ لم يكن لديه في الحقيقة سوى أقل من ثلاث ساعات للفرار من كل لندن.. قاد نزار سيارته عائداً إلى فندق (غاردين رويال) في كينسينغتون، وهو محطة توقف ملاحي الطائرات السورية، بغية جمع أغراضه والسفر عبر الطائرة السورية اليومية إلى دمشق من مطار هيثرو. ولحسن حظه كان موعد طيران رحلة الهنداوي قبل أربع دقائق بالضبط من موعد تحليق طائرة العال في رحلتها 016 على ارتفاع 40 الف قدم فوق النمسا.

إلا أنه اعتقل في اليوم التالي تماماً 18/ نيسان.. وعندما صار هنداوي في المعتقل البريطاني شعر بالشوق للتحدث، والاعتراف على نحو ورط سوريا فقامت بريطانيا رداً على هذا العمل بقطع العلاقات الدبلوماسية مع سوريا، وغادر السفير الحيدر الذي أراد تحويل الانتباه عن سوريا، حين أعلن بأن قضية الهنداوي من صنع الموساد الإسرائيلي وبهدف الإساءة لسوريا*.

---

* في كتاب صدر بالأنكليزية بعنوان «فوائد الحرب» (المقصود الحرب العراقية الايرانية) ـ مجموعة الاورا ص 122 يعلن المؤلف اليهودي الذي تربطه علاقات وثيقة بإسرائيل: «شارك «راضي هنداوي» وهو ابن عم نزار هنداوي في عام 1986 بعملية اخرى من العمليات السوداء قذرة التمويل ـ هي المحاولة الشهيرة لتفجير طائرة العال رحلة 016 أو على الأقل ما اعتقده العالم بأنه محاولة نفجير العال آنذاك فقد كانت تلك العملية في الحقيقة خطة محسوبة أعدها بدم بارد «رافي ايتان» أحد مسؤولي الموساد بهدف تلطيخ سمعة السوريين».

ويضيف المؤلف في الصفحة الأخرى: «ففي اجتماع سري عقده في باريس أبلغ رافي ايتان رافي بأنه يريد نوريط السفارة السورية في لندن بالإرهاب وانه يريد رؤية جميع الدبلوماسيين السوريين وهم مطرودون من انكلترا وكان لراضي ابن عم في الـ 35 من العمر يدعى نزار هنداوي يعيش في لندن وجد فيه راضي الطعم المطلوب. فله صديقة بريطانية حامل منه ويشعر بأنها عبء عليه.. أعدت الخطة في المطار وقال نزار لصديقته آن مورفي بأنه يريد تجنيبها حمل حقائب كثيرة بيديها ولذلك فقد رتب عبر صديق له يعمل في المطار أن يسلمها هذا حقيبة صغيرة عند دخولها الى صالة المغادرة نحو الطائرة... وكان راضي قد ابلغ نزار بأن رجلاً من أصل فلسطيني يعمل في التنظيفات بالمطار هو الذي سينقل الحقيبة المميتة لآن ماري..

حكم على نزار هنداوي بالسجن 45 عاماً وعند تلاوة قرار الحكم أعلن القاضي عن ثنائه لرجل أمن العال ويقظته.

وتبقى قضية هنداوي إحدى أكثر العمليات «الإرهابية» غموضاً، لأن الدافع الحقيقي الذي يقف وراء العملية الفاشلة ما يزال سراً ومصدراً لاحتمالات كثيرة. وكما قال أحد محللي المخابرات الأمريكية المختص في سوريا: «إن الأسد هو رجل من النوع الذي يحسب حساباً لكل خطوة، ولا يقدم على أية مخاطرة.»

وكان بعض المراقبين قد أوحوا بشكل ملحوظ الى احتمالية أن تكون هذه القضية معدة فعلاً من الموساد للإساءة إلى سوريا والتشهير بالنظام في دمشق على تأييده للعمليات «الإرهابية».. لكن لو كانت المؤامرة قد أعدت من إسرائيل فقد كان عليهم بالتأكيد العثور على القنبلة قبل أن تصعد السيدة مورفي إلى الطائرة. وقد تكون قضية هنداوي كما يقال نظرياً امتحاناً قام به السوريون لصالح حلفائهم الفلسطينيين. إذ يمكن أن تكون العملية محاولة للتعرف على وسائل الأمن التي تستخدمها العال بهدف معرفة ما يمكن لرجال أمن العال اكتشافه أو ما لا يمكنهم اكتشافه.

وتدعي معظم تقارير المخابرات الغربية بأن هنداوي كان كادراً كبيراً في منظمة

وفي صالة المغادرة الى طائرة العال قدم رجل أمن إسرائيلي بثياب عادية «عامل التنظيفات من اصل فلسطيني؟ الرزمة للفتاة فالتقطتها وبعد ذلك بثوان طلب منها رجل أمن المطار البريطاني التوجه الى غرفة التفتيش.. فرجال الأمن الذين كانوا جزءاً من خطة رافي ايتان كانوا على ثقة بعدم االتسبب بأي ضرر قام الأمن البريطاني في المطار بفتح الحقيبة واكتشاف العبوة واعتقال ان مورفي التي اخذت تنتحب وتقص عليهم قصة خيانة صديقها نزار الذي اعتقلته الشرطة البريطانية في فندق لندن فيزتيرز «Lond Visitors» بعد أن اقنعه اخيه بتسليم نفسه حيث قام نزار بابلاغهم بأن ضابطاً سورياً هو الذي ورّطه بهذه العملية. أما راضي إبن عمه قام بمهاجم لأنه كان تحت حماية فرع (م 1 ـ 5) (M 1-5) التابع للمخابرات السرية البريطانية وذهب رافي ايتان بطريقة وحكم على نزار بالسجن 45 عاماً وعادت آن ماري مورفي الى موطنها ايرلندا حيث أصبحت ستاً. هذه هي احدى نماذج العمليات السوداء التي كانت تموّل من الاموال القذرة التي كنا نقوم بتمويلها».

ويذكر أن التلفزيون الإسرائيلي كان قد عرض قبل أشهر مقابلة مع رافي ايتان ضمن برنامج أعد للتحدث عن بعض انشطة الموساد الإسرائيلي في تعقب عدد من الهاربين.

أبو نضال لكن الدليل على ذلك ما يزال سطحياً. ورغم عدم وجود حقائق ثابتة متوفرة (للمؤلف) عن ارتباط مباشر للهنداوي بمنظمة أحمد جبريل، إلا أن حقيقة إدعاء هنداوي للصحفيين بأنه سيطلق سراحه قريباً مقابل «الجنديين» الإسرائيليين اللذين ما يزال جبريل يحتفظ بهما يمكن أن توحي بأكثر من صلات قليلة.

فلجبريل دافع فوري بتفجير طائرة العال لأنه كان الهدف المطلوب في عملية خطف الطائرة الليبية. ومنظمة الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ هي الفصيل «الإرهابي» الفلسطيني الوحيد الذي يتقن تماماً عمليات التفجير بالجو ومتخصص في الهجوم على العال.

كما أن الجبهة هي أيضاً الفصيل الوحيد الذي أتقن فن تجنيد النساء الشابات الغربيات، وتحويلهن إلى إماء جنس وإلى قنابل بشرية موقوتة. ورغم أن منظمة أبو ابراهيم المسماة منظمة 15 أيار العربية، هي المنظمة الوحيدة المعروفة بزرع العبوات في الطائرات إلا أنها تخضع لسيطرة عراقية، قوية وهي غالباً ما كانت تهاجم الطائرات الأمريكية مثل عملية هجومها في 1/4/1986 على طائرة تي دبليو أيه وهي في طريقها من مصر إلى الولايات المتحدة عبر روما وأثينا.

وبغض النظر عمن يتحمل المسؤولية عن عملية تفجير العال، وعن الدوافع الحقيقية لها إلا أنها ستشجع المطلب الإسرائيلي بقتل، أو أسر أحمد جبريل، رغم انها تخدم أهداف الجبهة على المدى الطويل.

فمحاولة ادخال قنبلة متفجرات سيمتيكس إلى الطائرة بوينغ 747، قد تكون محاولة تجريبية «بروفة» غايتها تأمين النجاح المطلق في المرة القادمة عند استهداف طائرة أخرى. وهذه «المرة القادمة» حصلت بعد سنتين فوق القمة السكوتلندية في لوكربي. *

---

* من الواضح أن المراد من تعداد كل هذه «الاحتمالات» ومحاولة الصاقها بشكل من الأشكال بسوريا ـ أو القيادة العامة ـ وغيرها هو ابعاد الشبهة والإدانة عن الموساد الإسرائيلي ـ وتناقضات المؤلف شموئيل كاتس في احتمالاته هذه تؤكد للقارىء وجود أصابع واضحة للموساد في ما سمي بقضية العال ـ بريطانيا.. أو لوكربي ـ سكوتلندا..

الفصل الثامن

عملية قبية أو ليل الطائرات الشراعية

الفصل الثامن

عملية قبية أو ليل الطائرات الشراعية

كانت الغاية من الترتيبات الأمنية الإسرائيلية في الجبهة الشمالية الملتهبة تستهدف منع المسلحين الفلسطينيين، واللبنانيين من محاولة عبور «السياج» الضخم.

ورغم أن ذلك الحاجز لا يشبه جدار برلين الشهير دولياً، إلا أن ذلك الحاجز الفاصل بين إسرائيل، ولبنان كان بضخامته يشكل مانعاً من الأسلاك الشائكة القائمة على عدة صفوف على شكل «أكورديوني» حاد يصل الحافتين، وكان على الالغام الأرضية والمجسات الألكترونية القادرة على إعطاء الاشارات عند حدوث أي عبور معادي. وكان ارتفاع السياج يزيد على ثمانية أقدام. لكي يستحيل على احد تسلقه. وبالاضافة إلى ذلك كان السياج بعيداً عن الاستحكامات القوية التي تحمي حدود إسرائيل الشمالية. وكان المسلحون يسلمون بحقيقة أنهم إذا ما حاولوا قطع هذه الاسلاك لمهاجمة إسرائيل فسيتحولون إلى شهداء أو جرحى. وقبل أقامة هذا السياج كانت منطقة الجليل تشكل أهدافاً ممكنة بمدنها الصغيرة وكيبوتساتها ومستوطناتها الزراعية للعمليات الانتحارية. وكان الجيش الإسرائيلي وقوات حرس الحدود يتشاركان في مسؤولية القيام بالدوريات على الحدود من رأس الناقورة عند البحر المتوسط إلى منحدرات جبل الشيخ. . وكان هذا الترتيب

يعرف في إسرائيل باسم الأمن المشترك. حيث كان الجنود الإسرائيليون يستخدمون عرباتهم العسكرية المفتوحة، ويعززون قوة هذا السياج بتصميمهم على تدمير أية دورية معادية قبل عبورها ودخولها إلى إسرائيل.

وكانت قوة الردع الحقيقية لمنع الفلسطينيين من محاولة العبور، هي قوة صغيرة من قصاصي الأثر البدو المتعاونين مع إسرائيل، والذين تتيح لهم موهبتهم الموروثة في الصحراء قراءة الأرض، والآثار فوقها مثل قراءة نص مقدس. فقد كان لهؤلاء القصاصين قدرة كبيرة على تمييز أية خطوة فوق الأرض إن كانت لحيوان أو انسان. وكانت العلامة التي تخلفها الخطوة تساعدهم في تحديد وزن الذي داسها إن كان خروفاً أو رجلاً. وهذه المهارة انحدرت من جيل، إلى جيل وهي تستخدم كعامل مساعد لدى الرجل في الصيد ورعي الغنم. وعلى طول هذا الحاجز، كما على الحواجز الحدودية الأخرى عبر الأردن، ومصر، كانت هذه المواهب تستخدم لصيد البشر. فمهمة القصاص هي عنصر هام في الدفاعات الحدودية الإسرائيلية.. حيث يرافق هذه المهمة وجود ممر بعرض 12 قدم من التراب، والغبار عند الحاجز من رأس الناقورة حتى مرتفعات الجولان.. وعلى القصاص مرافقة كل دورية وعيناه محملقتان على الممر لاكتشاف ما إذا تحددت فوقه أية علامة جديدة منذ آخر مرة مرت خلالها الدورية. وكانت كل سيارة عسكرية للدورية تجر خلفها صفاً متراصاً من الاسلاك الشائكة لمسح التراب، وجعله ناعماً من خلفها عندما تمر فوقه.

كانت هذه المهمة شاقة ومطلوبة. وكما يقول الضابط في حرب الحدود ممن يتولون حراسة جزء من السياج: «إنها عملية بطيئة وشاقة تستلزم صبراً فريداً يفتقر إليه الجندي اليهودي. كما تستلزم قوة لا يستطيع تجاوزها أي مسلح فلسطيني ولذلك كان قصاصو الأثر جنوداً محترفين يؤمنّون حياة وحماية الحدود عبر 22 عاماً من العمل. وإذا ما وجد القصاص ما يدل على عبور مسلح معادي فهو يمسك رشاشه م 16 وهو سلاحه المفضل وينزل من سيارة الدورية ويبدأ بتعقبه الحقيقي.»

وحتى لو كان المسلح الفلسطيني قد دخل قبل ساعات من اكتشافه فإن للقصاصين قدرة فائقة على ايجاد، وتحديد المكان الذي وصل إليه، وتمييز أثر القدم على ورق النبات، وتحديد الاتجاه الذي سلكته. وعندما يتحدد مكان المسلحين يجري حصارهم في زاوية، ثم يُصّفون بنيران وحدات حرس الحدود. ولأن القصاصين يكونون في المقدمة فهم عادة ما يجدون أنفسهم في قلب معارك قاسية. والمعروف ان المئات منهم كانوا قد قتلوا أثناء عملهم

وكان المسلحون على دراية بفعالية القصاصين وقدرتهم على إحباط عملياتهم أحياناً. باستثناء ما حدث بكريات شمونا ومعالوت. لذلك كان المسلحون يقومون ببذل جهود جبارة لتخطي القصاصين، فهم يغلفون نعال أحذيتهم المصنوعة من الخيش بجلود الماعز لكي يموهوا خطوات أقدامهم، ويضعون على ألبستهم فضلات الحيوانات لكي يربكوا حواس الشمس عند القصاصين، وغالباً ما كانوا يعبرون الحدود الإسرائيلية بدوريات رباعية، ويضعون على الممر الرملي أقدام الحيوانات التي يقطعونها من الحيوانات الميتة.

ونظراً لصعوبة حماية الحدود الساحلية المتوسطية الطويلة لإسرائيل، والتي تعتبر وطناً لما يقرب من 2,5 مليون إسرائيلي فقد تعرضت تلك المنطقة لعمليات «ارهابية» في كثير من الأحيان، فمنذ عام 1974 وقعت العديد من المذابح على طول الساحل الإسرائيلي بدءاً من هجوم فتح في 24 حزيران 1974 البحري، على شقة في مبنى بنهاريا، والذي قتل فيه ثلاثة إسرائيليين، وانتهاء بهجوم 11 آذار 1978، والذي أدى إلى مذبحة «نادي الريف» التي قتل فيها 35 إسرائيلياً وأصيب خلالها 71 إسرائيلياً بجراح خطيرة..

وكان سلاح البحرية الإسرائيلي قد نجح من خلال الجهود الدؤوبة، وحسن الحظ في إحباط قدرة المنظمات على مهاجمة الساحل الإسرائيلي. فقد أقام شبكة من منشآت الرادار المثبتة على الشواطىء بحراسة مشددة غطت كامل ساحل البحر المتوسط يعززها تغطية رادارية من القوارب البحرية الإسرائيلية القاذفة للصواريخ، وكذلك من طائرات الاستطلاع البحرية من نوع (سي سكان 1124 ن). وعند

تحديد موقع قارب غير مرغوب به، أو فلسطيني مسلح على ساحل البحر كانت القوارب البحرية من طراز دبور، أو قوارب الدوريات البحرية من طراد (النحلة) ذات المدافع من عيار 20 مم دقيقة الاصابة، تقوم بتدميره على الفور. ومنذ عام 1980 أخذ الفلسطينيون يفشلون في احراز أي نصر بحري واحد، رغم محاولاتهم الكثيرة على القيام بالعمليات البحرية.

ففي 16 نيسان 1985 حاولت فتح القيام بعملية بحرية ضخمة على ساحل إسرائيل استخدمت فيها ما يزيد على 30 مقاتلاً كانوا على ظهر سفينة أم «بنامية» التسجيل تدعى (اتافيروس س س) بهدف النزول على شواطىء بات يام (ضاحية في تل أبيب). وكان من المقرر بعد نزولهم على الشاطىء استخدام باص وقيادته لاختراق استحكامات وزارة الدفاع في تل أبيب، وخطف هيئة أركان الجيش. كان أبو جهاد ـ الوزير ـ هو الذي وضع هذه الخطة الحمقاء، التي أحبطت عندما تعقب قارب صواريخ إسرائيلي السفينة الأم «أتافيروس» في المياه الدولية وقضى على العملية بالبحر.. وفي 30 أيار 1990 حاول جناح جبهة التحرير بقيادة أبو العباس القيام بعملية بحرية جريئة، عندما أبحرت ستة قوارب بحرية سريعة تحمل مسلحين للهجوم على الشواطىء المزدحمة، أثناء عطلة «الشفوعوت»، وكان أحد القوارب قد توجه نحو شاطىء تل أبيب الذي كان يستجم فيه ما يقرب من مئة ألف مصطاف بعد أن تعطلت أربعة قوارب لأسباب ميكانيكية، واكتشف القاربان الآخران على يد قوارب «دبور» الإسرائيلية التي قامت بقتل بعض المسلحين وأسر البعض الآخر. لكن المسلحين قاموا باستخدام وسائل أخرى لاجتياز الحدود. فالجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ كانت دوماً تبحث عن وسائل فريدة من نوعها للقيام بعمليات هجومية على إسرائيل. حيث كانت الوحدات البرمائية التابعة لجبريل تستخدم مجموعة فعالة من القوارب المطاطية من نوع «زودياك1»، وكذلك قوارب بمحركات سريعة تستخدم لنقل قوة صغيرة وأسلحتها للنزول في شواطىء إسرائيل.

وكانت هذه القوارب تتلقى معظم تدريبها على يد وحدات الكوماندو البحرية السورية، في قاعدتها المركزية في اللاذقية على ساحل البحر الأبيض المتوسط.

كما استطاعت القيادة العامة استحضار عدد من القوارب السريعة التي تعمل على «التحكم عن بعد» مزودة بمحركات، وذات قدرة على حمل مئات الكيلوغرامات من المتفجرات القوية التي يجري تفجيرها في هدفها بشكل موجه فالجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ كانت أول فصيل يستثمر رأسمالاً كبيراً في شراء الطائرات الخفيفة لتنفيذ العمليات المؤثرة ضد إسرائيل. ففي البدء كان من بين هذه الطائرات طائرة مدنية صغيرة بمحرك بستوني واحد خصصت لحمل المتفجرات، والانفجار في هدف إسرائيلي كنوع من الكاميكاز الانتحاري الفلسطيني. ولأن الرجل العسكري يهتم دوماً بالهجوم على عدوه مباغتة فقد كان أحمد جبريل مأخوذاً بالقدرة على نقل رجاله بوسائل غير تقليدية خاصة الوسائل الجوية، مثل الطائرات الشراعية التي يحركها الريح وكذلك بالونات الطيران الحرارية. وقد أفادت تقارير المخابرات بأن جبريل كان يخطط لشن هجوم جوي واسع النطاق أثناء احتدام الحرب الأهلية اللبنانية، لكن الانشغال بلبنان وما تلاه من حروب اهلية صغيرة اندلعت بين جبريل وأبو العباس أدت إلى تأخير تنفيذ هذه الخطط. ومن بين الأسباب التي عرقلت مثل هذه العمليات الضخمة انشقاق الكثير من ضباط العمليات الخاصة المسؤولين عن هذا النوع من العمليات، وانضمامهم إلى صفوف جبهة أبو العباس الجديدة. ولذلك كان أبو العباس هو أول من سيقوم بمحاولة استخدام هذه الوسائل الثورية في التسلل.

ففي 7 آذار 1981 قامت جبهة التحرير بشن عملية فريدة من نوعها على الدولة اليهودية، فقد جرى تجهيز مسلحين بعبوات متفجرة وأسلحة فردية نقلا إلى تلة في جنوب لبنان جانب «قلعة بوفور» وأطلقا إلى السماء بمنطادين بقوة الريح. وكان هدف الهجوم هو التحليق فوق مصافي النفط الاستراتيجية في مدينة حيفا الساحلية وإسقاط العبوات فوق المنشأة النفطية للتسبب بانفجارات ضخمة وحرائق لا يمكن السيطرة عليها للاضرار بالاقتصاد الإسرائيلي. إلا أن العملية برمتها فشلت.

إذ أسقط أحد المسلحين عبوة فوق بستان من الزهور وبعد ذلك تحطم البالون بجانب كيبوتس «أفق» حيث اعتقل على الفور من قبل بعض سكان الكيبوتس وقوات الأمن الإسرائيلية. أما الطائرة الثانية فقد كانت أيضاً أقل نجاحاً، فهي لم

تتجاوز المجال الجوي اللبناني، لأنها فوق منطقة تقع تحت سيطرة ميليشيا الميجر حداد التي أسرت طيارها، وسلمته للقوات الإسرائيلية.

ورغم أن الكثير من مسؤولي الأمن الإسرائيليين، قد سخروا من هذه المحاولات الفلسطينية التي يغلب عليها الطابع الكوميدي في مهاجمة إسرائيل، إلا أن قيادة سلاح الجو الإسرائيلي وجدت نفسها في مواجهة تحد عملياتي معقد وجديد. فسلاح الجو الإسرائيلي هو المسؤول عن جميع الدفاعات الجوية، وهو الذي يقود كافة الوحدات المضادة للطائرات بدءاً من بطاريات صواريخ «هوك» أرض/ جو الأمريكية إلى الوحدات الميكانيكية التي تستخدم طائرات الفولكان (م 163) بمدافعها من عيار 20 مم سريع الطلقات.

والطائرة الشراعية يصعب على الرادار تحديد موقعها، كما أنه يصعب أيضاً تحقيق قدرة استطلاع مرئي على طول الحدود اللبنانية، بواسطة مجسات الاستطلاع من النوع الذي يعود استخدامه للحرب العالمية الثانية. والكشف عن طائرة صغيرة تعمل على الريح، أمر لا يمكن تحقيقه من الناحية العسكرية. رغم ذلك جرى تشديد حالة الانتباه، والاستعداد على طول منطقة السياج الأمني، كما أبلغت الوحدات الأرضية بأن ترفع عيونها إلى السماء اضافة إلى سبطانات بنادقها من وقت لآخر. وهذه الجهود الفائقة لا بد وأن تعالج أبا العباس إذا ما حاول القيام بعملية جديدة من هذا النوع.

وفي 16 نيسان 1981 قام مسلحان من جبهة التحرير، بمحاولة العبور إلى داخل إسرائيل بواسطة بالون يعمل على الهواء الساخن. وجرت محاولتهما عند الفجر على اعتقاد أن حالة الاستعداد لدى الجيش الإسرائيلي ستكون في أدناها.. وانطلق البالون من موقع حدود منطقة ميليشيا سعد حداد، وتقدم بسرعة معتدلة نحو الحدود الإسرائيلية. وعلى النقيض من الطائرة الشراعية، يعتبر البالون هدفاً أكبر حجماً، سواء عند كشفه على الرادار أو عند ملاحظته بالعين المجردة. وقد حدد رجال سلاح الجو مكان العلبة الطائرة وأطلقوا عليها نيرانهم فتحطم البالون بعد ثوان ونجا المسلحان من أثر السقوط من السماء، فعبرت وحدات المظليين

الحدود لإقتفاء، اثرهما حيث قتلتهما بعد اشتباك ناري. وأحضر البالون إلى إسرائيل لعرضه على الصحافة.

ما فشل فيه أبو العباس، كان مكسباً لجبريل إذ قام قادة الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ بدراسة العمليتين الفاشلتين، وتعهدوا بتعديل وسائل الهجوم، وكذلك وسائل النقل. وكان على جبريل الماكر والصبور انتظار اللحظة المناسبة قبل نقل قواته الجوية للقيام بهجوم مميت من السماء. ولذلك انتظر جبريل حتى شتاء عام 1987.

كان عام 1987 هو الموعد المناسب تماماً للجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ لشن هجومها عى إسرائيل. فقد تحمل جبريل سنتين تقريباً من الضغط العسكري الإسرائيلي المتواصل، ومن عمليات التجسس عليه. فمن الهجوم الذي شنته إسرائيل على قاعدة انطلاق الجبهة في منطقة فتح لاند، بجانب «حوش دنيبه» في 4/ 12/ 1985 إلى ملاحقة، واختطاف الطائرة الليبية في شباط 1986 وصل جبريل إلى قناعة تامة بأنه مطلوب تصفيته. ومع أنه مستقل يمكنه الاعتماد على نفسه، إلا أنه لا يستطيع القيام بعملية كبيرة، دون سماح ودعم لوجيستي من السوريين.

وفي البدء كان على جبريل أن يحدد بالضبط الوسيلة التي سيتسلل من خلالها المقاتلون إلى داخل إسرائيل. تحدثت الخطط الابتدائية عن القيام بالعملية عبر الحدود والحاجز الأمني لشن هجوم عنيف على منطقة حيفا.. لكن القيادة العامة كانت حتى أوائل 1987 قد أقامت فرقة جدية من القوات المحمولة جواً صغيرة الحجم أطلق عليها جبريل اسم «الرواد». وفي موقع وحدات الكوماندو الجوية التابعة لجبريل في مجمع عسكري حصين الدفاع في منطقة «الريحان» في منتصف طريق دمشق ـ حمص، كان رجال الكوماندو الجوي يتدربون على فن التسلل الجوي. وكان جبريل قد درس باهتمام بالغ، المحاولتين الفاشلتين اللتين قامت بهما جبهة التحرير عام 1981 واستنتج منهما عبراً، تتعلق بالوسيلة وضرورة اعطائها عناية فائقة. وبدلاً من الاعتماد على الريح للحصول على الطاقة، اختار جبريل تجهيز طائرته الهجومية بمحرك للطائرات الصغيرة الحجم، والخفيفة الوزن، والتي

يمكن جرها بخفة نحو أهدافها. . وكانت أولى هذه الطائرات قد تم الحصول عليها من المانيا الغربية من مصنع (سي ي ي جي) عام 1981، وجرى الاحتفاظ بها في سوريا بانتظار الفرصة المناسبة للهجوم على إسرائيل.

كان جبريل شخصياً يقوم بالاشراف على التدريب اللازم ومستلزماته اللوجستية الخاصة بالعمليات المنوي ألقيام بها. وكانت خطوة الهجوم تمثل حقاً نزعة جبريل الاستعراضية. إذ كان يطمح أن تصبح العملية اعجوبة فنية تضمن النجاح لتصير نموذجاً للعمليات المستقبلية ضد إسرائيل. وأطلق على هذه الغارة الضخمة اسم «عملية قبية» للتذكير بالهجوم الانتقامي الإسرائيلي في 14/ 10/ 1953 الذي قامت به وحدة أريك شارون (101) من المظليين، حيث قتلت 69 مدنياً فلسطينياً.

كان الهدف الانتقامي الواسع ضد إسرائيل، هو سيد الخطة عند أحمد جبريل. وعلى نفس المنوال كانت رمزية المذبحة التي يتطلع إلى تحقيقها. كان الهدف من هجومه الجوي هو كريات شمونا المسرح الأكثر تأثيراً لعمليات منظمته داخل المناطق الإسرائيلية في تاريخ إسرائيل.

كانت مهمة جبريل الأولى هي اختيار الرجال الذين سينفذون العملية. فهذه الغارة لن يقصد منها اطلاق بيان سياسي، وهي ليست كذلك عملية خطف رهائن لاطلاق سراح رفاق سجناء يتعفنون في سجن إسرائيل، فقد تم تحرير كافة عناصر الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ من السجون العسكرية الإسرائيلية في 21/ 5/ 1985. لقد كان هدف الغارة الوحيد لعملية «قبية» هو قتل أكبر عدد من البشر. كان على العملية أن تؤدي إلى مذبحة، يتحقق فيها قتل المزيد من الإسرائيليين. كان جبريل يدرك أيضاً أن عملية كهذه، هي مهمة انتحارية تستوجب اختيار رجال يريدون الاستشهاد من أجل القضية. وبعد بحث حريص قام بإجرائه هو شخصياً عثر جبريل على رجاله المناسبين: إثنين من الفلسطينيين مازالا مجهولين حتى الآن ومقاتل سوري يدعى خالد محمد أكر (اسمه الحركي أبو رامي) ومقاتل تونسي ـ ميلود النجا (اسمه الحركي أبو علي). ورغم أنه من غير الواضح فيما إذا كان

الأربعة قد تطوعوا بأنفسهم للقيام بالعلمية أو أنهم اختيروا لها إلا أن التقارير من دمشق تقول بأن الأربعة كانوا يتلقون تدريباتهم بهمة متعصبة.

وبسرية فائقة نقل الرجال إلى قاعدة خاصة، قرب دمشق لتعلم الطيران على طائرات صغيرة من نوع (س ي ي جي). وكان كل منهم يضع فوق رأسه خوذة من النوع الذي يستخدمه سائقو سيارات السباق اشتريت من أوروبا، وكانت مجهزة بجهاز اتصالات فائق التقنية يحتوي على جهاز استقبال متعدد الترددات، والموجات وميكروفون للفم.. وإذا استذكرنا عمليات سلاح الجو الإسرائيلي ضد بطاريات صواريخ سام السورية، وسلاحها الجوي أثناء «حرب سلامة الجليل» فمن المؤكد أننا اعتمدنا وبشكل ما على طائرات الأواكس (هوك آي) (عين الصقر) (ط ي 2 سي) الإسرائيلية وعلى فعالية (سي 3 (C3)) (أي القيادة ـ السيطرة ـ الاتصالات)، وجبريل أراد من فدائييه الانتحاريين، الحفاظ على اتصال دائم مع المركز بدمشق. وكما قال أحد الخبراء في مكافحة «الارهاب»: يعتقد بأن جبريل أراد سماع صوت اطلاق النار وصراخ القتلى حين تبدأ العملية.. ففي هذه الحالة يجلس قائدة الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ وإلى جانبه بعض الضباط السوريين في مخيم اليرموك بدمشق ويرصدون التطورات، من موقع القيادة، والسيطرة، والاتصالات المتقدم، والمجهز بأحدث معدات الاتصالات السوفياتية..

ونظراً لأن جبريل كان قد شاهد الوحشية العارية للحرب الأهلية اللبنانية في السابق، فقد أدرك بأن أربعة رجال مسلحين ومصممين على القتل، ومسلمين بموتهم يمكنهم أن يحققوا اصابات بشرية كبيرة في صفوف العدو حيث كان كل واحد من الأربعة يحمل بندقية كلاشينكوف مجهزة بـ 12 مخزن كامل التعبئة، وبدزينة من القنابل اليدوية المضادة للأفراد، وبمسدس توركاروف مجهز بكاتم صوت عيار 9مم.

ولزيادة فرص حماية انفسهم، وقدرتهم على القتل لأقصى مدة، ارتدى كل واحد منهم سترة وا قية من الرصاص من نوع (كيفلار). واستناداً إلى تقارير متعددة كان الفدائيون يرتدون أيضاً سترات مفخخة بالمتفجرات، وبأحزمة ناسفة

تتفجر عند اصابة أي منهم بجراح من طلقات الجيش الإسرائيلي. ومن الواضح أن جبريل كان يتصور أن تحقق هذه القوة أكبر قدر من الاصابات البشرية بالعدو.

جرى تدريب رجال مجموعة قبية الفدائية مدة أربعة شهور، على تنفيذ عملية الاغارة وكان الإعداد عنيفاً في كثافته حيث كان الرجال يعملون طوال 12 ساعة في اليوم وستة أيام في الأسبوع. وفي الاسبوع الأخير من اكتوبر عام 1987 أجرت المجموعة عرضاً نارياً حياً تحت رعاية جبريل أخذت الطائرات الأربع خلاله تحلق بتشكيل ثابت ومتراص لتعود وتهبط بشكل متقن فوق حقل مهجور (وهذه ليست مهمة سهلة إذا أخذنا بالاعتبار ما يحملونه من أوزان) ولامست الطائرات الأربع الأرض بهدوء بعد أن أوقف كل طيار محرك طائرته الذي يشبه صوته وهو في السماء صوت «جزازة العشب». وبعد أن عزل كل منهم نفسه عن الطائرة أخرجوا مسدساتهم كاتمة الصوت وافرغوا طلقاتهم بلوحات اصابة الهدف (الدريئة).

ثم انتقلوا بعد ذلك إلى بنادقهم الرشاشة فأمسكوها، وأخذوا يطلقون النار بصليات تصم الآذان، وعلى طريقة افلام الغرب الامريكي القديمة، لم يتوقفوا عن اطلاق النار سوى لثانيتين لتبديل مخزن الرشاش الفارغ بواحد آخر ممتلىء...

وفي الختام قام الأربعة بقذف قنابلهم اليدوية واحد تلو الآخر. كانت الانفجارات تصم الآذان والدخان المتصاعد يعمي النظر، ورائحة المتفجرات تملأ هواء القاعدة. وأخيراً دخل السرور إلى قلب جبريل، فرجاله اصبحوا الآن على استعداد لمواجهة مصيرهم.

كانت ساعة الصفر قد تحددت في الأساس في 11/11/1987 وهو يوم افتتاح مؤتمر المجلس الوطني الفلسطيني في العاصمة الأردنية عمان. وقدر جبريل بأن الضرر الذي يمكن لأربعة مسلحين انتحاريين التسبب به داخل مدينة إسرائيلية سوف يدفع تعهد منظمته، وجبهة الانقاذ الوطني الفلسطيني بعرقلة أية مفاوضات مع إسرائيل إلى مقدمة جدول الأعمال الفلسطيني. لأن منظمة التحرير الفلسطينية بقيادة عرفات كانت قد بدأت في ذلك الوقت باكتساب شرعية واحترام دولي، من خلال علاقاتها الخارجية واندفاعها الديبلوماسي في أوروبا.

وكان من الواضح أن عرفات يتجه نحو مفاوضات سلمية مع إسرائيل. . ولذلك كان التخطيط لعملية قبية يمثل الاختراق الفلسطيني الحقيقي ـ ليس لكونها عملية نموذجية جريئة وعنيفة ضد الدولة اليهودية فحسب، وإنما لما تمثله من قدرة على اسقاط المعتدلين الفلسطينيين ـ حتى عرفات إن أمكن ـ من قيادة منظمة التحرير الفلسطينية. وكان الغرض الثاني من توقيت عملية قبية، هو أن تتوافق مع موعد انعقاد مؤتمر عمان الذي أريد منه التأكيد على دور سوريا في دعم المقاومة الفلسطينية.

في أوائل تشرين ثاني بدأ نقل الطائرات، وطياريهم الانتحاريين إلى منطقة الانطلاق في وادي البقاع.

وقد جرى نقل الطائرات، والرجال تحت غطاء بالغ السرية. ونفذت إجراءات تمويه وتغطية عملية النقل بشكل يتجنب أعين القرويين المتطفلين خشية أن يكون البعض منهم عملاء لإسرائيل، وبشكل يتجنب أيضاً أعين طائرات الاستطلاع الإسرائيلية أو عربات اطلاق طائرات التجسس الموجهة بلا طيار. . ويمكن تصور الرغبة السورية بالانتقام من إسرائيل على قضية تفجير طائرة العال في لندن من حقيقة أن السوريين سمحوا بانطلاق الهجوم من وادي البقاع الأوسط الذي يمثل جزءاً من مناطق سوريا الكبرى الهام استراتيجياً في مواجهتها لإسرائيل، فتلك المنطقة لا يجازف السوريون فيها أو يكشفونها للملاحقات العادية. .

لكن ما لم يستطع جبريل السيطرة عليه، هو الطقس فبواكير امطار الشتاء اخذت تهطل فوق جنوب لبنان وشمال إسرائيل في الساعة الأولى من فجر ساعة الصفر. أدى انهيار المطر إلى تبديل مواقيت الانطلاق بالعملية إذ جعل منطقة الانطلاق مليئة بالمياه. كما كانت الرؤية غير واضحة في وضع جوي يمكن أن يستمر لاسبوعين. لذلك صدرت الأوامر للطيارين بأن يثبتوا في مواقعهم وينتظروا. وهكذا تبدلت ساعة الصفر للانطلاق لتصبح ليلة 25/ 11/ 1987.

أي عندما توقع المختصون بالطقس هبوب ريح جنوبية قوية، ووضوح في الرؤية.

اليوم 25 تشرين ثاني 1987 ـ الساعة 20,30 على قمة مرتفعة في وادي البقاع

جلس الطيارون في طائراتهم تحت غطاء محكم من أشجار الأرز. وتلقى الأربعة كمية من السكر والبروتينات، وكما قالت بعض التقارير تزودوا بكميات لا بأس بها من الامفيتامينات. وقدموا التحية لقائد «الرواد» للمرة الأخيرة وبعدئذ قاموا بتفحص طائراتهم ومحركاتهم المزودة بمحرك احتياطي خفيف الوزن مثبت على الطائرة لتحقيق سرعة أكبر. وبعد أن قام أحد الضباط بالاتصال بدمشق، عبر اتصال سري، أعطي الضوء الأخضر بالانطلاق. وقف الطيارون الأربعة في خط واحد وكأنهم في مطار دولي، منتظرين الاشارة التي ستنبعث من ضوء كاشف، وأخذ كل منهم يمسك بمقبض الطائرة الشراعية، لاستخدامه في وضعية التحليق. وبعد أن وصلوا إلى مستوى السرعة القصوى مقتربين من المنحدرات قاموا برفع سيقانهم إلى الأعلى ليبدأ التحليق البطيء والثابت في الجو..

كان عليهم البدء بالهجوم حسب تقديرات جبريل في الساعة 22,00 على أقصى حد، إلا أنه لسوء حظ جبريل تعرضت عملية قبية لمعوقات أولية. إذ وقعت اعطال في طائرتين وتحطمتا على بعد أميال من منطقة السيطرة الأمنية الإسرائيلية في الجنوب. كما واجهت الطائرة الثالثة التي قادها ميلود ناجح بعض الصعوبات الميكانيكية وهبطت في الحلقة الخارجية لمنطقة السيطرة الأمنية الإسرائيلية التي تحرسها وحدات الجيش الإسرائيلي وجيش جنوب لبنان. ولم تتطابق مع الخطة سوى طائرة خالد أكر فقد طار على طول الخط المشجر تماماً، مثلما صدرت الأوامر، لتجنب الردارات الإسرائيلية. كما تنبه لتجاوز القرى ومواقع المراقبة المتقدمة للجيش الإسرائيلي التي حددها له السوريون. مما يدل على أنه قام بتحليق محفوف بالمخاطر. وقد فشل الرادار الإسرائيلي في المنطقة الامنية الإسرائيلية في التقاط تلك الطائرة بطيئة الحركة. خفيفة الوزن، ولقد جعلها حجمها الصغير وقطعها المعدنية المحدودة والغطاء القماشي نوعاً من المخلوق الذي يسهل تسلله. وبسبب مرورها على ارتفاع شديد الانخفاض، فقد موهت الأشجار والتلال المحيطة حركتها على ارتفاع شديد الانخفاض، مما استحال اكتشافها على الرادار أيضاً. لكن محرك الطائرة الصغير كانت تنبعث منه ضجة قابلة للسمع.

في داخل الحدود الإسرائيلية تماماً عند احدى التلال، صدر صوت واضح من احدى الطائرات حين كانت تحلق فوق وحدة مسلحة. وبينما كان أحد قادة الدبابات منتصباً وسط البرج يحملق عبر نظاراته الميدانية الليلية (التي تعمل على الانفراريد) بحثاً عن «إرهابيين» سمع صوتاً قادماً ذكره بمحرك الدبابة كما سمع بعض الجنود الآخرين أيضاً ذلك الصوت واتخذوا حالة الدفاع واستلوا رشاشات «غليلون»، وجهز الملقم وقائده مدفع رشاش البرج من عيار 50 كاليبير. وكما قال أحد الجنود: «كان الصوت يصدر (تاك ـ تاك ـ تاك ـ تاك) ما يشبه صوت محرك قارب صغير أو ما يشبه صوت دبابة بعيدة. أما الأمر الذي أثار الغموض فهو أن الصوت صدر، وتوقف خلال ثوان معدودة.» ويضيف الجندي: «وبلمحة عين افترضت ان «الإرهابي» شاهدنا فأطفأ محركه».

واستناداً إلى المعايير الرسمية للجيش الإسرائيلي، قام قائد الدبابة بالابلاغ عبر اللاسلكي، عن الصوت طالباً تحليق طائرة خفيفة فوق موقعه، ومرورها نحو المواقع المتقدمة. ورغم كل شيء لم يظهر الفزع على الضابط الشاب إذ ربما تكون هذه مجرد طائرة إسرائيلية بدون طيار، في طريق عودتها من مهمة فوق لبنان. لكنها للأسف لم تكن طائرة إسرائيلية فعند الساعة 21,15 أعلنت فوراً حالة انذار عام في جميع أرجاء شمال إسرائيل. إذ تأهبت الوحدات المتمركزة عند السياج وصدرت لها الأوامر بتوقع هجوم «ارهابي» في وقت ما من تلك الليلة.

ولكي تكمل المأساة لم تتعامل جميع الوحدات الموجودة على طول الحدود اللبنانية مع حالة الانذار بجدية. أما المواقع الدفاعية المتقدمة، فقد انتشر فيها الجنود بألبستهم الواقية للرصاص، وبأسلحتهم ودورياتهم المتنقلة لتأمين حراسة الكيبوتسات والمستوطنات المنعزلة في المنطقة.

كما أطلقت صفارات الانذار في أرجاء الجليل، وأمر سكان كريات شمونا وكيبوتس دان بالنزول إلى الملاجىء. وقامت الطائرات المروحية للاستطلاع التابعة لسلاح الجو من نوع بيل (206). وطائرات الهليوكبتر الهجومية، بالانتشار فوق المنطقة الأمنية دون أن يعثروا على أي دليل على وجود نشاط «ارهابي» في

السماء. حتى أن طائرة هليوكوبتر من نوع كوبرا كان يقودها الكابتن (أ) دارت حول كريات شمونا خلال نصف ساعة، عدة مرات، وهي تبحث عن هدفها التي أمرت بتدميره على الفور، دون تمكينه من الهبوط على الأرض، ولكن دون جدوى، فقد أصبح الوقت متأخراً إذ كان خالد أكر قد هبط للتو داخل الأراضي الإسرائيلية. وعند الساعة 21,50 أوقف أكر محركه وأجرى هبوطاً ناعماً في حقل كثير الأشواك، مجاور لساحة هبوط معدة للطائرات المروحية على بعد عدة مئات من الياردات من معسكر «غيبور»* التابع للجيش، الإسرائيلي، وهو معسكر صغير بجانب «بيت هيليل» كانت تقيم فيه وحدات مسلحة من (الناحال). قام خالد أكر بحل نفسه عن الطائرة، ووضع أخمص بندقية الكلاشينكوف على كتفه اليمنى بحيث يصبح برسغه قادراً على اطلاق النار بيد واحدة، ووضع كاتم الصوت على مسدس التوكاروف بيده اليسرى ثم مشى عدة ياردات إلى الأسفل عند الطريق العام لكريات شمونا وكيبوتس دان، وتوقف لبضع ثوان لتقييم موقعه.. مرت خمس دقائق وما تزال المنطقة هادئة لم يشاهد أحداً وهو يهبط. وبعد مسافة قصيرة في الطريق، ظهرت أضواء سيارة تابعة للجيش الإسرائيلي من نوع بيجو بيك آب حيث كانت تتجه من الشرق نحو معسكر (الناحال) على قمة التلة.. ولم يكن سائق البيجو الملازم أول ليرون بينيتي وصديقته ـ العريف تامي آربيل على دراية بحالة الانذار العام، التي أعلنت في كل أرجاء الجليل ولذلك لم يتخذا أية احتياطات.

ثم ظهر خالد أكر فجأة من الحفرة التي اختبأ بها، عندما كانت البيجو تقترب وأخذ يطلق النار من الكلاشينكوف كانت المفاجأة حاسمة ـ إذ أصابت بعض الطلقات الملازم أول، وسببت للفتاة جراح خطيرة، وهكذا بدأت رسمياً ليلة الطائرات الشراعية كما أخذت تعرف. وبدل أن يتوجه خالد أكر غرباً باتجاه كريات شمونا تقدم باتجاه الجنوب، مجتازاً 150 متراً من الطريق الوعر، ليتوجه نحو معسكر «غيبور». و لو نبه اطلاق النار حامية القاعدة، ودفعها لاتخاذ

* تعني عبارة «غيبور» بالعبرية «البطل» مما يدل على أن المعسكر كان يضم وحدات خاصة.

الخطوات الدفاعية فوراً، وكذلك لو تهيأت الأسلحة، وتجهزت للمعركة وأغلقت البوابة الأمامية، لكان على هذه المعركة أن تنتهي بنار دفاعية مستعرة. وكما تقول تقارير الجيش الإسرائيلي الرسمية «انه لو حدث ذلك لما نجح أكر أبداً في الوصول إلى مسافة خمسين متراً من البوابة الأمامية». كان حارس البوابة سيء الحظ في ذلك المساء هو العريف رون الموغ ـ أو «شين غيميل» آي (شين جيم)، وهو جندي قليل الخبرة القتالية ومن سوء حظه أنه وجد في الوقت غير المناسب بالمكان غير المناسب. فبدلاً من أن يتقدم صارخاً: «توقف عرف عن نفسك وإلا أطلقت النار» وهو الإجراء المتبع في الجيش، إلا أنه تجمد في موقعه..

وعندما قام أكر بإخراج قنبلة يدوية من نوع (ف1) روسية الصنع، وقذف بها نحو العريف «الموغ» 19 عاماً، الذي كان يقف عند الغرفة الخشبية للحراسة ـ فرّ «الموغ» مذعوراً. كان حظ أكر كبيراً فالآن لم يعد هناك معوقات تعرقل دخوله إلى القاعدة. لا شيء يحول دونه للقيام بمذبحة.

كانت الساعة آنذاك 21,56 عندما عبر البوابة الرئيسية واللوحة التي كتب عليها «أهلاً وسهلاً بالقادمين إلى المعسكر غيبور».. أخذ أكر الذي يمتلىء جسمه بالقوة من الامفيثامينات والادرينالين،* يقفز في جنبات المعسكر قاذفاً قنبلة يدوية في مبنى يضم العربات، حيث دمر عدداً منها جراء الانفجار الهائل والحريق الضخم الذي نجم عنها.. وفي وقت واحد بدأ أكر بإطلاق النيران بكلتي يديه وسلاحيه، ثم تقدم نحو مجمعات سكن القاعدة حيث تجمعت سلسلة من الخيام والأبنية الخشبية في صفوف مستطيلة الشكل. و الجدير بملاحظته أن أكر لم يواجهه أحد أثناء إطلاق النيران الغزيرة فكما قالت تقارير تحقيقات الجيش الإسرائيلي الرسمية، كان معظم الجنود إما نائمين أو يلعبون بالورق.

كان هناك جنديان يجلسان داخل كانتين المعسكر استعداداً لدورهما في الحراسة، حيث خرجا من الخيمة الكبيرة، وما كادا يشاهدان ما يجري حتى

---

* رغم أن المؤلف الصهيوني يعترف بقوة الفدائي خالد أكر إلا أنه يربطها بقدرات اصطناعية طارئة ناجمة عن الفيتامينات وليس عن الإرادة والصلابة والإيمان بقتال العدو الصهيوني..

عاجلتهما الطلقات النارية، كومض البصر فسقطا في مكانهما. حاول جنديان آخران القفز من خيمة إلى أخرى، لكن خالد أكر كان لهما بالمرصاد فقتلهما على الفور بطلقاته النارية التي كان يطلق منها المئات داخل المعسكر حتى بدا وكأن المعسكر يشهد حفلاً من الألعاب النارية. خلال أقل من دقيقة قتل أربعة جنود إسرائيليين، وأصيب الكثير بجراح خطيرة جراء شظايا القنابل اليدوية الطائرة ونيران أكر. . عند سماع اطلاق النيران الأولى انطلق الملازم أول يعقوب فايار 22 عاماً نائب قائد مجموعة نحو سيارته، من نوع بيجو ـ تندر وصعد إليها، وانطلق نحو التجمع المركزي للمعسكر للقيام بدوره كقائد لأسوأ سيناريو يحدث، رجل واحد مسلح بكلاشينكوف، ومسدس يفتح ذخيرته ويصبها على تلك الخيم. حاول فايار دهسَ أكر فضغط على بدالة الوقود، لكن جهوده باءت بالفشل إذ اتخذ أكر لنفسه موقعاً، بعد أن شاهد السيارة البيجو، وأفرغ مخزناً كاملاً من الرصاص فيها، وقتل فايار على الفور.

فجأة وبما يشبه المعجزة ظهر الرقيب أول جدعون بشاري مسؤول صيانة القاعدة بين الخيم، وسمع أكر على الفور صوت تلقيم رشاش «غليلون» فتحول نحوه. وبثانية واحدة أطلق كل منهما نيرانه على الآخر. حيث أصيب بشاري في ساقيه وكتفه، لكنه نجح في اطلاق صلية من مخزن رشاشه من عيار 5,56 ملم مباشرة إلى رأس خالد أكر. وأخيراً توقف سقوط القتلى في أقل من دقيقتين، كان خالد أكر قد قتل ستة جنود من (الناحال) وجرح سبعة آخرين بعد أن أفرغ ثمانية مخازن كل واحد بـ 30 طلقة عبر صليات سريعة، وقذف خمسة قنابل يدوية.

وعندما توقف القتال دب بالمنطقة نشاط هائل، الطائرات المروحية، وأصوات الاتصالات اللاسلكية تتدفق لإطفاء الحرائق، وانقاذ الجرحى في معسكر غيبور، الذي تجمع حوله جنود وحدات مجاورة ـ كما بدأت تشكيلات المدفعية المتمركزة في المنطقة بإطلاق قذائف الإنارة إلى السماء وأعلنت قيادة الأركان حالة الانذار القصوى في كل مناطق الشمال.

والحقيقة أن رئيس الأركان دان شومرون، بطل عملية «عنتابة» الشهيرة لم

يكن لديه سوى صورة محدودة، عما كان يجري في شمال إسرائيل، وكان لديه مخاوف من وقوع هجوم «إرهابي» واسع النطاق على الجبهة الشمالية. ولو ثبتت صحة هذه المخاوف، فهذا يعني وجود تقصير استخباراتي إسرائيلي خطير جداً يكسب «الإرهابيين» نصراً كبيراً في ميدان العلاقات العامة في الوطن العربي.

وقبل تحليل جميع التقارير القادمة من شمال إسرائيل أصدر شومرون أوامره لعدد من وحدات النخبة العسكرية للانتشار ومطاردة أي «إرهابي». وكان من بين هذه الوحدات عناصر من قوة «يا. ما. م»، وهي قوة حرس الحدود المتخصصة في مهام انقاذ الرهائن من أيدي «الإرهابيين» وكذلك من الوحدات السرية التابعة لقوات رئاسة الأركان للاستطلاع ـ «سابيريت ماتكال».

خلال تلك الساعة الطويلة ليلاً قامت الآلاف من قوات الجيش بتفتيش واسع النطاق داخل الجانب الإسرائيلي بالحاجز الأمني. واستخدمت وحدات المدرعات من نوع «ميركفا» لحراسة طرق الحدود الشمالية، بحثا عن «إرهابيين» آخرين. كانت المنطقة كلها تعيش دائرة الارتباك والخوف. وأعلن حظر التجول، ومنع مئات الألوف المواطنين مغادرة منازلهم وصدرت الأوامر بإغلاق أبواب ونوافذ جميع المنازل، حيث قضى الكثير من السكان ليلتهم بلا نوم، وهم يحدقون في النوافذ، وأيديهم قابضة على أسلحة العوزي. وأخذ المئات من سكان الجليل الذين أفزعهم هذا الوجود المكثف لقوات الشرطة والجيش بإغراق خطوط اتصالات الطوارىء مع الشرطة ببلاغات عن رؤيتهم لطائرات قادمة (كانت معظم البلاغات تتخيل الطيور المحلقة على ارتفاعات منخفضة بأنها طائرات). وأخذت عربة قائد المنطقة الشمالية يوسي بيليد من نوع «جيب بليزر» 4×4 تنطلق على الحدود الشمالية في ذلك الصباح لقيادة عمليات البحث، والتنسيق، والسيطرة ضمن جهود التفتيش عن مزيد من «الإرهابيين». بدأت رياح باردة تهب عند الفجر مما أعاق الدوريات والجنود الذين لم يناموا طوال تلك الليلة، وما كان يحركهم سوى الرغبة بالانتقام لمقتل رفاقهم. وكان سبب اتساع عملية البحث والتفتيش وصولاً إلى لبنان، هو احتمال وجود المزيد من المسلحين عبر ذلك الحاجز الذي يؤمن سلامة الحدود. في النهاية وعند الساعة 8,30 من صباح 26/ 11/ 1987 عثر

الإسرائيليون على ضالتهم. فقد اكتشفت طائرة مروحية إسرائيلية من نوع كوبرا كانت تحلق فوق منطقة الحدود «جسماً غامضاً» ظهر وكأنه خيمة انهارت قوائمها داخل الأراضي اللبنانية 700 م شمال الحاجز حيث سمع صوت وقوعها طاقم الدبابة. قامت على الفور قوة كبيرة من قوات المظليين والدبابات والعربات المسلحة، ومن قوات كوماندو (يامام) بعبور الحدود بحثاً عن «الإرهابي» ميلود بن ناجح الذي كان يختبىء خلف سلسلة صخور بانتظار طلوع النهار للهرب والعودة إلى الخطوط السورية. لكنه لم ينجح، فبعد مطاردة دامت 15 دقيقة حوصر ميلود وقتل في معركة سريعة. وإذا كانت الإحدى عشرة ساعة التي استغرقتها عملية ليلة الطائرات الشراعية، قد مضت، إلا أن صدى مضاعفاتها ما يزال حياً في المنطقة بأسرها.

في اليوم التالي قام الجيش الإسرائيلي بدفن الموتى: الضابط الشاب ليرون بنيتي الذي كان على وشك الزواج، والرقيب دانييل ميلير 21 عاماً مهاجر جديد من بريطانيا تطوع للخدمة في الحدود، والعريف بنيامين بيستيرمان 20 سنة محارب ذو خبرة جيدة، والعريف نيف خازون 19 عاماً الذي كان يخضع لدورة ضباط، والعريف غي نتانيل، والملازم الأول فايار. كانت جنازة الستة مهيبة هادئة بطقوس ملأها الحزن الذي تحول إلى قلق، وصدمة للشعب مما جرى في الشمال. كان الجنود يذرفون الدموع علانية، عندما سحبت الأعلام من التوابيت لادخالها إلى الحفر بينما كان حرس الشرف يطلق آخر تحية. وانهارت المجندات اللواتي كان العديد منهن في وحدات (الناحال) وخدمن في معسكر غيبور. بسبب الحزن والصدمة. كانت معنوية معسكر غيبور المتضرر تدق بصداها وجدان كامل الشعب. كان الجنود يتجولون في المعسكر وهم في حالة ذهول مما يرونه، بينما كان رجال الشرطة العسكرية والمحققون يلتقطون الصور لبقع الدماء، ويصنفون الأدلة.. كان الشعور بالفشل والخسارة يحيط تلك القاعدة النموذجية التي كانت تشرف على الجليل الساحر، وتلال جنوب لبنان. كان الكثير من الجنود ببنادقهم المتدلية على اكتافهم جالسين في الموقع المحطم على الأرض الموحلة يحملقون بالفراغ، أما المجندات فجلسن عند البوابة الرئيسية وأخذن ينفثن دخان سجائرهن.

كلفت العملية جيشاً صغيراً، من علماء النفس التابعين للجيش الإسرائيلي بهدف ابعاد الشعور بالذنب والخسارة عن الكثير من الجنود الإسرائيليين.

لقد اعتبر فشل وحدة «الناحال» في ليلة الطائرات الشراعية، بمثابة عار وطني وكارثة من الاهمال والجبن عند الكثير من الإسرائيليين. إذ عرض نموذج صغير من الطائرات يستخدمه الهواة ولا يزيد سعره عن عدة آلاف من الدولارات للخطر وللضعف شعب بكامله.

كان المزاج الوطني يتملكه القلق، فقد بثت إذاعة الجيش (غالي تسهال) ومحطة راديو الجيش أنباء كثيرة عن الحادث عبر الأغاني الحربية والحزينة أسفاً على الجنود الذين قتلوا. وربما بثت الأغاني الوطنية أيضاً، لتعزيز صمود الشعب مثل أغنية ـ نجم البوب ـ غالي أتاري «هذه بلادي الوحيدة»، والتي تؤكد كلماتها على أنه مهما حصل من السوء، فإسرائيل هي البلاد الوحيدة للشعب الإسرائيلي*.

أما الشعور في دمشق فقد كان مغايراً تماماً. فقد انسر كثيراً من نتيجة المذبحة التي وقعت في شمال إسرائيل وزير الدفاع السوري الجنرال مصطفى طلاس الذي كان رئيس أركان سابق، وعضو بارز في حزب البعث، ممن كرس حياته كلها للنضال ضد إسرائيل. وأتاح نجاح العملية للسوريين الثناء علناً على الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ.

ففي مؤتمر صحفي في دمشق، اعترف طلاس علناً وبافتخار بأن الضباط السوريين ساعدوا قوات جبريل في شن هجوم الطائرات الشراعية على شمال إسرائيل.. بل وتابع قائلاً: «إن سوريا تقدم دوماً دعماً للكفاح المسلح ضد قوات الاحتلال الصهيوني».. وأضاف: «إن شجاعة الطيار خالد محمد أكر الذي شارك بعملية الهجوم في شمال فلسطين، وقتل في المعركة قد جعلته يقتل ويجرح 37 ضابطاً صهيونياً».

---

* هذا العرض والوصف الذي يقدمه الكاتب الصهيوني يدل بشكل واضح على امكانية هزيمة العدو ـ فقد هزت العملة̃ي كيان إسرائيل كله باعتراف العدو...

ورغم هذه العبارات الطنانة، إلا أن هذا القول يشكل ما يشبه اعلان حرب رسمية على الدولة اليهودية.

كان السوريون مسرورين جداً لرؤية الإذلال، والفشل الذي وقع به الإسرائيليون بعد أن شهدوا حوادث مريرة على أيدي الجيش الإسرائيلي خلال سنوات طويلة. ولذلك كانت ليلة الطائرات الشراعية، تمثل الانتقام (الحلو المر) لهم. وقد اجبر الإسرائيليون على الاعتراف بهذا النصر العربي الرديء حين ظهر المحللون العسكريون الإسرائيليون على شاشات التلفزيون، وأثنوا على «رامبو الفلسطيني» الذي تمتع بمهارة وتصميم رائعين.. كما أجريت مقابلة مع رئيس الأركان دان شومرون في مؤتمر صحافي، وإلى جانبه نائبه اليهود باراك وقد ظهر عليه الارتباط من هذه الكارثة حيث يتساءل بشكل خطابي: «كيف يمكن أن يحدث هذا!؟ ارهابيٌ واحدٌ يقتل ستة جنود ويجرح سبعة آخرين؟!» «إننا لن نستطيع تحمل واقعة كهذه». وتحمل العقيد (ي) قائد لواء (الناحال) المسؤولية الكاملة عن هذا الفشل حتى أنه قدم استقالته (وقد نقل فعلاً لتولي مهام أخرى).

وكشفت تحقيقات داخلية في الجيش الإسرائيلي، بإشراف قائد المنطقة الشمالية يوسي بيليد بأن أجهزة المخابرات الإسرائيلية كانت قد أعطت الوحدات الشمالية التحذيرات الكافية، حول إمكانية قيام محاولة تسلل «ارهابية» محمولة جواً، لكن قائد لواء الناحال أخفق في نشر المعلومات، بالشكل المناسب على وحداته. كما أن السبب الفعلي في إخفاق الإدارة والسيطرة هو حارس البوابة التعيس العريف رون الموغ الذي خضع لمحكمة عسكرية لاخفاقه في مواجهة العدو، وقضي عليه بالحبس مدة سنة.

وفي بيروت كان المسؤولون بالقيادة العامة، يتطلعون إلى استثمار هذا الكنز الجديد في العلاقات العامة. فقد ادعى رجل قدم نفسه بأنه قائد الوحدة الجوية للجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ مستخدماً اسم أبو ثائر في مقابلة مع مجلة الشراع اللبنانية المؤيدة لسوريا، بأن تلك المهمة كان يخطط لها منذ سنة، وأنه اعطى أوامر صارمة لرجاله بعدم مهاجمة أية أهداف مدنية حول كفار يوفال، أو كفار

جلعادي، أو الخالصة الاسم العربي لكريات شمونا قبل عام 1948 ـ حتى جبريل الغامض والخجول من الاعلام أعطى مقابلة للسفير « جريدة لبنانية» تعهد فيها «بأن يصبح مستقبل إسرائيل مظلماً ـ الليبيون الآن يدربون كوادرنا على قيادة طائرات ثقيلة للقيام بعمليات انتحارية ضد الكيان الصهيوني».

أما بالنسبة لإسرائيل فقد أصبح حاضرها معرضاً لرياح جارفة. فليلة الطائرات الشراعية أخذت تبدو لطيفة، بعد زمن قليل عند مقارنتها بما ولدته من نتيجة هي فترة اليأس، وانتشار العنف الذي لم تتمكن من السيطرة عليه حتى يومنا هذا..

كانت جميع الاحتمالات تشير إلى أن إسرائيل سترد وتنتقم فوراً على مذبحة الجليل. لكنها لم تفعل. كانت الوحدات الفلسطينية في جميع أرجاء الجنوب بحالة إنذار قصوى، وكانت المناوبة على بطاريات المدفعية المضادة للطائرات، لا تتوقف طوال الأربع والعشرين ساعة، توقعاً للرد الإسرائيلي الانتقامي. كما سادت مخاوف كبيرة من أن إسرائيل ستقرر توجيه ضربة إلى سوريا لدورها في الهجوم. علماً أن خطوة انتقامية ضد المواقع السورية يمكن أن تؤدي فعلاً إلى اندلاع حرب عربية ـ إسرائيلية شاملة..

حتى أن رئيس الوزراء اسحاق شامير حاول بعد حضوره جنازة جنود الناحال رئاسة جلسة لحكومته لمناقشة الإجراءات العسكرية، والسياسية ولكنه لم يتخذ شيئاً.

فعلت العملية الناجحة لخالد أكر بالرأي العام الفلسطيني إلى وضعية التحدي.. وربما كان عرفات أفضل من عبر عن هذه الحالة عندما أثنى على خصمه اللدود أحمد جبريل على عمليته في الجليل قائلاً: «لقد نسفت هذه الغارة أسطورة الأمن الإسرائيلي» ومع ذلك أضاف معبراً عن خوفه من انتقام إسرائيلي «بأن لا علاقة لمنظمة فتح بهذه العملية».

وكانت الأسطورة قد تدمرت فعلاً، وبشكل قاسٍ إذ كان الفلسطينيون المقيمون في الضفة والقطاع مجبرين خلال العشرين سنة الماضية على اعتبار الجندي الإسرائيلي ليس جندي احتلال فحسب وإنما جندي متفوق (سوبر) قادر

على القيام بأعمال بطولية. فمن حرب حزيران إلى عملية عنتابة كان الجيش الإسرائيلي « يقهر» باستمرار الجيوش العربية التقليدية في المعارك، كما كان يحبط في الوقت نفسه جهود المنظمات «الإرهابية» الفلسطينية الساعية إلى نشر، وتصعيد الكفاح المسلح كطريق على درب التحرير. كان الفلسطينيون يتطلعون إلى الجندي الإسرائيلي باحترام حسود وبإعجاب حقود. ولم يكن الفلسطينيون في تلك الفترة يقومون بمحاولات للتظاهر أو الاحتجاج، أو الانتفاض بل حتى منظمة التحرير الفلسطينية لم تحثهم على القيام بمحاولات كهذه، بسبب خوفها من قدرة الجيش الإسرائيلي على سحق أية عمليات تمرد او انتفاض بفعالية تامة..

لكن ليلة الطائرات الشراعية أدت إلى تغيير كل شيء..

ففي ليلة واحدة تقريباً، حول أحمد جبريل المقاتل الإسرائيلي من ايقونة سحرية إلى هدف ملموس يمكن ضربه. وكان هذا التحول قد لاقى تعبيره عند الشباب الفلسطيني، خاصة، وعند الجماهير التي حررتها عملية الطائرات من الوهم وبخاصة الجماهير التي تعيش في أزقة قطاع غزة ومخيماته السبعة..

فقد أصبح أفراد دوريات الجيش الإسرائيلي في القطاع يجدون أنفسهم هدفاً للشتائم الكلامية، واللعنات بل أخذوا يتعرضون لهجمات بأيدي السكان. حتى أن مجموعة من القادة الإسرائيليين لاحظت هذا التغير المفاجىء في المعنويات بين سكان القطاع، ونبهت بشكل محذر القادة الكبار من هذا التطور المقلق.

حدثت الفرصة الأولى للمجابهة بين الفلسطينيين والإسرائيليين في 29/ 11/ 1987، وهو اليوم الذي يصادف ذكرى تقسيم فلسطين عام 1947 عندما ظهر على المتظاهرين غضب بشع.. ثم جاءت عملية قتل رجل الأعمال الإسرائيلي في قلب غزة. تلاها عمليات البحث التي أجراها ـ الشين بيت والجيش الإسرائيلي ـ عن القتلة، ثم حظر التجول الحتمي، والإجراءات الأمنية التي تتابعت بشكل سريع.

كانت المناطق الفلسطينية قد أغرقت بتغطية نشرات أخبار التلفزيون الاردني لعملية الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ كما كانت الإذاعة السورية تثني على القيادة العامة لعملياتها الثورية، مما جعل المناطق في حالة غليان متفجرة. فتلك الليلة

المصيرية التي مرت على الجليل (يقصد ليلة الطائرات الشراعية) أعطت الفلسطينيين أبطالاً متجددين وأزالت حاجز الخوف الذي كان يحمي الجيش الإسرائيلي وأقنعت الكثير من الشباب الفلسطيني، وطلاب الجامعة الواعين سياسياً بأنهم لن يتخلصوا من الاحتلال الإسرائيلي، إلا إذا تولوا هم بأيديهم مسؤولية طرده.

أما الخطوة التي شكلت انطلاقة العمل الشامل ضد الإسرائيليين، فهي لم تنجم عن جهد منسق خطط له قادة الخلايا السرية في المناطق الفلسطينية المحتلة، أو قادة منظمة التحرير الفلسطينية في تونس، وإنما نجمت عن مظاهرة غاضبة حاقدة سريعة الاشتعال. . فالوضع كان حساساً وكل ما يلزمه شرارة الاشتعال. وقد جاءت فعلاً هذه الشرارة بسبب حادث لم يكن متعمداً.

ففي 8/ 12/ 1987 وقع حادث اصطدام مميت في مخيم جباليا، عندما دهست سيارة شحن كان يقودها سائق إسرائيلي أربعة عمال فلسطينيين دفعة واحدة، فحالة دهس مميتة لسيارة ما كان لها أن تثير انتباه بارز، خاصة وأن حوادث السير المأساوية هي حالة عامة* . . على أية حال ظهرت بعد ذلك فوراً شائعات تقول بأن سائق الشاحنة هو أحد أقرباء رجل الأعمال الإسرائيلي، الذي قتل في غزة قبل أيام وأن عملية الدهس القاتلة للأربعة، كانت بمثابة انتقام شرير تواطأت معه الحكومة الإسرائيلية كعقاب للسكان. بعد قليل أخذت تندلع حوادث شغب صغيرة. لكن قائد المنطقة الجنوبية الميجر جنرال يتسحاق مردخاي لم يعتبر هذه الحوادث منذرة بشرٍ أكبر. تم أخذت «حوادث الشغب» والتظاهر تتكثف بسرعة مذهلة. ففي البدء ظهر الآلاف من الشباب، وهم يهتفون «الجهاد، الجهاد، الجهاد»، في وجه الاعداد المتزيدة من جنود الجيش الإسرائيلي التي أرسلت لحماية المنطقة. وبعد قليل أخذت الحجارة والزجاجات الفارغة تقذف في وجه الجنود، وكحالة عكسية مضحكة لأسطورة دافيد أمام «جوليات» استخدام الجيش الدروع للوقاية من الحجارة. وعندما حل الظلام أخذت زجاجات المولوتوف

---

* دهس أربعة شباب فلسطينيين حادث غير متعمد!؟ من يصدق هذا!؟

تتساقط على عربات حرس الحدود الإسرائيلي وسحبت اطارات السيارات من الكاراجات المجاورة، ووضعت فوق بعضها لتضرم فيها النيران ثم أخذت تظهر آلاف الأعلام الفلسطينية المحظورة على أعمدة الكهرباء، وهوائيات التلفزيون. كما جرت محاولات لمهاجمة العربات المصفحة الإسرائيلية وسرقة أسلحة أفرادها. .

تلاشى القانون والنظام نهائياً، في لحظة واحدة من الإحباط والغضب. وهكذا بدأت الانتفاضة.

انتشر «الشغب والفوضى» بعد قليل في جميع أرجاء قطاع غزة، وبعد أيام انتشر في الضفة الغربية. لم تستطع قوات الجيش الإسرائيلي الرد على هذه الوضع الجديد إلا بشكل هزيل. رغم أنها استخدمت قوات تطلق النار على قاذفي الحجارة.

لم تؤد عمليات القتل الإسرائيلي إلا لزيادة التوتر، وتصاعد مستوى العنف إلى درجات جديدة، وملتهبة بشكل لا يصدق. كان أحد العوامل التي أدت إلى انتشار نيران الانتفاضة، هو غياب الحل الإسرائيلي الحاسم. فكم كان الأمر محرجاً لجيش مشهور بالتغلب على الأوضاع المستحيلة، أن لا يكون لديه سياسة محددة إزاء ما يجري، خاصة وأن منظمة التحرير الفلسطينية نجحت في خلق الوهم بأنها القوة الوحيدة التي تدير، وتسيطر على العنف من خلال أوامرها السرية التي كانت ترسلها إلى السكان عن طريق رسائلها المشفرة التي تذاع من راديو ـ مونت كارلو. كان وزير الدفاع يتسحاق رابين ورئيس الأركان دان شومرون يدركان جيداً أنهما في مواجهة نضال سياسي، لا يمكن للديمقراطيات الغربية سحقه بالوسائل العسكرية.

وفي حين كان الجيش ينتظر السياسيين ـ أو المعجزة ـ لتهدئة الغضب استمر عدد القتلى بالتصاعد، والكابوس الذي حل على صورة إسرائيل اخذ يكبر ويتسع. فقد تدفق إلى البلاد جيش من مصوري شبكات التلفزيون لتصوير الانتفاضة، تصوير جنود المشاة الإسرائيليين وهم يطلقون النار على الحشود البشرية، أو وهم

يضربون المشتبه بهم بالعصي أو بالقضبان المعدنية المصنوعة منها بنادقهم. . كانت دراما مثيرة تماثل في قيمتها جميع الأنباء المثيرة والهامة من واشنطن حتى وارسو. وأصبح الجيش الإسرائيلي الذي كان يثير الاعجاب يشبه برجال (إلاس أس) التابعين لهتلر، وبقوات القمع في جنوب افريقيا.

وقد أمسك رئيس منظمة التحرير الفلسطينية بزمام المبادرة في ساحة البلدان الأوروبية، التي أخذ رجاله فيها يثيرون اهتمامها، وبدأت بياناته العلنية (كانت تعزى له شخصياً) بالاعتراف بحق إسرائيل بالوجود تجلب له دعماً دولياً، حتى واشنطن قدمت له تلميحات من الاستحسان. وما تزال هذه المبادرة مستمرة حتى يومنا هذا، عبر مساعي السلام الشرق أوسطي.

لقد أوصلت الانتفاضة إسرائيل إلى تهديد، وتقويض أمني لم تعهده الأوضاع الأمنية الإسرائيلية في تاريخ إسرائيل.

ورغم أنه كان من المحتمل لأية عملية «ارهابية» فلسطينية كبيرة يقتل من جرائها، أو يجرح عدد من الإسرائيليين أن تؤدي فعلياً إلى اندلاع انتفاضة شعبية، بهذا الشكل أو ذاك ضد الإسرائيليين إلا أن ليلة الطائرات الشراعية هي التي أطلقت الطلقة على إسرائيل وتسببت باندلاع الانتفاضة.

والغريب أن اندلاع الانتفاضة لم يزد من شعبية أحمد جبريل بين الزعماء الفلسطينيين أو السكان الفلسطينيين في الأراضي المحتلة إلا قليلاً. فالشعبية أو التأييد السياسي الذي يتمتع به زعماء المنظمات الفلسطينية يمكن أن يكشف عن نفسه بطرق مختلفة. فالحارة، أو الحي الصغير، أو حتى المؤسسة العامة، مثل مدارس وكالة الغوث أو مراكز الاعاشة، عادة ما يعلق فيها صورة لزعيم يحبونه، أو يضع الأفراد شعارات تدل على الزعماء على أذرعتهم. وفي الشارع يستدل على الولاء لهذا التنظيم أو ذاك بلون «حطة الرأس» فالموالين لفتح يرتدون السوداء، أما الموالين للجهاد الاسلامي أو حماس ـ تنظيمان اسلاميان ـ فيرتدون الخضراء. والجدير بملاحظته أن القليل كان يؤيد جبريل، ولكن معظم الآخرين يؤيد إما جورج حبش، أو نايف حواتمة بينما يؤيد جبريل حشد صغير من المؤيدين المتطرفين. .

استمرت نشاطات جبريل في عملياته ضد إسرائيل بحيث أصبح من الواضح بعد قليل للعديد من القادة الإسرائيليين بأنه يجب وضع حد حاسم للجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ فقتل الثعبان يستدعي قطع رأسه. .

وعلى جبهة المنظمات الفلسطينية، أثبتت عملية الطائرات الشراعية على أنها أعنف سابقة تمر. . قد حرضت العملية الفصائل الفلسطينية الأخرى في المنطقة على اعادة التفكير في قدراتها الهجومية. إذ شكلت عملية قتل جنود الناحال الستة واندلاع الانتفاضة نقطة تحول في الثورة الفلسطينية، ونقلة كبيرة يتحمل مسؤوليتها جبريل بشكل رئيسي. فعلى الفور قام فصيل أبو العباس ـ جبهة التحرير الفلسطينية بشراء عدد من الطائرات الشراعية والخفيفة الوزن من شركة فرنسية تدعى (لاتيكويره) ـ (جرى ابتياعها رسمياً لصالح الجيش العراقي) كما قام بنفس العملية «عملاء» حزب الله التابعين لايران مستخدمين نيقوسيا ـ قبرص ـ كمعبر تهريب إلى لبنان. والجدير بملاحظته أن ليلة الطائرات الشراعية تحولت إلى صرخة حرب، للكثير من الفصائل المسلحة بالعالم متجاوزة دورها كشرارة أشعلت الانتفاضة. ففي 20 أيلول من عام 1988 حاولت مجموعة مسلحة المانية غربية تنتمي لكوماندو الجيش الأحمر الالماني اغتيال الدكتور هانز تيتماير وزير المالية في الحكومة الاتحادية الالمانية. لكن الهجوم فشل وأعلنت المسؤولية عن المحاولة باسم «الجيش الأحمر وحدة كوماندو خالد أكر» وهكذا أصبح رامبو الفلسطيني رمزاً خالداً في جميع أرجاء عالم «الارهاب» السري.

وأثناء الأيام الأولى لأزمة الخليج عام 1991 وبدء الانتشار الامريكي في السعودية، خشي المسؤولون العسكريون الامريكيون من محاولة المجموعات المسلحة الفلسطينية المتحالفة مع صدام، القيام بهجوم بطائرات شراعية على غرار العملية السابقة.

واستناداً لهذه المعلومات تلقت الوحدات الأمريكية وحلفائها تنبيها حول هذا الخطر واطلعت على الإجراءات الدفاعية ضدها.

كان من الطبيعي لإسرائيل أن تتعهد بالانتقام على هجوم ليلة الطائرات

الشراعية، والانتفاضة التي ولدتها. . . ففي 26/ 11/ 1987 بعد ساعات من دفن جنود الناحال الستة تعهد نائب رئيس الأركان أيهود باراك بأن «منظمة جبريل ستدفع بالوقت المناسب ثمن عمليتها الإجرامية».

جاء تصريحه هذا بمثابة دعوة واضحة للبدء بالعمل، وتطبيق مبدأ التوراة العين بالعين كانتقام لا بد منه.

وبالفعل قامت إسرائيل بردها الانتقامي المنتظر، في 2/ 1/ 1988 حين شن سلاح الجو الإسرائيلي ثلاث غارات طويلة وواسعة على أهداف الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ في لبنان. . ونفذت الغارات في الليل حين تكون قدرة الفلسطينيين على استخدام المضادات الأرضية محدودة. وكانت الأهداف هي ثلاث قواعد للجبهة، الضربة الجوية الأولى على مركز عمليات الجبهة المموه جيداً وسط صفوف أشجار الموز قرب مخيم عين الحلوة، وعلى القواعد العسكرية الفلسطينية الممتدة على ساحل المتوسط، أما الاغارة الثانية فقد ضربت قاعدة مركزية للجبهة في «جايا» بالبقاع بينما دمرت الاغارة الثالثة سلسلة مواقع، كان جبريل يستخدمها هو وضباطه في برجا بالبقاع. وكما قال العقيد (آ) قائد عمليات سلاح الجو الإسرائيلي: «لقد تمكنا بفضل مستوى التخطيط العالي، والتنفيذ التام للمهمات من اصابة كل ما أردنا إصابته. . وانجازات سلاح الجو لا تقاس بعدد من قتلنا، أو جرحنا من صفوف الفصائل وإنما بإجبار «الإرهابيين»، وزعمائهم على العيش بشعور دائم، ومعرفة بأننا سنضربهم في كل مكان يختبئون فيه».

وكانت غارة سلاح الجو الإسرائيلي التي نفذتها عدة طائرات قاذفة من النوع الأول قد واجهت فعلاً مقاومة شديدة. فقد قام مسلحو القيادة العامة خاصة في برجا بإطلاق مئات من قذائف 23 ملم المضادة للطائرات نحو طائرات سلاح الجو القادمة من الجنوب. . ومع أن المسلحين الفلسطينيين لا يمكنهم رؤية طائرات تفوق سرعتها سرعة الصوت، إلا أنهم يستطيعون سماع هديرها أثناء الإغارة. . ومع ذلك أصاب سلاح الجو جميع أهدافه بدقة بالغة ودمرها، وكان الطيارون الإسرائيليون قد أبلغوا بأن مهمة تلك الليلة بالغة الأهمية، وينبغي الانتباه جيداً لتلك الأهداف.

ورغم أن نجاح تلك السلسلة من الغارات في 2 كانون ثاني 1988 لم تحقق سوى التدمير المادي لعدد من الأبنية، ولبعض المعدات، إلا أنها لم تعاقب المسؤولين عن اراقة الدماء بالجليل، كما لم تعطي العمل الوقائي الرمزي الرادع الذي يمنع حدوث المزيد من العمليات «الإرهابية». فمحاولة إسرائيل لتحقيق الانتقام الحقيقي من الجبهة جرت بعد سنة من تلك الغارات.

الفصل التاسع

داخل أعماق التدمير:

14 ساعة في الناعمة

الفصل التاسع

داخل أعماق التدمير: 14 ساعة في الناعمة

أصبحت إسرائيل حوالي عام 1988 بلاد اليأس والغليان، فالانتفاضة بثت الفزع في الدولة اليهودية، وحولتها إلى حالة ارتباك جعلت الشعب غير واثق من اتجاهه ومتشكك بمستقبله. إذ انتقلت مسألة حقوق الفلسطينيين وندائهم لتقرير المصير وتطلعاتهم إلى تحقيق دولة إلى دائرة الضوء دولياً.

ومن الجهة الأخرى وجدت القيادة الإسرائيلية نفسها هدفاً، للتنديد الواسع رغم أن معظم التنديد جاء من منحازين ضدها للطريقة التي تعاملت فيها مع الانتفاضة، حتى أصبح انفجار قنبلة في سيارة عائلة يهودية، يعتبر نتيجة للتوتر الذي كان سائداً منذ زمن طويل، بينما أصبح قتل طفل فلسطيني بنار الجنود الإسرائيليين الموضوع الرئيسي لمناقشات مجلس الأمن، وقراراته الحتمية، بإدانة هذا العمل. ووجد ضباط أفراد الجيش الإسرائيلي بعد وقت قليل بأن كل ما يقومون به يجري أمام أعين الصحافة العالمية. وكذلك أمام أعين الزعماء الإسرائيليين المتشوقين لايجاد كبش فداء بائس لإيقاع المسؤولية عليه، تهرباً من أزمة غير قادرين على السيطرة عليها. وكانت الأوامر الغامضة والمشوشة عن تعمد مسبق تصدر إلى المسؤولين في جبهة مقاتلة الانتفاضة، ومن ضمنها توجيهات تأمر بضرب قادة خلايا «الشغب» بالعصي والأيدي لتكسير عظام الانتفاضة. مما

جعل إجراء محاكمات عسكرية أمراً محتماً للجنود المدانين، باستخدام العنف غير الضروري في مواجهتهم للانتفاضة وقد اعتبر هذا بمثابة تحد لنفس الروح المعنوية للجيش الإسرائيلي.

منحت الانتفاضة قيادة منظمة التحرير الفلسطينية الفرصة الكبيرة، لتولي الإدارة الكاملة لكفاح لم يكن لها دور في إشعاله. فأطفال الحجارة بالمخيمات والشبيبة المقنعة التي ألهبت مشاعر العالم بتحديها العنيد للحكم الإسرائيلي الذي يمثل صورة معكوسة عن دافيد اليهودي أمام جوليات الفلسطيني، كانت تمثل قوة لا يسيطر عليها أو يقودها أحد.. قوة بحاجة لقيادة وبحاجة لإرشاد وتوجيه.. لذلك حاول عرفات ومساعدوه في تونس عبر اذاعة مونت كارلو ومنشوراته الموزعة في المناطق المحتلة إلهاب درب التحرير الفلسطيني. لكن أطفال الحجارة هم من كانوا في الخنادق وليس عرفات. كان هؤلاء هم من يهاجمون القوات الإسرائيلية وهم من يسقطون في حوادث الشغب الملتهبة.. ولو كانت منظمة التحرير الفلسطينية تريد فعلاً أن تصبح روح الانتفاضة والادعاء، بمسؤوليتها عنها، لكان يتعين عليها أن تستبدل الحجارة ببنادق الكلاشينكوف، وأن تستبدل المولوتوف بالعبوات الناسفة من عيار الخمسة كيلو غرامات... لذلك كان الرجل القادر على انجاز هذه المهمة الصعبة، هو ابو جهاد الوزير ـ العقل العسكري المدبر عند عرفات، والمسؤول عن «القطاع الغربي» الجهاز الذي يشرف على تنفيذ العمليات «الإرهابية» داخل إسرائيل والأراضي المحتلة.

كانت مناصب أبو جهاد الوزير في فتح يكتنفها الاضطراب وتنقصها الأبهة، فأبو جهاد أحد الآباء المؤسسين لفتح ـ كان قد تولى سلسلة من المناصب والمهام داخل قوات تحرير فلسطين التي نشأت منذ عام 1964. فهو لم يكن سفاحاً مثل أبو إياد ولهذا السبب لم يعط مهمات في داخل المؤسسة الأمنية الداخلية للمنظمة. وإنما تولى مسؤولية تشكيل الطابع العسكري للمنظمة. وقبل حرب عام 1967 كان أبو جهاد الوزير قد سافر حتى إلى أبعد اصقاع الأرض، للحصول على المساعدة العسكرية والخبرات التدريبية لرجال فتح الأوائل. فقد زار الكتلة الشرقية، والصين الشعبية، وشمال كوريا وشمال فيتنام.

وفي السنوات الأولى للمقاومة المسلحة الفلسطينية ضد إسرائيل منذ عام 1965 وحتى عام 1973 اكتسب أبو جهاد شهرة جدية كمخطط عسكري وكنصير لعرفات. ولم يتمكن أبو جهاد الوزير، من البروز في مقدمة قادة منظمة التحرير الفلسطينية، إلا بعد أن اغتالت قوة مشتركة من الموساد، والجيش الإسرائيلي ووحدة «سيريت متكال» في عملية «ربيع الشباب» أبو يوسف النجار قائد أيلول الأسود، ومدير عمليات فتح داخل إسرائيل. ومما يدعو للتهكم أن تكون وحدة أن«ستريت متكال» المسؤولة بطريقة غير مباشرة عن ترقية أبو جهاد، هي نفسها التي أصبحت مسؤولة فيما بعد عن تصفيته.

وخلال خمس عشرة سنة، أخذت بصمة أبو جهاد تظهر على أشرس الأعمال «الإرهابية» التي ارتكبت ضد الدولة اليهودية: مثل السيطرة على السفارة الإسرائيلية في بانكوك عام 1972، ومذبحة نهاريا في 24 حزيران 1974 وكذلك عملية الهجوم البحري في 3/ 5/ 1975 على فندق سافوي بتل أبيب، ومذبحة نادي الريف (دلال المغربي) في 11/ 3/ 1978 ومحاولة الهجوم في نيسان 1985 على وزارة الدفاع والتي فجر فيها الجيش الإسرائيلي الباخرة «س س اتافيروس» في البحر المتوسط حتى أن الكثير من المحللين اعتبروا بأن عملية الهجوم الشاملة على تل أبيب كانت السبب في تصفية أبو جهاد، لأنه أراد استهداف وزير الدفاع اسحاق رابين واغتياله. ولكن الذي حسم مصير أبو جهاد إنما هو محاولاته العنيفة، ولكنها الفاشلة، التي حاول من خلالها تصعيد مستوى العنف في الانتفاضة.

في أوائل شباط عام 1988 أرسل أبو جهاد ثلاثة «إرهابيين» من فتح بكامل أسلحتهم عبر الحدود المصرية إلى إسرائيل بهدف السيطرة على باص ركاب وخطف رهائن داخل مزرعة تعاونية في صحراء النقب. وقد خطط أبو جهاد شخصياً تلك العملية بحيث تكون دموية، لتحقيق غطاء اعلامي ضخم بقصد رفع مكانة قيادة الانتفاضة، وتحويلها إلى أيدي منظمة التحرير الفلسطينية. إلا أن تلك المهمة الشريرة فشلت بشكل تعيس.

فرغم نجاح «الإرهابيين» الثلاثة بالعبور إلى إسرائيل، إلا أنهم لوحقوا لمدة

32 ساعة من قبل قصاصي الأثر البدو، ورجال الاستطلاع عبر صحراء جنوب إسرائيل. وفي 11 شباط 1988 حوصر الثلاثة وأجبروا على الاستسلام، إثر اشتباك قصير. كانت هذه العملية هزيمة نكراء، جعلت أبو جهاد يقسم على الانتقام. وفي ساعات الصباح الباكر من نهار 7/3/1988 عبر ثلاثة مسلحين من فتح، من قوة 17 الحدود المصرية إلى إسرائيل، وقادوا سيارة، واتجهوا بها عبر صحراء النقب إلى بئر السبع.. وبعد اكتشاف عبورهم من قبل الجيش الإسرائيلي، أعلنت حالة الإنذار القصوى في جميع أنحاء الجنوب وقد اعتقد الإسرائيليون بأن «الإرهابيين» يريدون مهاجمة احدى المستوطنات الزراعية المجاورة، ولذلك أغلقت الطرق إلى كافة الكيبوتسات وأعدت الحراسة المشددة عليها.. وتبين بعد ذلك أن «الإرهابيين» قد خطفوا باص نقل داخلي ينقل عمالاً من بيوتهم، ويتجه بهم نحو منشآة (ديمونة) النووية السرية جداً.

واستدعيت على الفور القوات الخاصة للشرطة، ووحدات من الجيش الإسرائيلي ولوحق الباص ومن ثم أجبر على التوقف.. وبعد أن قتل «الإرهابيون» أحد الرهائن بدأت قوات «يا مام» المتخصصة بإنقاذ الرهائن عملها. وخلال ثوان من تحركها قتل «الإرهابيون» الثلاث وكذلك ثلاثة رهائن جميعهم من النساء. وقد أثار هذا الحادث الذي أطلق عليه «مذبحة باص الامهات» غضب القيادة الإسرائيلية وحثها على القيام بعمل حاسم. فإذا كان أبو جهاد قد دخل إلى القيادة العسكرية لمنظمة التحرير الفلسطينية من خلال عملية كوماندو إسرائيلية، فقد آن الأوان لابعاده عن طريق وسائل مشابهة. وفي 13 نيسان أقرت الحكومة الإسرائيلية قرار اغتيال أبو جهاد. وفي ساعات الليل المتأخرة من يوم 15 نيسان 1988 نزلت قوة كوماندو بحرية من مجموعة «فلوتيلا 13» التابعة للبحرية الإسرائيلية على شواطىء رأس قرطاج في سواحل تونس. وبعد استكشافهم المنطقة والتقائهم بمجموعة عملاء الموساد الذين كانوا بانتظارهم بثلاث سيارات مستأجرة، والتأكد من أن الساحل نظيف أمنياً أرسل الطلب بقدوم وحدة من مجموعة كوماندو، تابعة «لسايريت متكال» إلى الشاطىء بقوارب الزودياك. وهكذا توجهت المجموعة الموحدة من الموساد «وسايريت متكال» بالسيارات نحو مركز مدينة تونس، ومن

ثم إلى ضاحية سيدي بو سعيد حيث كان يقيم قادة منظمة التحرير الفلسطينية ومن ضمنهم أبو جهاد. وبعد أن تجولوا حول الفيلا الفخمة عدة ساعات بانتظار عودة نائب القائد العام لمنظمة التحرير الفلسطينية، من اجتماعه المنعقد في مقر عرفات، قام رجال الكوماندو الإسرائيلي بتصفية حارس أبي جهاد الوزير، وركضوا بسرعة نحو المنزل بحثاً عن هدفهم. فقاموا بقتل أبو جهاد خلال ثوان بخمس وسبعين طلقة. وكما قالت بعض التقارير قام أحد رجال الكوماندو الإسرائيليين، بتصوير عملية القتل على شريط فيديو».

كانت عملية اغتيال أبو جهاد عملية واسعة النطاق، اشتركت فيها وحدات من قوارب الصواريخ التابعة للبحرية الإسرائيلية، وطائرتان من نوع بوينغ 707 تابعتان لسلاح الجو الإسرائيلي، لهما خصائص إلكترونية وطائرة «قيادة وسيطرة وتحكم». وكما تقول التقارير الأجنبية كانت مهمة الطائرتين هي خلق غطاء الكتروني فوق معظم مناطق مدينة تونس لتعطيل وتشويش كافة الاتصالات الأمنية والعسكرية التونسية والفلسطينية لإدامة مدة الهجوم. . بل إن كل اختصاص تقريباً في أوساط المخابرات الإسرائيلية كان قد اشترك في هذه العملية التي نفذت بدقة بارعة، وكانت بمثابة عرض جريء لقدرة أمة على ايقاع العقاب حسب العدالة التوراتية بمرتكبي «الارهاب». وهكذا أبعدت نهائياً واحدة من الأشواك المميتة عن الجانب الإسرائيلي. .

ورغم ذلك انتقد أحد أعضاء الجناح اليساري في البرلمان الإسرائيلي الكنيست يوسي ساريد تلك العملية قائلاً «يمكن لنا أن نصفي (أبو) بعد (أبو)، لكن هذا لن يحل المشكلة الفلسطينية»﴾.

أثبتت عملية الكوماندو الإسرائيلية تلك، فعاليتها الجيدة إذ أحدثت مزيداً من التدمير في صفوف «الإرهابيين»، واثبتت أنها أكثر قدرة من الغارات الجوية. وذكرت بعض التقارير أن وحدة كوماندو سيريت متكال التي نفذت الاغتيال قد نقلت معها عدداً من الملفات السرية من على طاولة أبو جهاد من بينها قائمة شاملة بأسماء عملاء منظمة التحرير الفلسطينية في إسرائيل، والضفة الغربية

وغزة وأوروبا الغربية. مما يدل على أن العمليات الأرضية البرية من هذا النوع، تؤدي إلى إحراز جوائز استخباراتية فريدة لا يمكن للغارات الجوية إحرازها. فإسرائيل كانت تعتبر عمليات القوات الخاصة من أكثر الوسائل فعالية وعنفاً لضرب وتصفية الأهداف «الإرهابية». وفي اليوم الذي صادقت فيه الحكومة على اغتيال أبو جهاد، أجرت مجلة «بمحانيه» العسكرية التابعة للجيش الإسرائيلي مقابلة صحفية مع مدير المخابرات العسكرية الميجر جنرال أمنون شاحاك الضابط الشهير، والمتفوق في قوات الاستطلاع قال فيها: «إنني أؤمن بأن أية عملية كوماندو هجومية ستحظى بنجاح كبير. فرجال الكوماندو لهم تأثير رادع قوي على الإرهابيين ولذلك اعتبر رجال الكوماندو إحدى أهم أدوات القتال، وأعتقد أن الجيش الإسرائيلي قد توقف عن التفكير بهم، أو ربما أننا سنتوقف عن قيادتهم»..

كانت كلماته هذه نبوءة، ودلالة على أنه ينبغي على إسرائيل تصفية وقتل المسؤول عن اندلاع الانتفاضة. ولذلك بدأت الجهود المصممة على تصفية أحمد جبريل نهائياً تعد وتحضر..

ومع أن إسرائيل تريد أحمد جبريل ميتاً، إلا أنه لم يكن هدفاً سهلاً مثل أبو جهاد الوزير. فتونس كانت إجمالاً موقعاً هادئاً نسبياً. فبلاد تونس نصف أوتوقراطية شرق أوسطية، ونصف ملعب للأوروبيين، عشاق الشمس. وفيها فنادق فخمة، وشواطىء عراة وكازينوهات والجيش التونسي صغير الحجم، عديم الخبرة، ولا يعتبر رادعاً أمام أي تهديد.

ومع أن منظمة التحرير الفلسطينية تقيم قواعدها في تونس، إلا أن عدد وحدات الأمن الفلسطينية في العاصمة، لم تكن ذات أهمية كافية في عرقلة أي عمل إسرائيلي. ولأن تونس منفتحة كان الإسرائيليون، كما تقول التقارير الأجنبية قادرين على اقامة بنية مكثفة من عملاء جمع المعلومات داخل تونس من ضمن ذلك تجنيدهم لعدد من وزراء الحكومة التونسية.

كما أن أبا جهاد الوزير الذي يعرف أنه هدفاً للاغتيال لم يطبق القواعد الأمنية الأساسية.

وكانت «قوة الـ17» الأمنية تصفه «بحائط المبكى»، متذمرة من اعداد الناس الذين يسمح لهم بزيارته، كل يوم ليفضفضوا عن أنفسهم، ويطلبوا نصائحه أو مساعدته على طريقة من يأتي «للعراب».

أما أحمد جبريل، فهو نادراً ما يسافر خارج لبنان، أو خارج سوريا ولا يستغني أبداً عن درعه المكثف من الحراس، والمرافقين العسكريين السوريين. والبلدان الوحيدة التي يزورها زيارة رسمية باسم الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ هي بلغاريا ـ التي ظلت حتى عام 1991 دولة شيوعية، ودولة بوليسية حيث لا يرحب فيها برجال العمليات الإسرائيليين، وايران التي تعتبر فيها العمليات التجسسية الإسرائيلية محدودة للغاية منذ ظهور الخميني وبالطبع ليبيا.

وفي المخابىء السورية اللبنانية يصبح جبريل مادياً أقرب على إسرائيل من أبو جهاد الوزير، الذي كان في تونس، لكن جبريل في الحقيقة كان في داخل مغلف منيع.

على النقيض من المسؤولين الفلسطينيين الأخرين، الذين نجحت إسرائيل بتصفيتهم بالماضي، مثل قادة أيلول الأسود المسؤولين عن مذبحة الرياضيين في ميونخ، لم يكن أحمد جبريل هدفاً يمكن تصفيته بالاغتيال الفردي، أو بالاغتيال على يد عميل للموساد، بطلقات مسدس من عيار 22 ـ كما أن تحركاته بالسيارة من الأحياء لا تسمح بتنفيذ عملية وضع عبوة ناسفة تفجرها به. فأحمد جبريل رجل لا يحكمه الروتين، كما أنه لا يسافر إلى أماكن مزدحمة بالناس، ولا تأسره أفخاخ العادة المستمرة.

لذلك أدرك خيرة جواسيس الموساد، وجهاز المخابرات العسكرية (أمان) في تل أبيب، بأن الحصول على التوقيت الدقيق عن وجوده في مكان ما، هو العامل الحاسم في أية خطة تستهدف قتله. ورغم ذلك لا يمكن للعمل التجسسي وحده تحقيق هذه المهمة. إذ يتعين على جواسيس جمع المعلومات، والمحللين وضع الأرضية المناسبة لتوجيه الضربة الحاسمة، ولإعطاء الضوء الأخضر للهجوم العسكري عليه.

وفي أيلول من عام 1988، اعتقدت إسرائيل أنها وصلت إلى تلك الأرضية التي تحولت فيما بعد من عملية روتينية إلى مهمة عسكرية تاريخية. فقد علم جهاز المخابرات العسكرية «آمان» أن جبريل سوف يجري جولة تفتيشية على إحدى قواعده في جنوب بيروت.. لذلك قام رئيس أركان الجيش وقيادة سلاح الجو بوضع خطة للقيام بهجوم جوي، في الوقت الذي يبدأ فيه أحمد جبريل بالمرور بين صفوف قواته مستعرضاً حرس الشرف.

ويعتقد بأن سلاح الجو الإسرائيلي نشر عدداً من طائراته بلا طيار، لرصد ما يجري في قاعدة الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ بلبنان رغم أن ذلك لم يؤكد..

وعند الغسق من يوم 12 أيار، قامت ست طائرات قاذفة تابعة لسلاح الجو الإسرائيلي بإغارات مكثفة على قاعدة الجبهة في «برجا»، والتي كانت وسط بستان تغطيه أشجار الزيتون، على بعد 16 كلم من بيروت..

وفشلت إسرائيل أيضاً في هذه المحاولة بقتل جبريل الذي لو كان حقاً موجوداً في تلك القاعدة لما خرج حياً..

بعد ذلك اختيرت قوات خاصة من فرقة غولاني، لتتولى مهمة هي الأخبر بها في تاريخها العسكري منذ عام 1948 ـ وهي التغلغل إلى اعماق انفاق الناعمة ـ 16 كلم عن بيروت التي تمثل قلب قيادة الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ وبنيتها العسكرية الأساسية.. ففيها سيحاول الجيش الإسرائيلي تنفيذ رغبة تاق لها خلال ثلاثة وعشرين عاماً هي رغبة الانتقام من أحمد جبريل..

وقد وجدت رئاسة الأركان العسكرية الإسرائيلية أن مقتضيات التعامل مع احمد جبريل عن طريق غارة كوماندو، تستدعي بشكل واضح كما قال جنرالات إسرائيل اختياراً دقيقاً للوحدة العسكرية، التي ستكلف بتنفيذ هذه الغارة. ولذلك جرى اختيار ـ سايريت غولاني ـ وحدات من قوات غولاني التي كانت قد شهدت العمليات الوحشية، التي صنعها احمد جبريل بأيديه في كريات شمونا.. جرى اختيار قوات غولاني لأنها أقسمت بأن تنتقم في يوم ما من أحمد جبريل والجبهة الشعبية ـ القيادة العامة.

هناك ثلاثة عوامل أساسية لا بد منها لنجاح عملية من نوع هجوم الكوماندو: ـ المعلومات الدقيقة (الاستطلاع)، والاعداد الصحيح والحظ. وقد كلف جهاز جمع المعلومات الاستخباراتية التفصيلية والموساد ـ وجهاز المخابرات العسكرية (أمان) بإعطاء الصورة الدقيقة لقاعدة الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ المركزية غرب لبنان بحيث يتضمن: طبيعة الموقع تحت الأرض أو فوقها ـ مواقع الحراسة ودورياتهم ـ نوع الاسلحة التي يحملونها أثناء حراستهم ـ مواقع اقامة قوات الجبهة ونومهم ـ وجود قوات سورية بجانبهم أو عدم وجودها، وفي حال وجودها فما هي ادواتهم القتالية في حال الاشتباك معهم. وقد طلب من أجهزة المخابرات أن تزود فرع عمليات الجيش الإسرائيلي، بالمعلومات الدقيقة للأماكن التي يكون جبريل موجوداً فيها في يوم بدء العملية أو قبله بقليل. ففي حالة كون جبريل موجوداً في دمشق، يتفقد حسابات منظمته في ذلك اليوم فستصبح احتمالية شن هجوم واسع النطاق من هذا النوع قليلة.

ويذكر أن إسرائيل لم تعترف رسمياً بأن الهدف الحقيقي من عمليتها في الناعمة هو اغتيال أحمد جبريل. كما أن هناك احتمال كبير بأن تكون وحدات غولاني قد كلفت بالحقيقة بمهمة خطف أحمد جبريل، ومبادلته بالجنود الثلاثة المفقودين من معركة السلطان يعقوب عام 1982، فليدمان وكاتس وباوميل والذين يعتقد بأنهم مازالوا محجوزين عند الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة.

فالرمز الكبير في عملية كهذه هو خطف جبريل ومقايضته في البازار الذي ساهم هو نفسه بصنعه..

وفي النهاية، إذا حالف الحظ هيئة أركان الجيش الإسرائيلي فستمتزج كل هذه العوامل، وتتحول إلى تنفيذ ناجح لأكبر عملية بهذه الضخامة.

ومما يدعو للغرابة، أن النجاح الحقيقي لمهمة من هذا النوع تستلزم رمزاً ما.. هو أن الساعة الصفر في الهجوم حددت بليلة 8/12/1988 الذي يصادف الذكرى السنوية الأولى للانتفاضة الفلسطينية.

لقد استهلك الهجوم الكثير من الأفكار، والتحضيرات، إذ كان سلاح الجو

الإسرائيلي خلال شهور عدة منذ نهاية الخريف، يقوم بطلعات جوية استطلاعية يصور فيها المنطقة، ومواقع الجبهة نهاراً وليلاً باستخدام «الانفراريد» التصوير الليلي.

ولم تكن قاعدة الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة في الناعمة هدفاً سهلاً. فالحقيقة أن الكثير اعتبرها شديدة التحصين.. ويدافع عنها ما يقرب المئة والخمسين من المقاتلين والمدربين، أصحاب الخبرة القتالية من كتيبة صبرا وشاتيلا الشهيرة. وكانت تضم إلى جانب هؤلاء المقاتلين 100 آخرين، ممن يتدربون على العمليات «الإرهابية». وكانت مرابض الرشاشات المتعددة وعشرات الصواريخ المضادة للدبابات، اضافة إلى الرشاشات المضادة للطائرات المحمولة فوق عربات مسلحة تكمل دفاعات تلك القاعدة مما جعلها تشكل تحدياً فريداً لمخططي الجيش الإسرائيلي. فالناعمة هي العصب المركزي، هي قاعدة الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ وكانت قاعدة جبريل الشخصية اليومية تقع تحت الأرض، عبر سلسلة من الأنفاق والخنادق المسلحة بأطنان من التربة والأبواب الحديدية، التي يصعب تفجيرها بل إن العديد من ضباط الجيش الإسرائيلي اعتبروها مشابهة بشكل مصغر لمقر قيادة هتلر أثناء حصار برلين..

كانت قاعدة الناعمة التي تضم أيضاً أبنية ذات طوابق متعددة لاستخدامها كمقرات ادارية، محاطة أيضاً بسلسلة من الانفاق الطبيعية، والوديان الضيقة شديدة الانحدار، وجميعها متصلة بعصب المركز القيادي المعد على طريقة خنادق الاتصال والانفاق الفيتنامية التصميم.. وكما قال أحد ضباط عمليات الجيش الإسرائيلي: «كانت الناعمة هدفاً من النوع الذي يجده المرء في رواية اليستير ماكلين.. ولسوء حظنا لم يكن أمامنا شيء خيالي بالنسبة لذلك المكان.. وإنما شيء حقيقي تماماً».

ولحسن حظ الإسرائيليين أنه كانت لدى الجيش ملفات استخباراتية كثيرة حول قاعدة الناعمة.

وقد تولى الميجر جنرال جورون روبين، من قيادة فرع التدريب، والضابط

المظلي القديم والمسؤول في قيادة الأركان عن العمليات الخاصة في لبنان وخارجه، تولى وضع الخطة الشاملة للعملية ضد الناعمة.. وكانت أهداف عملية الهجوم على الناعمة كما يلي:

الهدف الأول: مكتب أحمد جبريل الواقع في خندق تحت الأرض وسط القاعدة.

الهدف الثاني: ستة أنفاق تقع في الجبل المجاور، وهي أمكنة إقامة كتيبة صبرا وشاتيلا

الهدف الثالث: قواعد تدريب القوات بالناعمة، والواقعة على بعد عدة عشرات من الأمتار من المجمع القيادي، والتي تضم حقل رماية، وحواجز وغرف حراسة..

الهدف الرابع: سلسلة المواقع المضادة للطائرات، خاصة المدافع الرشاشة من عيار 23 ملم وبطاريات صواريخ ستريلا (س أ 7) أرض/ جو، والتي تحيط على شكل حلقة بقاعدة الناعمة.

وقد اعتبر ضرب الهدف الرابع عاملاً حاسماً في نجاح العملية لأن إسكات المواقع المضادة للطائرات سوف يعطي قوات كوماندو غولاني حماية جوية قريبة، وفاعلية من الطائرات المروحية الإسرائيلية، ورشاشاتها التي يصل مداها إلى كامل المنطقة.

اختيرت القوات البحرية، والبرية، والجوية الإسرائيلية، المكلفة بضرب هذه الأهداف دفعة و احدة واختير العقيد «ش» قائد لواء جولاني شخصياً لقيادة فرقة الكوماندو المكلفة بضرب الهدف الأول، وهو مكتب احمد جبريل. واختير لضرب الهدف الثاني، أخطر الأهداف المقدم عمير ميتال قائد «سايريت غولاني» لمدة ثلاث سنوات، والذي انتقل إلى قيادة كتيبة باراك قبل عملية الهجوم على الناعمة.

وتقرر أن لا يزيد عدد قوات كوماندو غولاني المكلفة بالعملية على مئة..

ويذكر أن قوات غولاني تضم مظليين، ورجال استطلاع من الطراز الأول. فبعد أن يثبت الجندي في قوات غولاني جدارته في التدريب، ويأخذ صفة «النمر الطائر» يدعى إلى التطوع في قوات الاستطلاع، حيث تختبر قدراته الجسمية والاحتمالية، طوال أيام اسبوع كامل.

وأدرك العميد روبين والعقيد (ش)، والمقدم عمير ميتال بأن الوقت هام إلى درجة قصوى في نجاح العملية أو فشلها.. فالتصفية السريعة «للإرهابيين» الموجودين في الخنادق هي العامل الحاسم في تقليل عدد الإصابات في الجيش الإسرائيلي.

ولتدريب جنود الكوماندو الإسرائيليين على ضرب هذه الأهداف في قاعدة أحمد جبريل بالناعمة، هيأ الجيش ظروفاً مشابهة لظروف تلك القاعدة وأجرى للكوماندو الإسرائيلي تدريبات مطولة فيها، ضمن الاستعداد القتالي الليلي.. بحيث ظهر أن معركة الناعمة ستكون أشرس المعارك مع إرهابيي الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة.

وأفادت بعض التقارير أن نموذجاً مطابقاً لنموذج تلال الناعمة في شمال إسرائيل، جرت فيه تدريبات مطولة، لقوات كوماندو غولاني لاستبعاد أي فشل بالهجوم، حيث خضع جنود الكوماندو لهذا التدريب مدة شهرين تقريباً.

وفي الحقيقة لم يترك الجيش الإسرائيلي شيئا للحظ في هذه الاستعدادات الخطيرة.. وبعد أن وصل جنود الكوماندو إلى قمة تدريباتهم على ضرب الأهداف بالناعمة، واكتملت معلومات المخابرات عن الأهداف بدقة.. وحوفظ على عامل المفاجأة المظلية.. لم تبد هذه الحملة العسكرية للهجوم ليلاً وعبر الخنادق ضد مئة «إرهابي» فلسطيني ينتمون لأكثر المنظمات تطرفاً، وخبرة عسكرية مبشرة بالنجاح كثيراً.. لذلك قام الجيش الإسرائيلي لكي يضاعف قوته العددية، والتكتيكية بتجهيز كوماندو غولاني بمعدات فائقة السرية، وعالية التقنية، لتحقيق توازن في القتال لصالح الكوماندو الإسرائيلي المهاجم.. إذ وضع كل جندي كوماندو جهازاً من اللايزر، وأجهزة الرؤية الليلية الكاشفة على خوذته،

لتحويل الظلمة أمامه إلى رؤية جيدة للأهداف المطلوبة. كما أعطي جهاز خاص يحمله باليد خفيف الوزن، صغير الحجم لتحقيق وضوح في الرؤية الليلية.. وبالإضافة إلى ذلك كان هناك جهاز (لايزر) مثبت عند رأسه يمكنه من الاحساس بأي هدف أمامه ليلاً.. كما تجهز رجال الكوماندو أيضاً بمناظير الرؤية الليلية للعين المفردة (Single eye) وهو يعمل على نطاق نظام يسمح لرجل الكوماندو أثناء قتاله بالرؤية بعين واحدة، في الظلمة الدامسة بينما تحجب الظلمة عن عينه الأخرى.. وجهزت البنادق الهجومية، وبنادق القناصة والمدافع المضادة للدبابات التي حملتها قوات غولاني - وقوات فرقة باراك بأجهزة اللايزر والرؤية الليلية أيضاً. كما جرى بشكل بارز استخدام أدوات قتالية جديدة كان السوفيات في الحرب العالمية الثانية، والقوات الأمريكية في فيتنام، قد أحسنوا استخدامها في السابق، وهي عشرة كلاب من نوع دوبرمان، ومن نوع هجومي آخر.. جميعها أعدت ودربت على طراز خاص من العمليات بحيث تحمل هذه الكلاب على أظهرها عبوات ناسفة متفجرة أو قنابل من الغازات.. واعدت الكلاب بحيث يجري توجيهها عن بعد بواسطة «الريموت كونترول».

وكان على هذه الكلاب المتفجرة، أن تدمر الدفاعات الداخلية لأنفاق أحمد جبريل المنيعة، ثم يجري فوراً تفجير الكلاب المحملة بقنابل الغازات، وهذه كانت أول مرة يجري فيها استخدام مثل هذه الوسائل الخطيرة، والقاسية في تاريخ إسرائيل.

اعجب رئيس الأركان بالخطة، وكذلك وزير الدفاع اسحاق رابين، الذي وقع على خطة العملية الهجومية وأعد نفسه لرصد كامل العملية من قيادته، تحت الأرض وفي وزارة الدفاع في «الكريا».

وأخيراً حددت ساعة الصفر، للبدء بعملية الهجوم الضخمة على الناعمة.. في ليلة 8 كانون أول.. أعطيت قوات الكوماندو المكلفة أمراً بالاستعداد التام، حيث وقف المقدم «ميتال» أمام قواته وقال: «لم أشاهد في جميع أيام حياتي دقة مماثلة لدقة هذه العملية.. وشعوري بنجاحها كبير».

وفي البحر، انطلقت البحرية العسكرية، بقواربها الكبيرة والصغيرة من نوع زودياك على نحو يشبه (الارماد) البحرية. . وكان الجنرال دان شومرون في قيادة المؤخرة ينسق تفاصيل العملية على التربة اللبنانية، حيث وصلت القوات إلى الشاطىء عند الساعة 21,15. وكانت مجموعات الكوماندو البحرية، قد اقامت لنفسها مواقع دفاعية على رأس الشاطىء، مقابل الدامور للحماية على بعد ثلاثة كيلو مترات من الناعمة. تلك المسافة للعبور إلى المضيق الصعب الذي يتموقع فيه «الإرهابيون» الفلسطينيون. وبعد قليل جمع قادة الكوماندو المكلفون بالهجوم رجالهم وانطلقوا نحو قاعدة الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ وأخذوا يقطعون ثلاثة كيلو متر وهم يحملون من الاسلحة والعتاد والأجهزة ما يزن ستين باوند فوق أكتافهم.

وكانت الناعمة مساء 8 كانون أول هادئة، كعادتها اليومية رغم أن احمد جبريل كان داخل القاعدة. وكان الرجال والنساء داخل القاعدة يقومون باعمالهم الاعتيادية رغم أن تحليقات طائرات الاستطلاع الإسرائيلية، كانت قد أقنعت قائد كتيبة صبرا وشاتيلا، أبو جميل بوقوع غارة إسرائيلية، خاصة وأن ذلك اليوم يصادف ذكرى السنة الأولى للانتفاضة، ولذلك كانت قد وجهت الأوامر للمسلحين الفلسطينيين بالنوم بالانفاق التي كلف «ميتال» بمهاجمتها. . والحقيقة أن نوبات الحراسة حول القاعدة، كانت ضعيفة بسبب توقع حدوث غارة جوية، مما جعل أفراد الحراسات المناوبين يتخذون مواقعهم في مرابض الرشاشات المضادة للطائرات، بينما كان بقية المسلحين غير المناوبين يجلسون في الانفاق بألبسة نومهم حماية من الهجمات الجوية الإسرائيلية المتوقعة.

حتى جبريل الذي يعتز بنفسه كمخطط عسكري متميز، لم يكن بوسعه توقع أن تحاول إسرائيل ممارسة انتقامها عن طريق غارة كوماندو من هذا القبيل والحجم.

وعند الساعة 02,45. من فجر 9 كانون أول بدأ الهجوم الإسرائيلي. .

نجحت قوات الكوماندو بالتسلل خلسة، عبر المضيق الوعر والأشواك وإقامة

منطقة انطلاق متقدمة لا تبعد عن المحيط الخارجي للقاعدة سوى بضعة أمتار وشاهد العقيد «ش» ومساعدوه حراس الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ بالبستهم المموهة (فوتيك)، وبنادق الكلاشينكوف في أيديهم، وحددوا مواقعهم بواسطة مؤشرات اللايزر. . وعندما اقترب رجال الكوماندو، وهم يزحفون نحو البوابة الرئيسية قام رجال «سيريت غولاني» القناصة بوضع الحراس على مناظيرهم المثبتة على بنادق القنص، واطلقوا خمسة صليات سريعة من نيرانهم. ورغم أن البنادق كانت مجهزة بكواتم صوت إلا أن الأصوات الأخيرة المنبعثة من الحراس القتلى، نبهت الكثير من الحراس الآخرين الذين أخذوا يسيرون نحو مصدر الأصوات.

وعندما اخذوا يتراكضون لمساعدة رفاقهم، بدأ قناصة غولاني بإطلاق النار عليهم أيضاً. . هكذا بدأت ساعة الهجوم ليمسك الكوماندو بزمام المبادرة ويتراكض رجالهم إلى داخل القاعدة، محولين ظلمة القتال الليلي إلى نهار. . قام العقيد «ش» بتوجيه أوامره لقواته بالانقسام إلى ثلاث مجموعات لكنهم فوجئوا بظهور أضواء عربة شحن تحيط بالبوابة الرئيسية. . فبسبب عدم وقوع غارة جوية كان أبو جميل الحذر قد أخذ بعض المسلحين، لإجراء جولة حراسة أخيرة على القاعدة وحين خفضت العربة التي تقل رجال أبو جميل من سرعتها، واقتربت من جثث المسلحين القتلى سرعان ما فتحت عليهم نيران الكوماندو الإسرائيلي بحيث لم يترك لهم خيار. . بعد ذلك قام العقيد «ش» بابلاغ رئيس الأركان بأن قواته أصابت حتى ذلك الوقت عشرين من المسلحين. . وكان هذا البلاغ الأول مشجعاً، فرد قائد الفرقة بأن أوامر جديدة أخرى قادمة. . نبهت الأصوات الخفيفة بقية المسلحين داخل المبنى القيادي الرئيسي وكذلك داخل الانفاق. . إذ أدركوا بأن شيئاً ما يحدث، فقاموا على الفور بإغلاق المداخل المحصنة المحيطة بالنفق القيادي لأحمد جبريل، وعلى جناح السرعة تجهز عشرون رجلاً من المسلحين لحماية ذلك الموقع. . وأخذ قتال ناري عنيف يجري عن قرب بين مسلحي الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ المجهزين هم أيضاً بمعدات قتال ليلي وبين مقدمة كوماندو غولاني التي لا تبعد عنهم سوى عدة أمتار وظهر أن المدافع عديمة الارتداد، وقذائفها الموجهة ضد الأنفاق المحصنة ومداخلها لم تفلح في الحاق

الضرر المطلوب، فاطلق كوماندو غولاني عليهم صواريخ «لاو» الشهيرة من عيار 66 ملم المضادة للدبابات، ولم تؤثر هذه أيضاً عليها. . وأخذ الفلسطينيون يردون على مصادر اطلاق النيران، ولا يتحركون من مواقعهم إلا قليلاً.

أثناء ذلك دخلت مجموعة كوماندو إسرائيلي إلى داخل أحد الممرات المحصنة لاتخاذ مواقعها القتالية فيه، فواجهتهم على الفور زخات متواصلة من نيران الفلسطينيين، مما جعل مجموعة الكوماندو الإسرائيلي عاجزة عن التقدم انشاً واحداً باتجاه النفق القيادي الحديدي لأحمد جبريل.

كما أثبتت القنابل اليدوية عدم فعاليتها، داخل ذلك الممر المحصن مما جعل العقيد «ش» يوجه أمراً باستخدام الكلاب لكن المسلحين الفلسطينيين قتلوا على الفور ثلاثة منهم بينما انفجر اثنان، وثلاثة آخرين دون أن يحدثوا اي ضرر مما تسبب بخيبة أمل قائد سرية غولاني، وجعله يوجه أومره لخبراء التفجير بوضع عبواتهم الناسفة حول المباني المشكلة من طابقين، أو ثلاثة والتي تعلو النفق لتفجيرها. . كان القتال شرساً، بحيث لم يستطع رجال كوماندو غولاني من الدخول إلى المبنى للبحث عن وثائق. وفي اللحظة التي أطلقت النار خلالها على سيارة قائد الموقع الفلسطيني أبو جميل، أخذت مجموعتا القوة الإسرائيلية سي ودي المكلفتان بالتعامل مع مواقع التدريب، ومواقع الرشاشات المضادة للطائرات بالدخول إلى المعركة. ففاجأهم أيضاً الحراسات الفلسطينية (إذ كان الحراس قد انهوا للتو تبادل نوباتهم) وأطلقوا على الجنود النار. . بعد ذلك أخذت الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ تعزز قواتها بسرعة وتزجها في منطقة القتال. لكن قوات غولاني كانت تقطع عليها التقدم بنيرانها المتواصلة وعلى الفور بدأت قوات غولاني بنشر حقائب المتفجرات التي أعدتها لتفجير القاعدة المخصصة للتدريب، ومرابض المدفعية المضادة للطائرات، وفجرتها بحيث تحولت المنطقة بأسرها إلى منطقة شديدة التفجير والالتهاب.

بعد قليل أخذت منطقة الناعمة بأكملها تتحول إلى منطقة تغمرها أصوات النيران، وتصاعد اللهب جراء القصف الجوي الذي قامت بها طائرتان من سلاح

الجو. وكان لمعان اللهب المحيط بمنطقة المعركة يزود الطائرت المروحية من نوع كوبرا برشاشاتها وصواريخ «تاو» الموجهة برؤية مناسبة لدخول المعركة إلى جانب قوات غولاني كنيران داعمة.

كانت آخر قوة تدخل إلى المعركة، هي قوات (بي) بقيادة المقدم ميتال، وهي التي واجهت أصعب المهام. فقد كانت مكلفة بتصفية الانفاق الستة التي يقيم فيها وينام رجال الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ لكن هذه المهمة التي بدأت قوات ميتال بتنفيذها بعد دقائق من الفوضى، والضجيج التي وقعت، جرى مواجهتها بنيران كثيفة من المسلحين الفلسطينيين الذين سارعوا إلى ارتداء البستهم وحمل أسلحتهم لمواجهة أية قوة قادمة.

وكما قال الرقيب (و ي) أحد رجال الكوماندو الذين واجهتهم نيران المسلحين الفلسطينيين: «لقد كانت تلك الليلة كابوساً جهنمياً من النيران والارتباك.. كان صوت إطلاق النيران يصم الآذان في تلك الظلمة، والانفجارات تتوالى في منطقة غير مألوفة لدينا.. كل هذا جعلني أحس بأشد الاوقات فزعاً في حياتي. «كانت مصادر النيران كثيرة، ولهب الانفجارات كبير مما استحال تحديد هدف ما».

بعد ذلك جرت معارك صغيرة بالأيدي، حين أخذ رجال الكوماندو الإسرائيليين يقاتلون المسلحين الفلسطينيين بالأيدي والسكاكين، وعقاب البنادق، وظهرت المعركة وكأنها مشهد من مشاهد فيلم حرب النجوم حيث كانت حزمات أشعة اللايزر تنبعث من الأجهزة اللايزيرية، المثبتة فوق رؤوس، وخوذات رجال الكوماندو إضافة إلى التوهجات المتقاطعة على جدران الأنفاق..

أدرك المقدم ميتال أنه قاد رجاله إلى محنة رهيبة، وأنه بحاجة لمساعدة عاجلة فاستدعى مراسل الاتصالات الرقيب غي، وتحدث إلى قائد الفرقة، لكن صلية من الطلقات النارية اتجهت إلى صدره ورأسه فجأة.. كان ميتال أول الرجال الداخلين إلى النفق، وهو من دشن القتال وقاد رجاله بشجاعة، ومهارة عبر الصليات النارية التي يستعصي المرور عبرها.. لقد كلفته عبارة اتبعوني حياته..

كما أصيب الرقيب غي بصلية قصيرة، وكانت النتيجة أن الطلقات أصابت مخزن بندقيته، ثم ارتدت إلى ذراعه.. فامسك بجهاز الاتصال، واخذ يبلغ: «الهدهد مصاب» «الهدهد مصاب» أي القائد مصاب.

كان واضحاً أن ميتال قتل.. وكان منظر جثته قد جعل من رآه يرجع إلى الخلف.. فقد فقدوا الآن قائدهم، وحين ركض طبيب الوحدة «تسفي تاينبرغ» إليه أصابته نيران الفلسطينيين بركبته، وكوعه ليسقط فوق جراحه، كان الكثير من الكوماندو غولاني، وفرقة باراك ينزفون من إصابات الشظايا وآخرون يعانون من اصابات اقل خطورة، وكذلك من اصابات جراء القتال بالأيدي مع قوات جبريل في النفق.. وحين سمع العقيد «ش» انباء تلك المعركة داخل النفق بجهازه، أمر على الفور القوة (بي) بالانفصال والتراجع واستدعيت قوات (سي) ـ وقوات (دي) للقيام بالتغطية النارية.

في هذه الأثناء كان رجال «ميتال» يسارعون بالخروج من النفق المميت.. واستدعى خروجهم تسلق تلة منحدرة، وهم يحملون على النقالة جثة قائدهم وجريحين.. وحاول رجال الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ ملاحقة قوات غولاني خارج النفق، لكنهم جوبهوا بنيران التغطية، وقتل العديد من الفلسطينيين، وجرح بعض آخر أثناء تبادل النيران، بعد عشرين دقيقة من بداية الطلقة الأولى حان وقت الانسحاب إلى الشاطىء.

كان الجنرال دان شومرون يرصد بعصبية، وقلق تطورات المعركة من موقعه القيادي على الشاطىء، وأدرك أن الوقت أصبح ثميناً جداً، فبعد قليل سيطلع النهار، وامكانية أن تحدث كارثة كبيرة لجنود يتسابقون، عبر البراري اللبنانية باتجاه نقطة الالتقاء عند الشاطىء، وهم يحملون قتلاهم وجرحاهم أمر مؤكد.. قرر الجنرال دان شومرون آخذا بالاعتبار وجود رجال الكوماندو الإسرائيلي، في داخل عمق العدو الغاء خطة النقل البحري، واستدعى على الفور الطائرات المروحية الضخمة المخصصة للنقل.. من نوع (CH, 53) ـ وكانت نقطة الإخلاء الجديدة هذه قد حددت مسبقاً قبل البدء بالهجوم بحيث تبعد عدة مئات من الأمتار، عن الناعمة رغم أنها قريبة جداً من ميدان القتال.

واستناداً إلى هذه الشروط الخطيرة، نفذت عملية الانسحاب بشكل منظم. ففي السا عة 3,30 فجراً هبطت طائرة هليوكوبتر في منطقة الهبوط الجديدة هذه، وبدأت باخلاء رجال الكوماندو، وكذلك رجال الموقع القيادي في المؤخرة عند الشاطىء إضافة إلى رجال الكوماندو البحري جميعهم.

وفجأة اتضح اختفاء أربعة جنود بينهم ملازم أول وثلاثة جنود اتصالات.. وهذا التطور العصيب تسبب بسلسلة من المشاكل المعنوية، والعملياتية، والسياسية الصعبة جداً لرئيس الأركان دان شومرون اجبرته على اتخاذ قرارات ما تزال حتى يومنا هذا تثير الخلاف، والجدل.

فالجيش، الإسرائيلي لا يتخلى عن رجاله في ميدان المعركة، ولذلك اتخذت اجراءات كثيرة لتحديد موقعهم، ومكانهم. ففي البدء قامت مجموعة من ضباط غولاني بالبحث عن الضابط المفقود الملازم أول ايلي عبر ترددات الطوارىء للاتصالات دون أن يتلقوا أي اشارة. كان الملازم أول ايلي أثناء المعركة المحتدمة داخل النفق قد أطلق صاروخ (لاو) على مجموعة المقاتلين الفلسطينيين.

وكان الظرف الفارغ للصاروخ المضاد للدبابات المحمول على الكتف قد عطل هوائي جهاز اتصاله، وجعل الجهاز كله عاطلاً.

ثم حاول ضباط آخرون بواسطة الأضواء الكاشِفة، والأبواق المكبرة للصوت مناداة الجنود الأربعة دون جدوى. وفي الحقيقة كان الملازم الأول ايلي على بعد 150 متراً من موقع القوة الرئيسية، لكنه لم يتمكن من الأتصال بزملائه بسبب النيران الغزيرة لمقاتلي الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة. فأصوات النيران غطت على صرخات استغاثته. أثناء ذلك تشكلت مجموعة متطوعة من موقع القوة الرئيسية للعودة إلى قلب الناعمة، والبحث عن زملائهم. لكن رئيس الأركان دان شومرون لم يكن بوسعه تحمل مسؤولية كهذه، فقد يعرض نشر مجموعة بحث، وتجولها في المنطقة لعدة ساعات في ظروف قتالية شرسة، للخطر سلامة جميع قوات الكوماندو الموجودة على الأرض هناك. وحتى سلاح الجو الإسرائيلي لا يستطيع حمايتهم من نيران المقاتلين الفلسطينيين.»

ومع مرور الوقت، بدأت تظهر تباشير الصباح على الجبال الشرقية للبنان، واشتد خطر اندلاع قتال يشترك فيه الفلسطينيون والدروز والسوريون في وضح النهار.

كما أن استدعاء قوات جديدة من إسرائيل، لتعزيز حماية قوات الكوماندو الموجودة على الشاطىء اللبناني والناعمة، يمكن أن يثير معركة تقود إلى حرب شاملة. والجيش الإسرائيلي لا يريد من عملية الناعمة أن تؤدي إلى اشراك سبع دول عربية بالنزاع العربي ـ الاسرئيلي، لذلك أجبر رئيس الاركان دان شومرون على اتخاذ قرارات ميدانية شديدة الخطورة.

فاستمرار البحث عن الأربعة يثير خطوة فادحة. وبدون تردد أمر رئيس الاركان دان شومرون جميع أفراد القوة المهاجمة بالعودة إلى إسرائيل.. وكان عليهم العودة بواسطة طائرات الهليوكوبتير المخصصة لنقل الأفراد التي كانت تحلق على بعد أقدام عن الأرض وعن نيران الفلسطينيين لنقلهم إلى إسرائيل.. وقد أغضب هذا القرار العديد من ضباط الجيش الكبار في المعركة كما أشيع بأن عدداً من جنرالات الجيش تذمروا قائلين: «وماذا سنخبر جنودنا الآن». لكن شومرون الذي كان يدرك ن المسؤولية تقع على عاتقه كان راضياً عن قراره..

ففي مؤتمر صحفي عقده في مستشفى رامبام بحيفا قال رئيس الأركان دان شومرون: «على قائد الوحدة أن يعرف أنه لا ينبغي له ترك جنوده في الميدان بل يجب عليه القتال، وتعريض حياته للخطر، لكي ينقذ جنوده المعرضين للخطر، لكن حين تبرز احتمالية كبيرة لتعريض جنود آخرين للخطر، وكذلك تعريض وضع عسكري وسياسي لخطر كارثي فعلى رئيس الأركان أن يقرر ما يخالف ذلك.. وهذا ما قمت به إزاء الموقف بالناعمة..».

وفي الحقيقة لم يترك دان شومرون أحداً خلفه.. وإنما أخر عودتهم سالمين إلى إسرائيل لعدة ساعات.

لقد كانت عملية سحب قوات غولاني المهاجمة بحد ذاتها تجربة خطرة، وكانت امتحاناً للإرادة بين شجاعة طيار الطائرة المروحية أمام نيران مسلحي القيادة

العامة الكثيفة والقوية. وفي قيادة سلاح الجو في تل بيب كان القادة الكبار إلى جانب الميجر جنرال آفيهو بن نون قائد سلاح الجو غير قادرين على التقاط أنفاسهم إزاء ما يسمعون من تطورات للمعركة في الناعمة.. فقوارب البحرية الإسرائيلية بطيئة الحركة الموجودة على الشاطىء يمكن أن تصبح أهدافاً مغرية لمقاتلي الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة.

وعند الساعة 05,40 من صباح يوم الجمعة 9 كانون أول كانت آخر دفعة من القوات على الأرض قد أخليت عبر الطائرة المروحية... وعند الساعة 05,45 أخذ النور يشق طريقه على قاعدة الناعمة، وعلى بعد عدة مئات من الياردات في أسفل المنحدر الصخري، اعدت المجموعة المفقودة من قوات غولاني نفسها على شكل حلقة دفاعية دائرية. وعندما راقب هؤلاء الطائرة المرحية وهي تنقل آخر الجنود أدركوا بأن عليهم الآن كسب الوقت.. فسلاح الجو لا بد وأن يعمل على إنقاذهم لكن إلى متى سيصمدون يا ترى؟

بدأت موجات من هجوم سلاح الجو، والطائرات، لمروحية تسيطر على المنطقة لمنع مقاتلي القيادة العامة من التقدم، والانتشار في المنطقة بينما كانت مروحيات أخرى تحلق على ارتفاعات منخفضة جداً بحثاً عن الجنود الأربعة.

ومع ذلك بدا أن مصير الأربعة جنود أمام نيران المقاتلين الفلسطينيين من القيادة العامة غير مؤكد وأدرك الجنود أن مقاتلي الجبهة لا بد وأن يشعروا بأن حركة الطيران المروحي هدفها سحب المزيد من الجنود، فيطمعون بأسرهم.. بل إن الجنود المفقودين أخذوا يسمعون اصوات مقاتلي القيادة العامة، وهم يقتربون منهم عبر أكمات العشب.

وأخذ عدد مقاتلي الجبهة يتزايد أمام أعين الجنود الأربعة، وظهر لهم وكأن جيشاً كبيراً يحاصرهم.

ومرت ساعات ثلاث، على مغادرة القوات الإسرائيلية البحرية ومعها قوات كوماندو غولاني الشاطىء، حيث وصلوا إلى قاعدة في شمال اسرائيل، وأخذوا يتحدثون إلى رئيس الأركان عن الأوضاع بتفاصيلها... أثناء ذلك جاء اتصال من

إحدى طائرات سلاح الجو يعلن أن الطائرة نجحت في تحديد موقع الجنود الأربعة وأن جهاز اتصال الملازم أول ايلي قد أصلح وهو على اتصال بالطائرة.

وعلى الفور انطلق رئيس الأركان دان شومرون، وبصحبته ضباط كبار إلى طائرة مروحية أوصلتهم إلى وزارة الدفاع في «الكريا» بتل أبيب، حيث نزلوا إلى المقر الخاص، والمجهز باحدث وسائل الاتصال لقيادة ورصد عملية الانقاذ من هناك.

وبدأ السباق مع الزمن...

كانت خطة انقاذ الجنود الأربعة بسيطة... وكانت قد جربت قبل سنتين حين جرى انقاذ طيار إسرائيلي في 1986/10/16 بعد سقوط طائرته، ونزوله على الأرض اللبنانية بالمظلة. ولذلك جرى توجيه الأوامر بتكرار نفس العملية، واستخدمت للعملية أربع مروحيات من نوع كوبرا اثنتان ستطيران وتطلقان النيران على أي هدف معاد ضمن منطقة وجود الجنود الأربعة بينما تقوم طائرتا كوبرا آخريتان بالهبوط في موقع آمن لنقل الجنود الاربعة... وبعد ذلك تعود المروحيات الأربعة إلى البحر حيث تنتظرها سفينة صواريخ إسرائيلية.

وقدرت مدة العملية بثلاث ساعات... كانت نيران مقاتلي القيادة العامة متواصلة، ومكثفة مما جعل من المستحيل على الجنود الأربعة رفع رأسهم إلى أعلى كما صعب ذلك على الطائرات المروحية، ان تطير على ارتفاعات منخفضة خوفاً من قذائف الآربي جي التي يمكنها اصابة طائرة مروحية منخفضة جداً، لذلك تعين على المروحيات أن تناور كثيراً. وتقرر استخدام عدد إضافي من مروحيات الكوبرا لمواجهة المقاتلين الفلسطينيين... وكان رجال جبريل ينفذون عمليات القتال التقليدية لهجوم المشاة... التقدم.. السيطرة... إطلاق النار... التقدم وهذا يمكنهم من الوصول بسرعة إلى الجنود الأربعة وصب نيران لا تحتمل ضدهم.

يقول الميجر ـ آ ـ أحد قادة المروحيات: «كانت المنطقة جحيماً من النيران المضادة للطائرات كما اطلقت علينا العشرات من قذائف الآربي جي التي حلقت

بالجو، لكنني بعد دقائق شاهدت الجنود الأربعة على بعد خمسين متراً مني. كان الأربعة قد غاصوا عميقا بالأعشاب لكي لا يراهم المقاتلون الفلسطينيون مما صعب علينا رؤيتهم من مسافة بعيدة.»

هكذا هبطت طائرتان مروحيتان بسرعة عند نقطة وجود الجنود الأربعة.

وادخلوا إلى المروحيات. وحينما حلقت المروحيات شاهد الجنود الأربعة المقاتلين الفلسطينين وهم يتجولون حول المنطقة محاولين ضرب المروحيات التي أنقذت الأربعة أمام أعينهم...

خلال ساعات الانقاذ كانت قيادة الأركان في وزارة الدفاع بتل أبيب تعيش على أعصابها...

وفي الساعة 11,15 عندما حلقت المروحيات من الناعمة، وهي تحمل حمولتها البشرية الثمينة تنهدت قيادة الجيش في تل أبيب داخل مقرها الذي أثقلت اجواءه بدخان السجائر... صرخ أحد الجنرالات «إنها معجزة ضخمة».

وفي اليوم التالي، شيع الجيش، والناس المقدم ميتال الذي يعد من خيرة ضباط الجيش في قوات الكوماندو، والذي كان يعد ليصبح رئيساً للأركان فيما بعد.

كانت عملية الناعمة مزيجاً من النجاح والفشل على السواء.. لكن أحمد جبريل بقي حياً.

وهكذا مضت عملية قبية، غارة الطائرات الشراعية، واشعال فتيل الانتفاضة الفلسطينية، وعملية كريات شمونا دون أن يتمكن الجيش الإسرائيلي من الانتقام من مسببهم، وبدفن المقدم ميتال إزدادت في سجل جبريل مزيداً من الرغبة بالانتقام منه...

لم يعرف سوى القليل عما حدث لأحمد جبريل أثناء تلك الغارة الكبيرة على مقر قيادته في الناعمة. وقد جاء في بيان لوكالة المخابرات الأمريكية التابعة لوزارة الدفاع بآن احمد جبريل بقي داخل نفقه الحصين لما يزيد على ست عشرة ساعة بعد بداية الهجوم.

بعد ظهر ذلك اليوم ظهر جبريل في مؤتمر صحفي ليعرض غنائمه من الجيش الإسرائيلي، مناظير الرؤية الليلية، وبنادق القناصة، وحقائب المتفجرات، و الكلاب الانتحارية الإسرائيلية التي استخدمت في تلك الغارة، وكذلك البنادق الإسرائيلية المجهزة بكواتم الصوت. وأعلن أمام الصحفيين بأن قواته كبدت الإسرائيليين خسائر فادحة بين قتلى وجرحى. وأن الانتقام على هذه الغارة سيأتي قريباً.

واعتبر الناطق الرسمي الامريكي الإغارة تصعيداً للقتال في المنطقة وأدان إسرائيل لقيامها بهذا التصعيد. وبعد أقل من اسبوعين من عملية الجيش الإسرائيلي في الناعمة انفجرت طائرة البانآم في السماء فوق لوكربي.

وهكذا بقي العنف الثوري لأحمد جبريل قائماً لاختيار توقيته المناسب..

الفصل العاشر

حفيف أوراق الخريف

الفصل العاشر

حفيف أوراق الخريف

كان ينبغي على الغارة الإسرائيلية الكبيرة على عرين جبريل في الناعمة، أن تعزز تضافر جهود قوات الأمن، وقوات مكافحة الارهاب بالعالم على شن هجمات انتقامية في الزوايا الأربع من العالم.

وكان ينبغي أمام العنف الدموي للعمليات «المسلحة» من طراز اضرب واهرب في الشرق الأوسط أن تؤدي محاولة قتل جبريل إلى رفع الأعلام الحمراء في كل العواصم الأوروبية ضده.

كما أن اقتراب فصل عيد الميلاد، كان يوجب زيادة أقصى درجات الاحتراس من العمليات «الإرهابية»، لأن فصل عيد الميلاد الذي يرمز لخير البشرية يحمل الناس على السفر إلى بلدانهم لتمضية عطلتهم. فالميلاد يمثل تاريخياً فترة إشعال النار «المسلحي» الشرق الأوسط، وأكثر الفصول إراقة للدماء، إذ وقعت فيه عملية مهاجمة العال في مطار أثينا في 26/ 12/ 1968، وعملية خطف وزراء أوبيك في فيينا في 21/ 12/ 1985، وكذلك عملية خطف وقتل 57 راكباً في طائرة الخطوط المصرية بوينغ 737 أثناء عملية انقاذهم.

والواضح أن اشرس عملية «ارهابية» وقعت خلال فترة العطل، هي المذبحة التي ارتكبت في مطار روما وفيينا في 27/ 12/ 1985 التي قام بها رجال أبو نضال عن طريق القتل العشوائي والوحشي..

ففي الساعة 09,3 صباحاً وقف أربعة رجال عند موقع وزن الحقائب في مطار ليوناردو دافينشي في روما، واستلموا بنادقهم الهجومية، وقنابلهم المضادة للأفراد من حقائبهم، وشرعوا بفتح نيرانهم حول موقع وزن الحقائب المخصص لطائرة العال. . ورد رجال أمن العال المدربين على يد «الشين بيت» بأسلحتهم وقتلوا «الإرهابيين الأربعة»، بعد أن قتل هؤلاء الأربعة 15 مدنياً وجرحوا سبعين آخرين.

كان منظر القتلى الممددين على الأرض بدمائهم، والشرطة تقوم باحصائهم قد جاء تجسيداً «للإرهاب» الدولي الدموي عدو الشعوب الذي ساد في الثمانينات. . كانت روما مجرد افتتاح لعاصفة النار، حيث تلتها بعد ذلك فوراً مذبحة شيطانية أخرى. . . فبعد دقائق من مذبحة مطار روما الدولي قام ثلاثة «إرهابيين» تابعين لأبو نضال بهجوم على مطار «شفيخات» الدولي بفيينا، وكان هدفهم موقع وزن الحقائب المخصص لشركة العال أيضاً، حيث كان المسافرون يعدون أنفسهم للصعود إلى طائرة العال في رحلتها رقم 364 المتجهة إلى تل أبيب. وخلال معركة قصيرة سادها تبادل الصليات النارية قتل ثلاثة، وأصيب 47 آخرون بجراح خطيرة. . .

كان من الواضح أن هدف هذه العملية هو نسف مصداقية ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية. . . فايطاليا والنمسا من البلدان الأروبية التي أقامت علاقات وثيقة مع قيادة منظمة التحرير الفلسطينية، وبذلتا جهداً كبيراً لحث إسرائيل على التفاوض مع الفلسطينيين. . . فمنذ أن ظهر بصيص صغير لإمكانية السلام صمم أبو نضال على نسف الأمال بالتسوية السلمية، وعلى تحطيم موطىء قدم عرفات في القارة الأوروبية. .

وكان هناك اعتقاد بأن هدفاً ثالثاً قد جرى تحديده للضرب في ذلك الصباح من شهر كانون أول. . فقد كانت المحاولة موحدة أراد القيام بها أعضاء جبهة الانقاذ الفلسطينية لاضعاف الموقف الدولي لمنظمة التحرير الفلسطينية. وكان جبريل قد وقع على حلف مع حركة فتح ـ المجلس الثوري ـ ووافق على شن هجوم انتحاري تقوم به الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ في مطار فرانكفورت كهدف ثالث في حلقة «الارهاب» المثلث لعيد الميلاد.

وكما يقول الصحفي الشهير باتريك سيل: «كان أبو نضال واحمد جبريل أثناء عمليات روما وفيينا يبذلان جهدهما للتنافس على كسب رضى العقيد معمر القذافي وملايين البترودولارات. فقد كان أبو نضال متشوقاً للحصول على المال الليبي لتوسيع حملته الاجرامية على إسرائيل، ومعتدلي منظمة التحرير الفلسطينية، بينما كان جبريل متشوقاً للهروب من قيود التنفيذ، لعدم ثقته بتماسك ووحدة المعارضة المعادية لعرفات». ولذلك قرر أبو نضال ابعاد الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ـ القيادة العامة ـ عن هيبة هذه العملية، والقيام بها لوحده، فحتى أبو نضال نفسه لم يرغب بأن تعلو موجة شعبية أحمد جبريل بعد عملية روما، وفيينا، وفرانكفورت، وتجعله يشارك في الثروة الليبية، أو كما قيل خاف أبو نضال أن تكون القيادة العامة مخترقة من قبل المخابرات الإسرائيليية (وربما الأردنية أو الأمريكية).

فبعض الناس ومن بينهم جبريل اعتقدوا بأن القيادة العامة يوجد فيها جواسيس ومخبرون ومرتدون وهذا ما سيظهر في العمليات القادمة.

وفي النهاية حقق أبو نضال مكسبه من أموال البترودولار المغمسة بالدم. لكن عمليات أبو نضال في روما، وفيينا، وكذلك عمليته في نيسان 1986 في ديسكو لابيل ببرلين الغربية (هجوم قام به مسلحان فلسطينيان شقيقان كانا يعملان لصالح سوريا) شجعت ريغان على الموافقة على عملية (الاكورديون) التي قام بها سلاح الجو الامريكي ضد ليبيا في 17 نيسان حين قصف مواقع عسكرية ليبية، و«ارهابية» وكذلك خيمة القذافي البدوية ـ مقر سكنه ـ.

ومع أن ليبيا كانت كبش الفداء المناسب، وليس الصحيح، فقد نفذت العملية الأمريكية بمساعدة دقيقة من قبل الجواسيس المضادين للثورة، بحيث أصبح من المعقول الامتناع عن تأييد العمليات «الإرهابية» الدولية ضد الغرب، وضد إسرائيل علناً ولمدة محددة من الزمن على الأقل... بعد ذلك خفف القذافي من حدته الخطابية وسحب الدعم العلني عن العمليات الفلسطينية في أوروبا، وعاد مرة أخرى للثناء على رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات، لإدارته

الدبلوماسية على طريق اكتساب الشرعية. ولمساوىء الصدف، لعبت هذه العوامل دوراً مميزاً أو رمزياً في احداث فصل الميلاد 1988.

من الصحيح القول بأنه كان على جبريل القيام بهجوم مؤثر أثناء فترة العطل إلا أن هجومه لن يكون على علاقة بعملية الناعمة. كما لن يكون لأحداث ميلاد 1988 علاقة بإسرائيل أو بلبنان أو بالصراع العربي ـ الإسرائيلي وإنما بعملاق كبير جديد دخل اللعبة «الإرهابية».. هو أمة تجسد كرهها العنيف للغرب خاصة للولايات المتحدة وإسرائيل في إطلاق شرارة الجهاد الذي فيه أخذت تستثمر لأجله الحماسة الدينية والأرباح المتواصلة من انتاج النفط... هذه الأمة هي أمة الجمهورية الاسلامية الايرانية.

يعتقد مسؤولو المخابرات الغربية بأنه لو نجحت قوات كوماندو غولاني في الوصول إلى نفق جبريل وقتله أو خطفه وفي سلب كافة الأوراق الموجودة في مكتبه هناك لكان من المحتمل أن لاتلقى رحلة بانآم 103 مصيرها الذي لاقته في السماء.

كانت أول اتصالات ايرانية حقيقة مع المنظمات الفلسطينية قد جرت عندما نزل آية الله خوميني من طائرة الايرفرانس 747، التي نقلته كزعيم روحي للشيعة من منفاه الفرنسي لاستلام السلطة في ايران الثائرة. وكان شاه ايران المتحالف مع الغرب، قد حافظ على علاقات حميمة مع الدولة اليهودية خلال سنوات كثيرة، رغم أن شعبه مسلم مئة بالمئة... وكان الشاه هو الوحيد من بين بلدان الشرق الأدنى الذي يبيع لإسرائيل الذهب الأسود، كما كان الجيش الايراني يشتري الرشاشات الإسرائيلية من طراز عوزي 9 ملم، وكانت أجهزة الأمن الإسرائيلية ـ الموساد والشين بيت الشهيرة تبني فعلياً جهاز السافاك ـ ادارة المخابرات التابعة للشاه....

وفي عام 1977 قال نائب وزير الدفاع الايراني حسن توفايتان لوزير الدفاع عيزر وايزمان: «نحن البلدان الوحيدان في المنطقة اللذان يعتمد كل منهما على الآخر». وكان يهود إيران البالغ عددهم نصف مليون يعيشون بازدهار تحت حكم

الشاه، وكان العلم الإسرائيلي يرفرف باعتزاز فوق سفارة إسرائيل بطهران. لكن الثورة الاسلامية جاءت وطردت الشاه، ونسفت علاقات ايران بإسرائيل. وكان أول زعيم في العالم يقدم التهنئة لآية الله خوميني على بداية العهد الاسلامي في المنطقة هو رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات. وقد حاول عرفات أثناء فترة السيطرة على السفارة الأمريكية ومحنة المخطوفين الامريكيين داخلها لمدة 444 يوماً أن يقوم بمهمة الوسيط النزيه بين الغرب، والحرس الثوري الايراني الذي كان يسيطر على 52 رهينة امريكية. . . وقد تعهد الخوميني بارسال قواته إلى فلسطين للمساهمة في تدمير الكيان الصهيوني وتحرير المدينة المقدسة للمسلمين. . .

لكن العلاقات بين إيران ومنظمة التحرير الفلسطينية لم تتطور أبداً إلى تحالف قوي طالما تمناه عرفات. . . فقد أدى الغزو العراقي لايران إلى انقسام العالم الغربي والاسلامي وكان من الطبيعي أن تقف منظمة التحرير الفلسطينية التي تتلقى مساعدات من صدام حسين إلى جانب بغداد. . . وكانت سوريا هي البلد العربي الوحيد الذي أيد ايران. أما المنظمات الفلسطينية المؤيدة لسوريا بتغذية اتصالاتها مع الحرس الثوري الايراني والمنظمات القائمة على غراره في لبنان، أمل ـ وحزب الله. كانت الروابط القائمة بين شيعة لبنان والايرانيين وجبهة احمد جبريل مثمرة جداً. ففي جنوب لبنان أخذ التحالف بين ـ القيادة العامة ـ والشيعة يلاحق القوات الإسرائيلية المنسحبة بفعالية عنيفة، حيث كانت القوات الشيعية تقدم حماية جيدة لعدد من مواقع الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ وفي محاولات قليلة كان رجال جبريل يتدربون سوية مع رجال حزب الله، ويقومون بمناورات واسعة مشتركة في وادي البقاع. وكما تقول أنباء الصحافة الايرانية كان الفلسطينيون والشيعة يعدون أنفسهم لتحرير فلسطين معاً.

كانت المسألة الرئيسة التي تهم جبريل من اقامة علاقات حميمة مع الايرانيين وكذلك تمتينة للتعامل مع الليبيين هو الحاجة المستمرة للمال. . فمنذ عام 1986 حتى عام 1987 قطع السوريون بشكل كبير دعمهم للجبهة بسبب أوضاعهم الاقتصادية السيئة، وكذلك بسبب العقوبات الدبلوماسية، والاقتصادية التي فرضت

عليهم بعد المحاولة الفاشلة لتفجير طائرة العال. وكما يقول أحد محللي المخابرات الإسرائيلية الذي فضل عدم ذكر اسمه: «لم تكن القيادة العامة منظمة مزدهرة اقتصادياً باستثماراتها في 500 شركة وفي أعمال العقارات، والاسهم مثل منظمة عرفات. وإنما كانت القيادة العامة مثل كلب تحت طاولة ينتظر الحسنات، وكان عليها أن تقبل القيام بأي شيء مقابل المال، بغض النظر عن مبررات ذلك، وبغض النظر عمن يقدمه».

وعندما خفضت سوريا مخصصاتها تحول جبريل إلى ايران التي لن تستطيع على غرار الليبيين أو العراقيين أن تقدم من اموال نفطها لرعاية عمليات القيادة العامة ضد إسرائيل عبر حدود لبنان، أو ضد أوروبا من خلال خلاياها السرية في أوروبا الغربية. كما أن ايران كانت قد أفلست نفسها جراء تكاليف القتال ضد العراق، وكانت قد مولت نشر الأولاد من عمر 14 سنة في الجبهة من خلال خطف الرهائن في لبنان ومقايضتهم بالأسلحة الأمريكية والإسرائيلية... وبالرغم من كل هذا قام جبريل بجهود حثيثة لمتابعة المصالح الايرانية في كانون أول من عام 1987. فبعد التنفيذ الناجح للجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ في عملية قبية ـ الطيران الشراعي ـ اجتمع جبريل بوزير الخارجية الايرانية علي أكبر ولايتي في طرابلس ـ ليبيا ـ للتعبير عن تأييد جبهته للثورة الايرانية الاسلامية، وللمساعي الايرانية الهادفة إلى تشكيل منظمة اسلامية لتحرير فلسطين، كبديل عن منظمة التحرير الفلسطينية. كان جبريل يريد جوهرياً الاسراع بالعمل واعداً بتقديم خبرات القيادة العامة التنظيمية والتدميرية مقابل المال الايراني.. ولكن الايرانيين كانوا دهاة في الصفقات ومساومين من الطراز الأول.

ولذلك اضطر جبريل الاعتماد على الكرم الليبي والمال الليبي. فليبيا تمثل الترتيب الذي ترتبط به كافة الخيوط. فقام الليبيون عبر جهود وساطة رئيس المخابرات العسكرية السورية الجنرال علي دوبا باستثمار القيادة العامة للقيام بمهمة الوكيل في ترتيب الرد الانتقامي ضد عملية «الاوكورديون» التي قامت بها الولايات المتحدة الأمريكية». وكان جبريل قد فرز قسماً من جيشه لدعم الليبيين أثناء حربهم القومية ضد تشاد، كما فرز كوادر تلقت التدريب الاستخباراتي في الكي

جي بي وبعض «الإرهابيين» السريين لتنفيذ بعض المهمات الاستخباراتية الليبية في انحاء العالم. . . ومقابل هذا الترتيب تلقت القيادة العامة من الليبيين مخصصاً سنوياً من 20 إلى 25 مليون دولار. لكن هذا التمويل أخذ بالتناقص حتى أواخر عام 1987.

وعندما بدأت العقوبات الغربية تضرب هيبة سوريا، واقتصادها الوطني إثر العملية الفاشلة في تفجير العال، أخذت الأنشطة الغربية تعطل أيضاً الرغبة الليبية الساعية إلى نيل هيبة سياسية واحترام دولي. . . . وفي تشرين ثاني من عاعم 1988 أعلن عرفات بشكل مختصر تنديده «بالإهارب» في مؤتمر صحفي باستوكهولم. مما أتاح للقذافي نافذة سياسية للفرار من المحاصرة التي تقودها ضده الولايات المتحدة وأخذ القذافي يصم آذانه عن رغبة الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ بتصعيد الكفاح المسلح. ولو أيد القذافي الهجوم الدبلوماسي الذي قام به عرفات لأمكن له اعادة ليبيا إلى صفوف النظام العربي وبالتالي إلى صفوف النظام الدولي.

لقد اعتبرت واشنطن اعتراف عرفات على نحو ما بخطاياه القديمة، وكذلك القبول المشروط لمنظمة التحرير الفلسطينية بالوجود الفعلي لدولة تدعى إسرائيل نوعاً من الاختراق الكبير رغم أنها فشلت في تحقيق الاعتراف بعرفات داخل الولايات المتحدة، وفي الحصول على أي رد إسرائيلي لتصريحات عرفات.

كان كل ما فعلته هذه العملية، إنما هو إثارة مشاعر الانتقام عند جبهة الانقاذ الفلسطينية، وزيادة تصميمها على التخلص من عرفات. فنزع الثقة عن عرفات لتعهده التنديد «بالارهاب» لن يسبب الغاء التعاون الجديد للغرب معه فحسب وإنما سيجعله خائناً أمام الجماهير العربية كزعيم يقدم التنازلات السياسية لأمريكا بدلاً من تأكيده على الحقوق الشرعية الفلسطينية.

كان جبريل يتوقع خيانة عرفات منذ سنين. ولكي يصفعه سياسياً وجسدياً كانت خطته هي: شن هجمات شريرة داخل أوروبا الغربية لا تؤدي إلى قتل أكبر عدد ممكن فحسب وإنما إلى إعطاء بيان رمزي عن الشجاعة بما يشبه عملية ميونيخ ضد الرياضيين الإسرائيليين عام 1972 التي هزت الأمن الاوروبي وحريات

المواطنين. . كان المطلوب احداث أضرار سياسية من أي هجوم يقوم به جبريل لإجبار عرفات على الرجوع مهرولاً وخائفاً نحو تونس. وكانت خطة جبريل تستدعي تصفية معتدلي منظمة التحرير في الخارج والقيام بانقلاب يؤدي إلى سيطرة جبريل على الثورة الفلسطينية سياسياً وعسكرياً.

لكن منظمة التحرير الفلسطينية كانت تدرك أيضاً بأن جبريل يسعى إلى جعل نفسه القائد الأعلى للحركة. . . وكانت التوجيهات المعطاة (لقوات الـ17) التابعة لعرفات محددة بمراقبة أي مسلحين، حتى لو كانوا من داخل فتح ينوون التعرض لحياة عرفات. وكما قال أحد مسؤولي الأمن في منظمة التحرير الفلسطينية «كان جبريل بالنسبة لنا أخطر رجل في العالم العربي» وبالفعل كان لدى جبريل بنية تحتية سرية في أوروبا قادرة على تنفيذ عمليات «ارهابية» من هذا النوع.

كان جبريل قد أسس منذ سنوات سابقة بنية تحتية «ارهابية» مكثفة وعالية الكفاءة في أوروبا الغربية. . . فالخلايا الجاهزة كانت في كل من السويد والدانمارك وهولندا، وكانت قوات الدعم في يوغسلافيا. وبغية حشد وتنسيق الأنشطة «الإرهابية» اقيمت قاعدتان اقليميتان ضمتا أكبر مخازن السلاح وأكثفها فعالية: الأولى تتولى قيادة جنوب أوروبا ومنطقة البحر المتوسط، وهي في اليونان عضو حلف الأطلسي المؤيد للفلسطينيين والتي تغض النظر عن العمليات «الإرهابية» الشرق أوسطية ضد المصالح الغربية والإسرائيلية بشكل خاص. وكانت قد تأسست قاعدة صغيرة تابعة فوق جزيرة مالطا حيث كان رجال البحرية الليبية ينعمون بحريتتهم في منطقة كان يعتبرها الكثير من المراقبين موطىء قدم القذافي في أوروبا، وقاعدة تجسس وعمليات «إرهابية» ضد القارة الأوروبية.

أما القاعدة الاقليمية الثانية، فقد أقيمت في المانيا الغربية. البلد الذي كان يقيم في اراضيه آلاف العمال الفلسطينيين والعرب الزائرين بحثاً عن العمل واللجوء السياسي. ففي ألمانيا الغربية يمكن للقيادة العامة الحصول على احتياطي جيد من المجندين والمؤيدين، اضافة الى أن اتصالات جبريل بالجيش الأحمر الألماني وبالجيش الجمهوري الايرلندي ستزوده بشبكة من الحلفاء والرفاق. . .

والأهم من هذا ما تشكله المانيا من تداعيات تاريخية للعمل «الإرهابي» الفلسطيني فوق ترابها. فهي كانت نقطة انطلاق الهجوم «الإرهابي» لأيلول الأسود عام 1972 على المدينة الرياضية بميونيخ، وهي الأرض التي تعهد جبريل بمضايقتها، وتعذيبها في الشهور القادمة. وقد كانت قاعدة الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ في ألمانيا الغربية وعملياتها شديدة الأهمية بحيث جعلت جبريل يعطي مسؤوليتها لمساعده المخلص، والأمين حافظ دلقموني.

لكن هذا الجيش السري للقيادة العامة في أوروبا، وما يملكه من تصميم، وتدريب ورغبة بالعمل يحتاج إلى مصادر تمويل. فالمنازل السرية والتخفي في أوروبا يستلزم مالاً كثيراً. . .

لذلك كان على القيادة العامة النضال كثيراً بغية الاحتفاظ بدكان اوروبي. فهجوم «ارهابي» واسع يسعى لتدمير عرفات يستلزم ضخ أموال كبيرة على الفور وبسرعة. ومما فاقم الصعوبات المالية لجبريل أن عدداً من أعضاء المنظمة العربية 15 أيار المتخصصة بصناعة القنابل انضم إلى القيادة العامة بعد أن انحلت المنظمة. والجدير بملاحظته أن معظم عناصر هذه المنظمة انضم لفتح بينما انضم ـ ضباط العمليات ـ في أوروبا وخبراء التدمير لقوات أحمد جبريل.

وجدت القيادة العامة نفسها، وهي في أزمة مالية مجبرة على القيام بمسؤولياتها خاصة حماية ـ الشبكة الأوروبية الغربية التي اقيمت في أوروبا منذ سنوات. كان وضعها المالي المفلس لا يؤهلها لتنفيذ خطتها المميتة. لكن حدثين هامين غيرا وضعها.

الأول كان اكتشاف جبريل الجديد للحماسة الدينية. فالانفتاح على الاسلام الأصولي منحه احتراماً أكبر عند ايران. حتى أن جبريل أصبح مسلماً أصولياً ـ وهو الاخلاص للعقيدة الذي يستلزم منه الصلاة خمس مرات باليوم. والدين قوّى تصميمه على ابادة إسرائيل. وقد أدى الاعجاب الشديد لجبريل بالاسلام الأصولي مع مضي السنين إلى تحويل الجبهة الشعبية القيادة العامة ـ إلى كيان يتحد فيه العنف الماكر «للإرهابيين» المتدربين بالرغبة الاستشهادية للمحارب الاسلامي. .

وعندما أصدر الامام الخوميني فتوات بقتل سليمان رشدي مؤلف كتاب: «آيات شيطانية» عرضت القيادة العامة مساعدتها على تولي هذه المسألة (طمعاً بثلاثة ملايين دولار جائزة قتل رشدي).

أما الحدث الهام الثاني فهو وقوع الخطأ الفني المميت في المياه الدافئة للخليج فوق مضائق هرمز بالذات... فهذان الحدثان شكلا قدراً جعل من هذاالتحالف «الإرهابي» الرسمي الذي سيعقد بين جبريل وايران أن تكون له آثار منذرة بالسوء على الغرب. فقد جرى الاتحاد بين منظمة قوية معروفة بتعصبها للكفاح المسلح والعنف، وبين شعب دولة لا تبالي بنقد العالم وعقوباته، وتملك مصادر قومية كبيرة، وتعد بتصعيد مستويات العنف في الشرق الأوسط إلى أقاصيها...

في ساعات الصباح الباكر من نهار 3 تموز 1988 اقلعت طائرة تابعة لشركة الطيران الايرانية من طراز «ايرباص» فرنسية الصنع (أ 300) في رحلتها رقم 655 من المطار المدني ـ العسكري في بندر عباس، متوجهة إلى دبي عبر مياه الخليج.. كان ذلك الوقت هو الأيام الأخيرة للحرب العراقية ـ الايرانية التي كلفت أكثر من مليون قتيل وجريح، دون أن تفعل شيئاً في زعزعة مواقع صدام حسين أو الخوميني. وكان القتال على الأرض يشبه لهيب قتال الحرب العالمية الأولى، استخدم فيه الغاز والقتل الواسع للبشر. وكانت الحرب سجالاً متبادلاً بين الطرفين المتحاربين ابتداءً من الغزو العراقي الأول حتى معارك الأهوار...

وعند صيف 1988 أخذ الايرانيون يخسرون الحرب، فاستخدام العراقيين للصواريخ الباليتسية بعيدة المدى، والأسلحة الكيماوية، وسلاح الجو العراقي من صنع فرنسي، وسوفياتي بما تدمره من أهداف داخل ايران ادى إلى ضرب الروح المعنوية وروح القتال عند المحاربين الايرانيين الاسلاميين في حربهم المقدسة. حينذاك كان الايرانيون يحاولون القيام بهجومهم النهائي دفاعاً عن أراضيهم، وعن سمعتهم القومية قبل وصول الأمم المتحدة، ومفاوضاتها إلى حل يضع حداً فعلياً للحرب التي لا نهاية لها بين الطرفين.

كانت قوات البحرية الأمريكية العاملة في الخليج، والتي انتشرت في تلك

المياه المضطربة 1987 لحماية المرور الحر والآمن لناقلات النفط الكويتية تعتبر امكانية وقوع هجوم ايراني كامل مترافق بعمليات هجومية معلنة على مصالح الولايات المتحدة أمراً ممكناً وخطيراً.

وفي بندر عباس التي تشكل فتحة الخروج إلى الطريق المائي الاستراتيجي كان الايرانيون يحشدون سلاح الجو الذي بناه الشاه وجعله أقوى سلاح جو في المنطقة، والمعد من طائرات (ف4) التي كانت تتلقى قطع غيارها من إسرائيل وطائرات (ف14) (توم كات)، كما كانت في بندر عباس قاعدة لعدد من بطاريات الصواريخ الصينية.

وبالاضافة إلى ذلك كانت المجموعات الانتحارية التابعة للحرس الثوري قد انتشرت بالبحر، مستخدمة قوارب صغيرة، مسلحة بالمتفجرات وقاذفات (الآر بي جي) للالتحام بالقوارب البحرية الأمريكية.

وفي 3 تموز 1988 اطلقت النار عند الساعة 10,10 صباحاً على طائرة هليوكوبتر تابعة للباخرة الحربية (يو س س فانسانز) المجهزة بالصواريخ الموجهة، وتبين أن ثلاثة قوارب إيرانية صغيرة كانت تقوم بدورية خارج المياه الاقليمية لبندر عباس هي التي أطلقت النار، فتوجهت على الفور الباخرة فانسانز، وكذلك باخرة مونتيغمري وقامتا بضرب القوارب الايرانية مما تسبب باغراق قاربين منهما.

كانت باخرة (ايغيز فانسانز) أحدث سفينة حربية في سلاح البحرية الأمريكية، (وفي العالم أيضاً) وتستخدم أحدث جهاز معلوماتي قتالي، يجري التحليل داخله بواسطة كومبيوتر، وتتمتع ببرنامج عرض يكفل استمرار التواصل مع أية تغيرات سريعة في الأوضاع التكتيكية أثناء القتال الشامل.

كانت تقنية السفينة البحرية (ايغيز) المتخصصة في التوجيه الكومبيوتري لأسلحتها تتصف بالبساطة التامة. إلا أن الخبير الشهير في سلاح البحرية الأمريكية الدكتور نورمان فريدمان يقول: «ليس هناك نظام كامل حتى نظام السفينة أيغيز. .» وهذه القابلية للخطأ لا بد أن يكون لها تأثيراً هائلاً فيما بعد. . .

فعند الساعة 10,47 صباحاً بعد وقت قليل من المعركة البحرية ضد قوارب الدوريات الايرانية اكتشف ضباط جهاز المعلومات القتالي العامل على السفينة

فانسانز طائرة تبث اشارات من جهازي ارسال، تبثها عادة طاءرات الـ ف14. وكانت الطائرة تقلع من بندر عباس متجهة نحو السفينة البحرية فانسنز عبر ممر مباشر وخطير. كان ذلك اليوم هو الثالث من تموز قبل يوم من ميعاد الاحتفال بيوم الاستقلال الامريكي ـ العيد الوطني للولايات المتحدة ـ حيث يمكن أن تشكل أية ضربة ايرانية ضد أية سفينة حربية امريكية حالة ينتج عنها اعلاماً ضخماً لايران في العالم الاسلامي. لم تغب هذه الحقيقة عن ربان السفينة فانسنز الكابتن الداهية ويل سي روجرز، فقد أدرك الكابتين روجرز أهمية رمزية المناسبات في المنطقة. ولذلك قام بجهود متزايدة للتحقق الدقيق والمطلق لهوية الطائرة.. (عدو أو صديق) قبل القيام بأي إجراء دفاعي... وقد حدد جهاز التحليل الكومبيوتري الطائرة على أنها من نوع ف14 توم كات ايرانية. وكانت امكانية القيام بهجوم جوي ايراني أو هجوم انتحاري واردة بشكل حقيقي.

كانت قواعد المجابهة تسمح للكابتين روجرز باطلاق النار على الطائرة إذا اقتربت إلى مسافة 20 ميلاً من السفينة، وعند الساعة 10,51 أشار ضوء الرادار إلى رقم 20 ميلاً وعند الساعة 10,54 أمر روجرز باطلاق صاروخين من نوع ستاندرد أرض ـ جو لضرب الهدف الغامض. وبعد ثوان معدودة تم تدمير الهدف.

بعد ساعات قليلة اتضح أن السفينة فانسنز قد قامت بخطأ مريع.. فقد اصاب صاروخ من الاثنين على الأقل طائرة شركة الخطوط الايرانية المدنية في رحلتها رقم 655 وتفتت الطائرة إلى آلاف من القطع الصغيرة تسبب هذا بمقتل 290 مسافراً وملاحاً كانوا على ظهرها ومن بينهم 60 طفلاً صغيراً. كانت اللقطات المصورة للجثث العائمة فوق مياه الخليج وسط القطع المدمرة للطائرة يمثل المأساة الجنونية لحادث تدمير الطائرة الايرانية. ورغم أن ريغان بعث برسالة اعتذار للحكومة الايرانية عن طريق الوسطاء السويسريين في اليوم التالي 4/7/1988 إلا أن غضب طهران استمر ملتهباً* . فقد خرج عشرات الآلاف من الايرانيين الذين افجعهم

* يحاول المؤلف الصهيوني دون جدوى تبرير قتل الاطفال والمدنيين في تلك الطائرة المدنية لأنه يناقض نفسه حين يؤكد في البدء وجود كومبيوتر ورادار لا يخطىء في تحديد هوية الطائرة ثم يعود ويعلن بأن الخطأ تسبب بتدمير الطائرة!!

الحزن إلى الشوارع في طهران حزناً على ابنائهم وذويهم. وقد اعتبر المسؤولون الايرانيون ما حدث بأنه: «أكبر جريمة ترتكب في التاريخ» وكانت هتافات «الموت لأمريكا» تصم الآذان... وأخذ الايرانيون وبشكل خاص نخبتهم القيادية التي تستمتع عادة بدق طبول الحرب تشجيعاً للجهاد ضد الأمة التي وصفوها بالشيطان الأكبر ينادون بالانتقام ضد الولايات المتحدة، رغم أن الدعوات العامة للانتقام كانت قليلة.. وكانت القيادة الايرانية برئاسة علي أكبر هاشمي رفسنجاني «المعتدل» تدرك بأن ايران لا تستطيع مقاتلة العراقيين والامريكيين وحلفائهم في الوقت نفسه، إذا ما أوقعت بالأمريكيين عقاباً كبيراً على تفجير الطائرة الايرانية.. وكان من بين مسؤولي الحكومة الايرانية من طالب بايجاد طريقة تجعل أمريكا تدفع ثمن عدوانها الشرير دون الاشتباه بايران ابداً...

وكان من بين المتشددين علي أكبر محتشمي وزير الداخلية القوي، ومهدي خروبي السياسي المتنفذ، وداعية العنف، ومسؤول صندوق أسر الشهداء الذي دعا إلى تخصيص مكافأة لكل من يثأر لتدمير الطائرة الايرانية من الولايات المتحدة.

كان تفجير الطائرة الايرانية هبة من السماء لأحمد جبريل الذي كان يصغي للأنباء في مكتبه بدمشق. فقد أدرك أن ايران بحاجة إلى عمل، وأنه من غير المحتمل أن تضرب ضربة ما لوحدها.. وإنما ستحتاج إلى من تستأجره، أو تعقد معه عقداً فرعياً إنها بحاجة إلى طرف ثالث للانتقام من الغطرسة الأمريكية.

وهكذا أراد أحمد جبريل أن تكون منظمة الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ هي المطلوب...

وكما تقول تقارير المخابرات الغربية تكثفت الاتصالات في قواعد جبريل السورية واللبنانية في ذلك اليوم من شهر تموز. فقد رغب بالحاح بترتيب لقاء بينه وبصحبته حافظ دلقموني وبين الممثلين الايرانيين في مدينة بعلبك الأثرية في وادي البقاع، التي كانت تعد قلعة لحزب الله في لبنان وتحت حماية جيدة يوفرها آلاف الجنود السوريين. لم يوفر جبريل أية وسيلة في محاولته الحصول على المال الايراني مقابل ازهاق أرواح الامريكيين. كان جبريل يعتقد بأن أي مسؤول ايراني

بدءاً من قائم أعمال السفارة الايرانية في بيروت نيكسام حتى أي قائد ميداني في حزب الله له خط مباشر مع قباب العاصمة الايرانية، ولذلك لم يوفر الاتصال به. . . وقد جرت فعلاً سلسلة اجتماعات بين جبريل وممثلي وزير الداخلية محتشمي في البقاع.

كانت المقايضة بسيطة ـ قصيرة وموجزة: الانتقام لكارثة الطائرة الايرانية المدنية مقابل المال ـ الكثير من المال. وكما تقول مصادر مخابرات وكالة الأمن القومي الامريكي كان جبريل يستخدم خطاً هاتفياً غير آمن للاتصال من لبنان بمحتشمي شخصياً، لكي يعرض له قائمة طويلة من الأهداف الأمريكية الممكن ضربها في أوروبا مقابل الثمن.*

ولأن جبريل يتفهم الواقع التاريخي للإيرانيين فقد وعدهم بضرب أهم هدف يفي بهذا الغرض وهو طائرة ركاب امريكية ـ يفضل بوينغ 747 جمبو مليئة بالمسافرين. كان محتشمي نفسه ذا خبرة قديمة في رعاية العمليات الإرهابية. فمحتشمي التابع منذ مدة طويلة لآية الله خوميني كان قد أكمل تعاليمه الدينية في مدرسة بالمدينة المقدسة، قم قبل الانضمام إلى الخوميني في منفاه بالعراق عام 1965 ومن ثم إلى فرنسا.

وبعد طرد الشاه أعطي محتشمي مهمة تطهير النفوذ الغربي من محطات الراديو والتلفزيون الايراني، وهذا ما أنجزه بدقة مميتة.

فقد حوكم مئات من موظفي التلفزيون، والراديو، ومعهم الفنيين واعدموا على الفور. وبسبب حماسته وطموحه الكبير كتلميذ لفكر الخميني العظيم عهد له بمنصب سفير ايران في سوريا، حيث سيتسنى له فيها تحقيق حلم الخميني بانجاز

* يحاول العدو الصهيوني دوماً وصف التحالفات السياسية التي تقوم بين منظمة فلسطينية ودولة أخرى أو قوة أخرى ضده على أنها ارتزاق مقابل المال ـ أو عمالة ـ أو تبعية الخ من الأوصاف التي يعرف أنها غير حقيقية ولذلك يتهم ـ القيادة العامة ـ بأنها تقدم خدمات مقابل المال بينما يناقض نفسه تماماً حين يتحدث عنها في صفحات سابقة على أنها مستقلة وعلى أنها تسعى دوماً إلى إيقاع الخسائر البشرية بالعدو مهما كلف ذلك من ثمن.

ثورة شيعية في لبنان. وفي عام 1982 أصبحت السفارة الايرانية في دمشق القاعدة المركزية في تحويل الساحة اللبنانية المتحاربة سياسياً إلى ساحة تجري فوقها حرب الجهاد الحقيقي الأول.. وهذا الهدف، عمل له محتشمي الذي عمل له بمهارة كبيرة. ففي أقل من سنة تحول الشيعة في لبنان من أغلبية ضعيفة إلى أقوى كيان في المنطقة. وكان محتشمي وراء النجاحات الكبيرة التي احرزتها امل وحزب الله في عملياتها الأولى.

وكان هو أيضاً المحرض الروحي، بل والعقل اللوجستي كما يقول البعض لعمليات الخطف التي وقعت في بيروت، وكذلك عملية تفجير السفارة الأمريكية ومقر المارينز الذي قتل فيه 241 جندياً امريكياً دفعة واحدة. عندما بدأ حزب الله بخطف الرهائن حسب تعليمات محتشمي، ومن بينهم وليام باكلي رئيس محطة (السي آي ايه) في لبنان. وبتصعيد العمليات ضد القوات الإسرائيلية بلبنان اثبتت أيدي محتشمي جدارة كبيرة.

وبرمزية حقيقية لما تقوله التوراة فقد تفجرت بعض أصابع محتشمي من يده اليمنى حينما فتح رسالة متفجرة اعتقد الكثير بأنها من ترتيب الموساد في تل ابيب.

كان محتشمي قناة لايران بين المنظمات الفلسطينية في لبنان. فمنذ أيامه الأولى في المنفى مع خميني في العراق حتى عودته منتصراً إلى طهران، كان محتشمي الرجل المسؤول عن اقامة الاتصالات الأساسية مع المنظمات الفلسطينية المختلفة. وكان يعرف جبريل منذ سنوات، وكان يعتز بالمهارة العسكرية للجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ والأهم من هذا كله كان يثق بأحمد جبريل.

كان يمكن للصفقة التي عقدها جبريل، ودلقموني، ومحتشمي، للضربة القادمة أن تبقى سراً شيطانياً، لو لم يكن الايرانيون والقيادة العامة هدفاً تحت أنظار المخابرات الأمريكية والإسرائيلية. وكما تقول العديد من التقارير كانت المخابرات العراقية وهي عدو الايرانيين، والسوريين، والقيادة العامة تراقب أيضاً مدبري الاحداث في طهران. واستناداً إلى التقارير الأجنبية كان عملاء المخابرات الإسرائيلية (وكذلك عملاء من المخابرات الأمريكية) يرصدون تحركات جبريل

إلى بيروت، والبقاع، ودمشق حينما كان يغازل الايرانيين والدبلوماسيين منهم بوعود ـ «ادفعو مقابل الانتقام». ومع أن الموساد كان قد حذر الامريكيين من أن الايرانيين سوف يحاولون الانتقام بمساعدة ممكنة من بعض الفلسطينيين بتدمير طائرة ركاب امريكية. فقد عزز ظهور جبريل اللاحق في طهران هذا القلق، وحوله إلى مبرر لمخاوف جدية. . ولم تحدد بعد الصورة الدقيقية التي جرت في مكتب محتشمي في طهران. . فقد قيل أن مصافحة الأيدي بين جبريل والوزير الايراني للداخلية نجم عنها / 2/ مليون دولار مقدماً تحولت إلى حساب القيادة العامة في دمشق وثمانية ملايين بعد التنفيذ الناجح للعملية.

كانت خطة جبريل الأساسية طموحة جداً، على نمط أعمال منظمته لكن بأقل قدر من الخبرة التنفيذية. . إذ تضمنت خطف عدد من الطائرات الأمريكية التي تستخدم مطار فرانكفورت، واحضارها إلى المناطق اللبنانية التي تخضع للسيطرة السورية أو حتى إلى ايران نفسها. . . ثم يجري تجميع الركاب الرهائن (بضعة مئات) إلى أن تلبي الولايات المتحدة المطالب الايرانية. التي ستتضمن «تعويضات مالية». فالايرانيون لهم سجل ناجح جداً في احتجاز الرهائن، وللأمريكيين في المقابل سجل بائس في انقاذهم. . . على أية حال لم تكشف التفاصيل الحقيقية للخطة الايرانية الخاصة بالانتقام البتة. . . لكن المعروف أن جبريل خطط لاستخدام الثروة الجديدة التي عثر عليها في تلبية ما التزم به للقيادة الايرانية، وكذلك في مهاجمة اهداف إسرائيلية إذ يجب عليه الانتقام أيضاً للغارة الإسرائيلية على الناعمة. . فهو لن يفجر طائرة امريكية، أو يهاجم ناد الماني يرتاده الجنود الامريكيين فحسب، وإنما سيضرب أيضاً الطائرات الأمريكية التي تسافر إلى إسرائيل، ومن بينها طائرة شركة ايبيريا الاسبانية التي تقلع في رحلتها 888 من برشلونة إلى تل أبيب، وكذلك طائرات العال التي تسافر من ألمانيا إلى اسبانيا إلى إسرائيل.

وكانت خطة جبريل تقضي بخطف الطائرات الأربع خلال الأيام الأربعة التي تسبق عيد الميلاد، حين تكون مليئة بالمسافرين، وحين يكون أثر مثل هذه العمليات الإرهابية في الأوج.

وفي ايلول 1988 سافر دلقموني من القاعدة الأوروبية المتقدمة للجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ في البلدة اليوغسلافية كورسيفال، متجهاً إلى ألمانيا الغربية للاجتماع بخلاياه السرية والإعداد للمهمة معهم. وكانت الشقة في بلدة كروسيفاك تستخدم كمخزن أسلحة للجبهة، حيث كانت تضم كميات ضخمة من الأسلحة والذخيرة ومواد سيملتيكس المتفجرة.

كان على دلقموني أن يصل إلى جمهورية المانيا الغربية جاهزاً للبدء بالعمل... وكان مجموع أعضاء الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ العاملين في ألمانيا الغربية 34 فرداً... وهذه القوة كبيرة نسبياً حين تحشد في بلد واحد، ووجودها بهذا الحجم يولد مخاطر أمنية جدية لأنها لا بد وأن تثير انتباها غير مرغوبٍ به يمكن أن ينبه قوات الأمن.

كما أن صلات خلية دلقموني ودعمها بالسلاح لمنفذين في السويد ضاعف من خطر كشفها ـ (من بين من كانوا على صلة بها أعضاء سابقون في جبهة النضال الشعبي الفلسطيني ـ وهي منظمة «ارهابية» مستقلة يقودها سمير غوشة الذي خرج عن ولائه لسوريا وليبيا). فعضوان من رجال عملياتها في السويد هما محمد أبو طلب ومارتين أماندي سيكون لهما دور في الأحداث القادمة...

كان دلقموني قد أحضر معه الكثير من الأسلحة، بما يكفي لتسليح ثلاثة اضعاف عدد رجاله في ألمانيا.

دخل دلقموني المانيا الغربية مستخدماً جواز سفر سوري .حيث حرص على اتباع التعليمات الامنية المناسبة التي يتبعها الرجل المطلوب عادة، فهو كان يستخدم الهواتف العامة في اتصالاته الهامة، وكان يرتدي ثياباً تبعده عن المراقبة.. ولكن الأمن الألماني كان على علم بتحركات دلقموني في كانون ثاني، عندما وصل بشكل أولي إلى (نويس) الضاحية النموذجية لدوسيلدروف ـ (القاعدة الاقليمية للخلايا السرية) بصفته أجنبياً يجري تسجيل اسمه في سجلات المانيا.. كما أن دلقموني لم يكن زائراً عربياً مجهولاً في المانيا، إذ كانت خطواته العرجاء الواضحة، وكذلك صورته في ملفات الانتربول بعد دخوله إلى السجن في إسرائيل تجعل منه رجلاً (معلنا عن نفسه).

وكان الألمان فعلاً على معرفة بعلاقة دلقموني بأحمد جبريل والجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ منذ خروجه من المعتقل الإسرائيلي عام 1979.

وقد جرى الحديث بتهكم عن أن الالمان لم يهتموا كثيراً بتحركات دلقموني لوجود اتفاقية سرية بينهم وبين السوريين بشأن النشاطات «الإرهابية» الفلسطينية على التربة الالمانية وفق صيغة: «لا تفجر أي شيء عندنا ونحن لن نتشاجر معك».

ويبدو أن الألمان ظنوا بأن دلقموني يأتي إلى البلاد لأعمال شراء روتينية لأسلحة وتجهيزات متقدمة، وهو لن يحمل معه الايذاء لأي كان. . . لكن الذي يظهر هو أن الموساد الذي كان يجري عملية جمع معلومات كبيرة في المانيا الغربية هو وحده ـ كما تقول التقارير الأجنبية ـ الذي كان يتتبع تحركات دلقموني باهتمام ما. . . وذكر أن محطة الموساد في بون حاولت دفع الالمان لعمل ما إزاء دلقموني، لكن نداء إسرائيل لم يلق آذاناً صاغية رغم أن الألمان كانوا على معرفة بدور دلقموني في معظم اجراءات عملية الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ عام 1987 عندما أعتقد بأنه هو العقل المدبر لعملية تفجير قطارين يقلان القوات الأمريكية قرب فرانكفورت.

ومنذ بدايتها كانت عملية دلقموني في المانيا معرضة للكشف والاحباط ـ إما عن طريق القضاء والقدر ـ جراء التسلل والتدخل الاجنبي، أو ربما جراء طبيعة التركيبة الداخلية لها ـ ففي ايلول 1988 عندما وقعت المحاولة الفاشلة التي قام بها جناح الجيش الأحمر الألماني لاغتيال وزير المالية الالماني هانز تيتماير واعلنت المسؤولية عنها باسم مجموعة كوماندو «خالد أكر» قامت ادارة الأمن الفدرالي الألمانية الغربية بفحص ملفات معلوماتها المخزنة في الكومبيوتر، وصلات هذه المعلومات بالشرق الأوسط. فخالد أكر اسم عربي يوحي بتورط فلسطيني. وعندما أشار شريط المعلومات الواردة من تل أبيب إلى خالد أكر قائد عملية ليلة الطائرات الشراعية وعبارة الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ واحمد جبريل وحافظ دلقموني الجوال. ظهرت امكانية حدوث هجوم «إرهابي» جديد مما أثار المخاوف والقلق في ارجاء قاعات الحكومة الالمانية ووزارة الدفاع. لقد كان توقيت عملية

«مجموعة خالد أكر» نذير شؤم. فقبل شهور عدة، كانت طائرة ايرانية مدنية قد فجرت في الجو وعرفات يواصل هجومه الدبلوماسي للاعتراف بإسرائيل دون التفوه بالكلمات السحرية لتهدئة المطالب الأمريكية. وقادة الارهاب من أحمد جبريل حتى أبو نضال يتعهدون بضرب واغراق أية تسوية سلمية بحمامات من الدماء.

هكذا كان الوضع الذي جعل الألمان يعتبرون أن الوقت قد حان للبدء بالعمل قبل أن تصبح شوارع المانيا مجرد امتداد للحرب العربية ـ الإسرائيلية السابقة.

وجرت المصادقة على عملية المراقبة والتنصت التي حملت اسم «عملية أوراق الخريف».

ففي الشهر التالي بدأ ما يزيد على سبعين من رجال الأمن الالماني يعززهم عناصر من نخبة قوات حرس الحدود الفدرالي من مجموعة قوات مكافحة «الارهاب» وانقاذ الرهائن، اضافة إلى عملاء من المخابرات الالمانية، وكذلك من جهاز مكافحة التجسس وجمع المعلومات بإجراء عملية مراقبة الكترونية فائقة التقنية طوال 24 ساعة. واصبحت ضاحية نويس مشهداً لأكبر عملية مكافحة للتجسس «وللارهاب» تجري في تاريخها بشكل يفوق الحملة الالمانية الغربية على منظمة بآدرمانيهوف في السبعينات.

كان مركز القيادة (الخاص برجال القيادة العامة) يقع في 16 شارع ايزارشتراسة في منزل البقال المدعو هشام عباسي، رجل لطيف كان يستضيف الدلقموني الذي قيض أن يكون عديله.. والحقيقة أن تحركات دلقموني في أنحاء أوروبا كان يجري تتبعها على طول الطريق من صوفيا في بلغاريا ـ إلى مقر القيادة العامة ـ في كروسيفاك ـ في يوغسلافيا وصولاً إلى داخل المانيا وذلك من قبل عملاء المخابرات الالمانية. وتقول تقارير اجنبية أن الموساد كان يرصد أيضاً تحركات دلقموني عن قرب. وعندما دخل دلقموني الأراضي الألمانية الغربية في 5/10/1988 بدأ الصف الطويل من زوار مقر عباسي ـ (وجميعهم اعضاء في الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ في المانيا الغربية) ـ يصلون «كالمدعوين إلى عرس» كما

يقول أحد عملاء المخابرات. وكان من بينهم احمد عباسي الأخ الأصغر لصاحب البقالية هشام عباسي الذي كان يعمل عضو ارتباط مع الخلية السويدية اضافة إلى أعضاء أخرين من الخلية السويدية من بينهم مارتين ايماندي ومحمد مغربي، ولم يصدق عملاء المخابرات الألمان وهم يلتقطون الصور الفوتوغرافية أثناء مراقبتهم وجود مثل هذا الحجم من المجموعة المتحركة أمام أعينهم في شارع ايزارشتراسه 16. لقد كان من غير المعتاد بتاتاً لهذا العدد من الشخصيات المشبوهة التحرك معاً لأن ذلك يعتبر تنفيذاً سيئاً لأبسط قواعد، وتكتيك ألتخلص من المراقبة، والتجسس عند أي «ارهابي» يعمل في الساحة الأوروبية. وكان من بين الزائرين للبقالية توبس رمزي دياب رسول ـ الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ واكثر شخصية يكتنفها الغموض الذي أحضر معه بعض الأغراض الخاصة في تركيب العبوات المتفجرة، وكذلك مروان خريسات صانع القنابل الشهير. الذي كان قد حقق لنفسه شهرة كبيرة خلال عشرين سنة. . .فصناعته للقنبلة التي تنفجر على بارومتر الضغط استخدمت في العديد من العمليات الإرهابية في أوروبا خلال السبعينات خاصة تفجير طائرة سويس ايرفي 21/ 2/ 1970 وكذلك الطائرة النمساوية وهي في طريقها إلى إسرائيل، اضافة إلى محاولاته الفاشلة في تفجير بعض طائرات العال المتجهة من أوروبا إلى تل أبيب. ولدى الألمان ملفات كبيرة عن سيد صانعي القنابل، قدمتها لهم مساعدة المخابرات الإسرائيلية. . وقد كان دخوله إلى القيادة العامة في نويس انعكاس ينذر بالسوء. . . لقد ظهر من الواضح أن هذا الاجتماع ليس لمجرد عملية «ارهابية» بسيطة تجري فوق الأرض الألمانية كما أن هذا الحشد ليس مجرد خلية «ارهابية» عادية.

إذ اتضح فيما بعد للمحققين الألمان الذي قاموا بعملية «أوراق الخريف» بأن أولئك العرب تحت المراقبة ـ كانوا ينوون القيام بعملية كبيرة.

والشقة الأخرى التي وضعت تحت الرقابة، والرصد الألماني كانت في سيندفيغ 28 في الحي الغربي بفرانكفورت حيث كان دخول وخروج عشرات الشباب العرب السريين، دون اتباع الاجراءات الامنية التي يمكن أن تبطل مفعول رقابة اجهزة الاستخبارات تثير اشتباهاً كبيراً.

وقد كان قرب هذا المقر في فرانكفورت من مطار فرانكفورت وملحقه، وكذلك من القاعدة الجوية الأمريكية (راين مين امريكان) يشكل سبباً كافياً لاستغراب رجال الأمن الألمان ومقر المخابرات الألمانية.

في الاسبوع التالي انشغلت قوات التحقيق المشتركة من الأمن والمخابرات ومكتب مكافحة التجسس (BKA) في التفكير بمعرفة ما تخطط له المجموعة.

وفي 16/10/1988 جرت عملية تتبع دلقموني، عندما كان يقود سيارته باتجاه مدينة هوكينايم، حيث التقط فيها حقائب بلاستيكية، وعلب تخزين. وفي ليلة 19/10/1988 شوهد خيال دلقموني من خلال الظلال في شقة عباسي بنويس - حيث يمسك بسماعة الهاتف بيد ويمسك سيجارة بالأخرى* . اتصل في البدء بمطعم صغير للحم المشوي في نيقوسيا بقبرص (حيث كان جبريل يضع قاعدة انطلاق متقدمة فيها للعمليات في البحر المتوسط) وتحدث بنوع من رموز الشيفرة (حتى أن أحد الفنيين ممن يتحدث العربية ويسجل المكالمة الهاتفية لم يستطع حل شيفرتها) إلى رجل لم يلفظ اسمه. وبعد لحظات عاد دلقموني وأمسك بسماعة الهاتف للاتصال بدمشق هذه المرة. وكان الشخص الموجود في الطرف الآخر بالمكالمة الهاتفية لم تعرف هويته إلا فيما بعد. وفي هذه اللحظة دخل خريسات على الخط الهاتفي في شقة عباس وأوضح بأنه أجرى التغييرات على الدواء الذي أصبح الآن أقوى وأفضل مما سبق.

وحين قام ضباط الشرطة الألمان بالاستماع مرة أخرى إلى ما تسجل من حديث خريسات المنذر بالشر، أدركوا بأن صانع القنابل الأردني ليس صيدلانياً، وأنه لا يتحدث عن شيء ما للتخفيف من ألم الصداع، أو متاعب المعدة الناجم عن الطعام الألماني الدسم والبيرة بل هو يتحدث عن المتفجرات فقط.

وقد تعززت مخاوف الألمان في مجرى الأيام التالية حينما تتبعوا سراً دلقموني وخريسات عندما كان هاذان يتسوقان قرب نويس، ويشتريان مواد

---

* تؤكد عائلة دلقموني ومعارفه في القيادة العامة والحقيقة أنه لم يدخن قط! وهذا من دلائل الزيف والكذب.

الكترونية، وشرائط وبطاريات، كما قاما بزيارات سريعة للشقة الموجودة في سيندفيغ 28 دون أن يبقيا في الشقة إلا لبضع دقائق. وفي 24/ 10/ 1988 سافر الاثنان إلى مخزن سوق «هوما» في نويس حيث اشتريا ساعات منبهة ـ (تعمل ميكانيكاً ـ وبالارقام) ثم توجها نحو مخزن كاوفمان حيث اشتريا من هناك ما يزيد على دزينة من البطاريات 1,5 فولت، وكذلك ساعات يد اليكترونية (وعزقات وبراغي وكذلك مواد الصاق صناعية قوية). وقد اشتد القلق بالألمان من هذه التطورات، فأيام الخريف الدافئة جعلت المئات من المواطنين يأتون إلى شوارع المدينة ويضعون سياراتهم في الكارجات استعداداً لاحتفالات عيد اكتوبر. ورغم أنه لم يكن لدى عملاء المخابرات الالمانية معرفة بالهدف الحقيقي الذي تسعى هذه المجموعة لضربه، إلا أن احتمال حدوث مذبحة في شوارع ألمانيا كان أمراً مروعاً لهم. فزرع العبوات في المخازن الكبيرة أو داخل قاعات شرب البيرة، أو داخل محطات القطار يمكن أن يتسبب بمقتل المئات من البشر. وأخذ المسؤولون الألمان يفقدون صبرهم، كانوا على استعداد للقبض على الفلسطينيين دفعة واحدة وإبعادهم عن شوارع المدينة بأقصى سرعة ممكنة.

وقد جاء مبرر البدء بهذه العملية بعد تلك الليلة عندما اتصل مروان خريسات هاتفياً بمكان مجهول بعمان وذكر عبارة: «هذا سيجري خلال أيام» وأنه: «سوف يراه» (للشخص المجهول الآخر على الهاتف) في عمان يوم الجمعة.

لم يستطع الأمن الانتظار أكثر من ذلك ـ آن الأوان لجمع أوراق الخريف فوراً. . .

وفي الساعة (7,45) من صباح يوم 26/ 10/ 1988 انقضت وحدات من الشرطة الاتحادية، يعمل معها عملاء من المخابرات الالمانية ووحدات الكوماندو على دزينة من الشقق في ست مدن وولاية ومن بينها هامبورغ ـ مانهايم وبرلين حيث اعتقلت سبعة عشر فلسطينياً أو عربياً. .

وفي شقة «سيندفيغ 28» اكتشف الكنز الكبير. . ففي غرفة الحمام وجدت الشرطة عشرات من الأسلحة الأوتوماتيكية من بينها بنادق هجومية هنغارية

«7,62»، ومسدسات وقنابل مورتر وذخيرة ومتفجرات (ستة رزمات من مادة تي ن تي) وأكثر من ثلاثين قنبلة يدوية وأجهزة رؤيا ليلية أيضاً، وأدوات أخرى وقطع أخرى يمكنها تسليح مجموعة الجنود. كما اكتشف في الشقة صاروخ (لاو) الامريكي المضاد للدبابات، يعتقد بأنه سرق من أحد مخازن ناتو في المانيا. كانت الخلايا المعتقلة شبه عسكرية بطبيعتها وبتنظيمها، كما كان لديها من الأعتدة والأسلحة ما يكفي لاعداد تشكيلة عسكرية تقليدية.. ولسوء الحظ اكتشفت الشرطة الالمانية خمسة كيلو غرامات من النخب الأول من متفجرات سيمتيكس التشيكية... وهو السلاح الذي يختار لتفجير الطائرات في السماء... وفي مؤتمر صحفي مستعجل عبرت فيه سلطات الأمن الألمانية عن تهانيها القلبية إلى القوة المشاركة في عملية «أوراق الخريف» أعلن ناطق حكومي: «أن ما اكتشفناه يعد من أكبرالأسلحة والمتفجرات حجماً في تاريخ الجمهورية الاتحادية» وكان من بين المعتقلين في شقة سيندفيغ 28 عبد الفتاح غضنفر، فلسطيني يبلغ السابعة والاربعين، ذو طبيعة ساخرة وصفه أحد رجال الشرطة الالمان «السجين البغيض». ادعى غضنفر بأنه الممثل الشخصي للجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ بقيادة جبريل وقائد قطاع عملياتها الخارجية، ربما على أمل أن يقدموا له الاحترام الدبلوماسي كرجل يتنقل بين الدوائر السياسية، والمخابراتية ودوائر المسؤولين.

فمن خلال موقفه المهيب، وحتى كياسته اللطيفة إزاء اعتقاله كان من الواضح أنه كان يعتقد بأنه سوف يخرج قريباً... ولأول مرة كانت كوادر الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ عند اعتقالها لا تتحدث فحسب وإنما تتباهى أيضاً.

وكان آخر المعتقلين هما دلقموني وخريسات. فقد تتبع الأمن الألماني الرجلين في شوارع نويس وعندما أوقف دلقموني السيارة الخضراء من نوع (فورد ـ تاوروس للاتصال من هاتف عمومي في مركز البلدة ظهر فجأة عشرة من ضباط الشرطة الألمان بأسلحتهم من سيارات الملاحقة من نوع (بي إم دبليو ومرسيدس) وانقضوا وأسلحتهم بأيديهم على «الإرهابيين» الفلسطينيين. وحينما أدرك الاثنان بأنهما محاصرين من عدد كبير من الشرطة لم يقدما على أية مقاومة، كما لم يبدُ أنهما قد فوجئا جداً.

وجدت الشرطة داخل مخزن سيارة دلقموني عدداً من جوازات السفر الغربية والاسبانية (ربما لاستخدامها في العمليات ضد خطوط الطيران مدريد ـ تل أبيب). كما وجدوا جهاز راديو ومسجل من نوع توشيبا 453. ونقلت هذه الأدلة إلى مركز المخابرات وزج بدلقموني وخريسات في السجن.

قبل لحظات من اعتقال دلقموني وخريسات كانت الشرطة الألمانية قد بدأت انقضاضها على شقة عباس في (16 ـ ايزار شتراسه) حيث عثر على ساعات يد وبطاريات وصواعق.

ولم يتكلم أي من المعتقلين في عملية اوراق الخريف عن هدفهم، ويظهر أن الألمان كانوا يعتقدون بأن هدف الجبهة هو ضرب فريق كرة اليد الإسرائيلي (هابوعيل رامات غان)، وهو فريق مشهور كان سيجري مبارة ودية مع الفريق الألماني على ملعب دوسيلدروف التي تبعد عنها نويس عدة كيلو مترات. وكان مطمح «الإرهابيين» الفلسطينيين باحتجاز رياضيين إسرائيليين على التربة الألمانية يمثل حالة رمزية فعلاً ويسترجع ذكرى كابوس مذبحة ميونيخ عام 1972.

لكنه اتضح بعد ذلك بأن الرياضيين الإسرائيليين لم يكونوا الهدف الفعلي، بل ربما ان دلقموني لم تكن لديه فكرة عن وجود هدف كهذا يبعد عدة مئات من الأمتار عن مقر قيادته في المانيا.

وعندما بدأ الأمن الألماني يدقق ويفحص بالأسلحة والمواد التي اكتشفوها في العملية، ادرك أخيراً بأن الهدف الفعلي لخلية دلقموني إنما هو طائرة مدنية ربما في الجو.

وهذا الهدف لا بد أن يدل عليه حضور خريسات بالذات مع العصابة من البداية. ولم يقرر الأمن الالماني التدقيق أكثر في جهاز راديو ومسجل سيارة دلقموني على الفور إلا بعد يومين... فقد كشف جهاز الكومبيوتر الذي يخزن المعلومات عن عمليات القيادة العامة في مقر المخابرات الألمانية المعلومات عن عبوة البارومیتر وطريقة تخبئتها، خاصة وأن المعلومات تشير إلى أن جميع عبوات خريسات عادة ما يموه وجودها داخل آلية الراديو الداخلية أو المسجلات

والفوتوغرافات. . . هكذا استدعى الأمن المجموعة المتخصصة بالعبوات وقرر تسليمها راديو مسجل توشيبا لإجراء تدقيق في تركيبته الداخلية.

في 29/10/1988 جرى تفكيك الراديو المسجل توشيبا على يد الخبراء، وتبين أن هذا النوع من الأجهزة التي تحمل رقم 453 يباع في الشرق الأوسط وشمال افريقيا فقط، ومسجلة دلقموني يعتقد بأنها اشتريت في سوق المهربين في صيف عام 1988. وفي المظهر الخارجي للتوشيبا كان يبدو على المسجلة بأنها عادية لها نفس الوزن والحجم.

فقد كانت مسجلة عادية تماماً ولكن في التركيبة الداخلية تقع العبوة التي تزن 300 غرام سيمتيكس تشيكية موصولة بصاعق اليكتروني وجهازي تشغيل. وكان جهاز التشغيل يعمل عبر مؤشر باروميتري حساس أخفي تحت محرك آلية التسجيل، أما جهاز التشغيل الثاني فكان تقليدياً من النوع الذي يعمل على ميكانيزم «الآزيز»، والذي يفجر المتفجرات عندما ينحل بواسطة جهاز التوقيت المعد لهذا الغرض.

كانت حداثة العبوة مصممة بحيث تخدع أي جهاز دفاعي متقدم في المطارات. فمنذ تفجير جبريل للطائرة السويسرية التي كانت متجهة إلى تل أبيب عام 1970 خصصت المطارات الكبيرة حجرة اجراءات، وتدقيق متطورة تشبه وضعية مخزن الطائرة أثناء التحليق، توضع فيها الحقائب والعفش، وفي حالة وجود قنبلة تعمل على الباروميتر داخل الحقيبة، تولد هذه الحجرة ضغطاً يسبب تفجير أية عبوة من هذا القبيل. ولخداع هذا الخط الأخير في التدقيق الأمني بالمطارات أعد خريسات عبوة على نحو تحتاج فيه إلى ضغط خلال ما يزيد على 35 دقيقة لتتسبب بانفجارها عبر المؤقت المعد فيها ـ هذا المؤقت يمكن تحديد زمنه بثوان أو دقائق أو ساعات. ولأن المطارات ليس لديها وقتاً كافياً لعرض أي قطعة داخل حجرة الضغط بما لا يزيد عن دقائق ففي هذه الحالة لن تكشف هذه الحجرة عبوة «السوبر» التي صنعها خريسات.

وعلى أثر تحقيقات جرت بعد مدة، استطاع الأمن الألماني استعادة ثلاث

عبوات تعمل على الباروميتر في جهاز تسجيل، بينما لم يكشف مستقبل السانيو التلفزيوني الخامس إلا بعد عدة شهور.

من خلال عملية أوراق الخريف نجح الألمان في سحب الزناد عن ضربة أنقذت كما يعتقد أرواح لا حصر لها بإحباطهم هجوماً «ارهابياً» مكثفاً قبل تنفيذه.

لكن جهاز القضاء الألماني أطلق بشكل غامض سراح جميع أعضاء الخلية على نحو لا يصدق باستثناء ثلاثة منهم، كان من بينهم رمزي دياب الذي أطلق فيما بعد.. أحد عشر عضواً جميعهم من «الإرهابيين» المشتبه بهم اطلق سراحهم استناداً إلى أقوالهم بسبب عدم وجود دليل كاف ضدهم. وخلال ثلاثة أيام من اعتقالات عملية أوراق الخريف هرب ستة من الذين اعتقلوا وأفرج عنهم من ألمانيا مع بعضهم البعض الى خارج البلاد.

دلقموني وغضنفر احتفظ بهما في المعتقل الألماني للمحاكمة. أما خريسات صانع العبوات واكثر من يفزع من السلطات القضائية فقد كان يتصرف (عند اعتقاله) تصرف المتأكد من النجاة.

ففي أوائل تشرين ثاني طلب خريسات إجراء اتصال هاتفي، وبسرعة اتصل برجل حددت هويته كمسؤول كبير في المخابرات الأردنية، حيث تحدث إليه مطولاً حول ضرورة «الاسراع بالاجراءات القانونية في المانيا فوراً». وقد اتضح فيما بعد أن خريسات كان يعمل كعميل لجهاز مخابرات الملك حسين. والاردنيون لن يتركوا لهم واحداً من رجالهم المزروعين عميقاً ينهار في السجن. فهو رجل قدم بلا شك معلومات مفصلة داخلية عن المجموعة «الإرهابية» الفلسطينية التي استهدفت في كثير من الأحيان العرش الاردني المؤيد للغرب. فبعد أيام من هذه المكالمة أطلق سراح خريسات ـ فسافر على الفور إلى الأردن حيث يعيش تحت حراسة أمنية مشددة لحمايته طوال 24 ساعة. وزعمت التقارير المنشورة بأن مهندس القنابل الكبير عند جبريل كان عميلاً لجهاز الموساد الإسرائيلي منذ زمن طويل.

كان الموساد هو صوت العقل الوحيد أثناء كامل هذه القضية. فالمخابرات

الإسرائيلية هي المسؤولة عن تنبيه الألمان لخطر تطور خلية القيادة العامة في المانيا وهي التي أثارت شكوكها حول الطبيعة الحقيقية للخلية التي كشفت في أوراق الخريف.

فدلقموني كان قد تحدث عنه (وبلغه الايديش) العديد من محققي الموساد ممن أجروا تدقيقاً متفحصاً على أحداث ديسمبر 1988 معتبرين أن انتقاله إلى المانيا لبناء خلية وقيادة عملية «ارهابية» سرية كبيرة الحجم سيمثل أكبر ضربة. فدلقموني كان مقرباً جداً من جبريل ولا يخاطر فيه جبريل، في مهمة خارجية، فهو إن قبض عليه يمكن ان يعرض كامل المنظمة للخطر لأنه يعرف كل شيء عن القيادة العامة حتى مسألة وجود جنود الدبابة الإسرائيلية المفقودين في السلطان يعقوب أحياء في معتقل القيادة العامة كما أنه يعرف أولاً بأول عن البنية المالية لمنظمة جبريل. لقد كان هناك أمر مثيراً للشك بالنسبة لاعتقال دلقموني وبالنسبة للافراج الفوري عن احد عشر عضواً في الخلية، وكذلك بالنسبة لعودة خريسات السريعة إلى الاردن.

في أواخر تشرين ثاني 1988 حذر الموساد جهاز المخابرات البريطانية (م16) بأن لديه معلومات حول احتمالية قيام عملية «ارهابية» تقوم بها احدى المجموعات «الإرهابية» الشرق أوسطية وربما من المجموعات المعادية لعرفات ومؤيدة لسوريا ضد طائرة مدنية تطير إلى خارج أوروبا في فصل العطل بعيد الميلاد تقريباً.

أهمل البريطانيون هذه المخاوف الإسرائيلية واعتبروها (زبالة). . فقد كان جهاز م 16 البريطاني يشكل في الحقيقة بأي شيء يزوده الموساد به فعلاقة الجهازين الوثيقة التي سادت في السابق تضررت كثيراً في 17 حزيران 1988 عندما وجهت الحكومة البريطانية أمراً بطرد آرييه ريغيف رئيس محطة الموساد في لندن بالإضافة إلى اربعة دبلوماسيين إسرائيليين، اعتقد بأنهم عملاء تجسس إسرائيليين مما أدى إلى اغلاق محطة الموساد في لندن.

كان ريغيف حسب الاتهامات البريطانية يدير شبكة عملاء وعمليات على الأرض البريطانية، تهتم بشكل رئيس بالتسلل إلى البنية التحتية لفتح والجبهة الشعبية الموجودة في المملكة المتحدة. ونظراً لأن الفلسطينيين كانوا على علاقة

جيدة مع المجموعات «الإرهابية» الايرلندية المختلفة، فقد كان على نشاطات ريغيف وتنسيقه (مع م 15) و(م 16) أن تعطي فوائد لكلا البلدين. لكن الإعلان بأن الجهاز البريطاني (م15) قد اعتقل «الإرهابي» من قوة 17 في عام 1987 والذي كان عميلاً مزدوجاً يعمل للموساد إلى جانب الحوادث الأخرى التي نسبت للموساد اغضبت كثيراً المسؤولين البريطانيين في (وايت هول) واضطرتهم إلى اتخاذ قرار حاسم. فقد شعروا بأن إسرائيل قد حولت بريطانيا العظمى إلى ساحة تجسس لها. وبعد خمسة شهور من هذه الأزمة الدبلوماسية، أخذ قادة المخابرات البريطانية يفكرون بأن التحذيرات حول الإرهابيين العرب الذين يخططون لتفجير طائرة ليست سوى اعلاناً عن تقديم خدمات من الطرف الإسرائيلي، هدفه تصليح العلاقات التي تضررت بين (م 16) والموساد والشين بيت، والمخابرات العسكرية الإسرائيلية. لم تستطع لندن تصديق أن الموساد مخلص. وبالمقابل كان هذا نوعاً الخطأ المميت.

وخلال الشهر التالي استمرت التحذيرات الإسرائيلية بالتدفق على العواصم الأوروبية، وواشنطن ومركز السي أي ايه في لانغلي ـ فيرجينيا. وأدرك الخبراء الإسرائيليون بأن الوقت قد حان لعمل فلسطيني ما، وأنه ينبغي اتخاذ اجراءات وقائية مؤثرة.

إذ أن اسقاط الطائرة الايرانية سيظل يستدعي الانتقام، كما أن اعلان عرفات في استوكهولم حول قبول حق إسرائيل بالوجود لا بد وأن يقابل برد عنيف وعد بالقيام به العديد من العرب رداً على بيع القضية الفلسطينية.

وبالطبع لا بد من ذكر الغارة الواسعة النطاق على الناعمة. . وقد جرى التنبه فعلاً للعديد من التحذيرات لكن الإجراءات الوقائية لم تتخذ أبداً. وفي النهاية عندما وجه جبريل ضربته الفعلية كانت ضد هدف ضعيف جداً، ضد شعب ما اعتاد أن يكون مواطنوه هدفاً لمذبحة جماعية.

الفصل الحادي عشر

«الإرهاب» التعاقصي

(تـدميـر البانآم 103)

الفصل الحادي عشر

«الإرهاب» التعاقدي
(تدمير البانآم 103)

كان من الممكن ليوم 21/12/1988 أن يمر كانقلاب طبيعي للشتاء. لكنه مر عصيباً في مطار فرانكفورت الدولي الذي كان يدب بالنشاط. . كان من المقرر لرحلة البانآم 103 التي تطير إلى لندن مستخدمة البوينغ 727 ومن ثم تواصل رحلتها إلى نيويورك وديترويت على طائرة أخرى من طراز 747 ـ جمبو أن تقلع في الساعة 16,30.

وبسبب تزايد السفر أثناء العطل، أبلغ المسافرون بالحضور إلى المطار قبل ساعة ونصف من موعد الإقلاع بعد أن خضعوا لأقصى التدقيقات الأمنية الروتينية. . وكانت الشركة الأمنية آلبرت هي الموكلة بأمن بوابة بانآم للمسافرين على رحلاتها في مطار فرانكفورت على غرار بقية بوابات بانآم الأخرى. لكن الواقع لم يشر الى وجود أمن للبانآم في فرانكفورت.

في عام 1986 كانت الشركة بانآم قد تعاقدت مع شركة استشارات أمنية تسمى (KPI) كي بي أي، لإجراء دراسة على بانآم في كل أنحاء العالم، وكان مدير كي بي آي والرجل الذي قام ،الكثير من التحقيقات هو اسحاق يافث الرجل الذي كان يدير أمن شركة العال الإسرائيلية، لما يزيد على ست سنوات. وبعد إجراء

تدقيقيات مكثفة على أنظمة أمن بانآم في بوابات مسافريها في القارات الثلاث استنتج يافث في تقرير مفصل أرسله إلى مدير بانآم «بأن بانآم تفتقر جوهرياً للأمن وأنها شركة طيران معرضة للمخاطر، وبصفتها امريكية فهي هدف مغري». «وإذا ما أرادت بانآم أن تمنع كارثة فعليها بناء جهاز أمني تقام بنيته التحتية حسب توصيات الكي بي آي».

لكن مدير البانآم غضب كثيراً مما كشفه يافث، وعلى الفور أوقف عمله هوو الكي بي آي. . خصصت إدارة بانآم خمسة ملايين دولار كميزانية اضافية «لجعل أمن طائرات بانآم الافضل في العالم» كما قالت الإدارة. . .

وفي فرانكفورت لم تكن طواقم الإنذار الأمني قد تلقت سوى القليل من التدريب، حتى أن الكثير من الطواقم التي تعمل مع الركاب في تفتيش الأمتعة لا تتحدث بالانكليزية، ناهيك عن أن مدير محطة بانآم في فرانكفورت أولديخ فيبر من أصحاب سجلات الإجرام، ولا يوظف بشكل رئيسي سوى النساء الجميلات لمضاجعتهن. . عند الساعة 16,40 اقلعت رحلة بانآم 103 من فرانكفورت وعلى متنها 125 مسافراً وعبوة مخبأة في مسجلة توشيبا مموهة داخل حقيبة سمسونايت ذات لون نحاسي. ومن مطار هيثرو بلندن تابع 49 مسافراً من هذه الرحلة طريقهم إلى نيويورك وديترويت من البوابة رقم ـ 3 ـ إضافة إلى 194 مسافراً كانوا ينتظرون في المطار، معظمهم من رجال الأعمال الامريكيين وطلاب معارين من جامعة سيركوز العائدين في العطل إلى الوطن. وكانت الأمتعة القادمة من فرانكفورت قد نقلت بسرعة من البوينغ 727 إلى حجرة الأمتعة داخل الطائرة التي كانت تسمى (عروس البحار)، دون خضوعها إلى فحص أمني لا بأشعة اكس، ولا بالايدي ولا عبر حجرة الضغط. . . كما لم يجر التدقيق بالامتعة حسب قائمة المسافرين ـ (وهذه بمثابة دعوة فعلية «للإرهابيين» للقيام بمهمتهم) ـ .

كما أن بانآم لم يكن لها طريقة بمعرفة ما إذا كانت جميع الحقائب تعود للمسافرين على متنها. على أية حال كان موعد اقلاع الرحلة 103 في الساعة 18,00، وكان الاكتظاظ على مدارج اقلاع الطائرة المزدحم بالحركة كثيفاً في ذلك

المساء. ولذلك كان على البوينغ 747 بانآم رحلة 103 أن تنتظر دورها في مدرج الاقلاع. وكان المسافرون وعددهم 243 قد أعدوا أنفسهم لرحلة الثماني ساعات بعد أن ربطوا أحزمتهم وخلعوا أحذيتهم وبدؤوا يترقبون الالتقاء العاطفي بعائلاتهم في الولايات المتحدة. كما استعد الملاحون الستة عشر للاقلاع بعد أن وجهوا التعليمات اللازمة بشأن أوضاع الطوارىء والنجاة عند الاضطرار.

وفي الساعة 18,25 بعد تأخير دام نصف ساعة تقريباً انطلقت طائرة «عروس البحار» نحو السماء مبتعدة عن المدرج (27 ل) واتجهت نحو الغرب لتطير فوق اسكنلاندا. . وحينما كانت فوق انكلترا استقبلت اشارتها من قبل آلان توب موظف الحركة الجوية في بريت ويك الذي ربط اتصاله مع الطائرة منذ دخولها أجواء اسكتلاندا عند الساعة 18,56.

وظهرت على شاشة رادار توب نقطة مضيئة تشير إلى رقم الرحلة 103 وكذلك رقم سرعة الطائرة (310) (اختصاراً لرقم 31000 قدم)، وكذلك رقم 59 وهو رمز المدينة التي تتوجه إليها رحلة بانآم 102 كمحطة أخيرة في مطار كينيدي بنيويورك. وكانت الطائرة تسير بسرعة (365) ميل بالساعة. كان توب يرشف القهوة وهو يحملق في الشاشة، ويتابع خط الطائرة التي كان عليها أن تنعطف غرباً لتحلق عبر المحيط الأطلسي، إلا أنه عند الساعة 19,02 رأى أن رادار طائرة البانآم 103 قد تفتت فجأة إلى قطع متعددة ثم اختفى من شاشته هو والطائرة نهائياً. أخذت مشاعر القلق تسيطر على مركز التحكم في الحركة الجوية. حاول توب مخاطبة قائد الطائرة الكابتين جيمس بروس مكواري على تردد الطوارىء دونما جدوى. . وتوقع توب الأسوأ عندما أكد مشرف المراقبة الجوية مخاوفه، فقد لا حظت رحلة غلاسكو لندن وجود كتلة كرة ضخمة ملتهبة على الأرض في قرية اسكوتلاندية صغيرة. . . هكذا جاء الموت إلى لوكربي. . .

انفجرت العبوة داخل الطائرة وحولتها إلى خمسة أجزاء منفصلة، وتبعثر حطام الطائرة التي تزن 747 ألف باوند والمسافرون وامتعتهم فوق قرية لوكربي الصغيرة، على شكل مروع ليصبح منظر البلدة الصغيرة مليئاً ببقايا الحطام ويذكر

بالحرب اثناء الأيام الأولى للحرب العالمية الثانية. وكان الجناحان قد سقطا بقرب بعضهما كما التهب الوقود الذي يزن 80 الف باوند داخلها من أثر الصدمة... وقد تبعثرت أجزاء الطائرة على مسافة كبيرة جداً، بدءاً من وسط لوكربي حتى سواحل بحر الشمال. وقد أحدثت الحفرة التي سقطت فيها الطائرة مقبرة فجائية لاتنسى للسكان، فقد دمر حطامها 19 منزلاً قتل فيها أحد عشر شخصاً، بينما سقطت جثث العديد من ركاب الطائرة من السماء، وتدلت على أسطحة منازل البلدة. كما سقط قسم من جسم الطائرة الذي يضم الركاب وبداخله 61 جثة عند ساحة حي سكني. وعلى بعد ميلين من هذه الساحة شوهدت حجرة الطيار «الكابتين» وبداخلها جثث الملاحين مستلقية فوق مرعى بهدوء وصمت.

كان من الواضح أنه لم ينج أحد من ركاب الطائرة. كانت مئات الجثث قد غطت التلال التي تستخدم للرعي... ولم تستطع الشرطة وقوات الاطفاء وطواقم الذين هرعوا إلى ذلك المكان فهم مدى التدمير الذي يرونه أمام أعينهم (270) مسافراً ماتوا في ذلك المساء.. كان عمر طائرة البوينغ «عروسة البحار» 19 عاماً.. واعتقد في البدء أن خللاً ميكانيكياً كبيراً هو الذي تسبب بانفجارها. إلا أنه أصبح من الواضح فوراً أن هذه المأساة لم تكن حادثاً عرضياً وإنما جريمة... بل مذبحة جماعية دمرت الفصل الذي يحمل الخير للبشر. وتشكلت لجنة صغيرة من الأمن السكوتلاندي برئاسة بيتير فرازيز لورد اسكتلندا، وبدأت فوراً التحقيقات بهذه الكارثة التي اعتبرت ببساطة جريمة واضحة.

وكان من الواضح للمحققين الاسكتلنديين، ولفنيي، واختصاصي وزارة الدفاع البريطانية بأن انفجار الطائرة لم يكن لأسباب فنية، وإنما نتيجة وجود قنبلة قوية أدت إلى تفجير الطائرة بالسماء... وقد نشرت وزارة الدفاع البريطانية الآلاف من الجنود التابعين للجيش البريطاني، وسلاح الجو الملكي في لوكربي لتنقيب تلك المنطقة بحثاً عن دليل مادي يمكن استخدامه في التحقيقات الجنائية. ورغم أن هذه المأساة شكلت نموذجاً شريراً لبربرية «الارهاب» إلا أن ذلك لا يغفل الاستنادات القضائية للحادث.

كانت العبوة التي أدخلت إلى حجرة حمولة الامتعة في الطائرة بوينغ 747 قد أعدها صانعوها بحيث تنفجر فوق المحيط الأطلسي، فبهذه الطريقة ستبقى بقايا الطائرة والمعلومات حول وسائل وأداة انفجارها سراً مغلقاً في الأعماق الباردة للمحيط الأطلسي. . . إلا أن تأخر الطائرة جعل جهاز توقيت العبوة الذي بدأ عمله أثناء المرحلة الأولى من الرحلة من فرانكفورت إلى لندن، ولو تأخر اقلاع الطائرة نصف ساعة أخرى لوقع الانفجار بالطائرة عند مدرج الاقلاع ولما تسبب بموت احد. . . وان تعامل مع المحققين بقدر من الحظ المؤلم لكن الجدير بالتقدير. أن الجنود البريطانيون أخذوا يزحفون على ركبهم وأقدامهم فوق سلاسل التلال الخضراء غربي اسكتلندا بحثاً عن قطع صغيرة من المعدن أو الثياب مما يمكن أن يزود المحققين بحل للرموز أو بدليل قضائي.

كان على المئات من الجنود، ورجال الشرطة السير في خط واحد، بغية تغطية منطقة بمساحة عشرة أضعاف ساحة ملعب كرة القدم لتمشيط المنطقة. وكان الغرض الأساسي للمحققين الذين اقاموا مركز ادارة تحقيق بالحادث وسط لوكربي هو اعادة بناء بقايا الطائرة وإعطاء السلطات القضائية بمساعدة عشرة أجهزة مخابرات تابعة لعشر دول ـ الدليل المطلوب لفتح اجراءات محاكمة المجرمين في قاعات القضاء. وقد أثمرت جهود هؤلاء الرجال والنساء الذين تحفزهم عوامل التعاطف والمسؤولية القلبية إزاء الضحايا لتطبيق العدالة عن مكاسب ضخمة. . . فرجال الشرطة الذين كانوا يزحفون في الاتجاهات الأربعة، وهم يرتدون أقنعة لا تسمح لأنفاسهم بأن تمس النماذج المراد التعامل معها كأدلة، عثروا على قفل الحقيبة التي كانت العبوة بداخلها. . . وفي شباط 1989 انتهى علماء الجريمة البريطانيين وخبراء المتفجرات من اعادة تشكيل نموذجي للعبوة التي فجرت الطائرة.

كانت العبوة مخبأة داخل مسجلة توشيبا نموذج (453) وعلى الفور أصبحت ـ الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ هي المشتبه الأول. . . وكما قالت التقارير استدعيت مجموعة من قوات مكافحة التجسس، والتحقيقات المضادة «للارهاب» إلى لوكربي للمساعدة على حل لغزة انفجار طائرة بانآم 103.

وقد اشترك بالتحقيق في حادث لوكربي 35 دولة بالإضافة إلى العشرات من أجهزة المخابرات والمباحث الجنائية.

وقد دام التحقيق بحادث انفجار لوكربي 1059 يوماً وكلف 29 مليون دولار دون التوصل إلى نتائج مرضية إلا القليل من الناس.. وكان على أقارب 270 راكباً ماتوا على متنها أن يتساءلوا: كيف تسمح الحكومات الغربية التي طالما تحدثت عن مقاومتها «للإرهاب» في نشرات الاخبار والبيانات التي لا تحصى للاعزاء على قلوبهم، أن يموتوا في مأساة لم يتمكنوا من تجنبها؟

ولو عوملت التحذيرات عن الهجوم بجدية، ولو اهتمت بانآم بشكل أكثر بأمنها بدلاً من الاهتمام بأنانية ضباطها الذين أصروا على أن الترتيبات الوقائية المتخذة كافية، لأمكن تجنب هذه الكارثة.

وعلى نحو مأساوي بدا أن اكتشاف خلية ـ القيادة العامة ـ التابعة لدلقموني في نويس و العبوات الأربع قد أقنع الجميع ـ الألمان الغربيين والانتربول والامريكيين ـ بأن كارثة كانت ستحدث ولكن جرى تفاديها. لكن الإسرائيليين لم ينخدعوا فمن خلال علاقة الموساد وكذلك علاقة (أمان) بالسي آي ايه والدي آي ايه والحكومة الأمريكية استمرت إسرائيل بتزويد معلومات استخباراتية حول امكانية تفجير «الإرهابيين» لطائرة امريكية في مكان ما بأوروبا الغربية، خلال عطلة عيد الميلاد وربما على يد الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ إلا أن الامريكيين وبانآم تجاهلوا هذه التحذيرات رغم أن آخر هذه التحذيرات وصلتهم قبل 24 ساعة تقريباً من انفجار رحلة بانآم 103.

كما كان لدى عدد من أجهزة الأمن الأوروبية، وشركات الطيران التابعة لها تحذيراً مفصلاً لاتخاذ الاجراءات الوقائية ضد عبوات الباروميتر التي كان يصنعها خريسات لجبريل ـ فالأجهزة التي عثر عليها في نويس كانت نموذجاً حقيقياً لهذه العبوات العبقرية. فقد صورت هذه الأجهزة وفحصت واعطيت تفاصيل عن تركيبها وآلية تفجيرها وميزات عملها، وأرسلت كل هذه المعلومات إلى عشرات شركات الطيران وأجهزة المخابرات.

وعلى سبيل المثال كانت قد صدرت عن وزارة النقل البريطانية «مذكرة 19 كانون أول» والتي حذرت فيها بوضوح جميع المطارات، والطائرات البريطانية والأجنبية من عبوة «ارهابية» جديدة اكتشفت حديثاً تعمل بمتفجرات سيمتيكس المخبأة داخل أجهزة راديو كاسيت. كما نقل البريطانيون تحذيرات خاصة ومفصلة لطائرات العال (التي كانت قد تلقت أولاً بأول تفاصيل هذه المعلومات) وكذلك لخطوط شركة طيران الهند وجنوب افريقيا التي تعتبر أهداف محتملة لعمليات «ارهابية».

وشرحت تلك المذكرة تفصيلياً شكل ومظهر الراديو الكاسيت 453 الذي عثر عليه في نويس، وطريقة عمله، وانفجاره وكيفية كشف العبوة داخله، ومن ضمن ذلك حقيقة أنه إذا ضغط على زر التشغيل (Play) فالآلة في هذه الحالة لن تعمل (حتى بوجود البطاريات بداخله). كما وصفت المذكرة الآلية الداخلية، وما جرى عليها من اضافات اسلاك، لا يضمها راديو مسجل عادي. وقد جاءت التحذيرات البريطانية بعد شهر تماماً من اصدار ادارة الطيران الفيدرالي للولايات المتحدة (FAA) سلسلة مذكراتها وتحذيراتها من عبوة توشيبا الحديثة. كما أن تحذير (FAA) (ف أيه ايه) جاء قبل اسبوع من الاتصال التلفوني الغامض، والشهير الذي حذر سفارة الولايات المتحدة في هيليسنكي ـ فنلندا والذي جاء فيه أن رجلاً يدعى عبد الله سوف يمرر جهاز تفجير حديث إلى مسافرة انثى هي فنلندية ستسافر على متن طائرة امريكية إلى فرانكفورت. هذا الاتصال كان قد جرى عند الساعة 11,45 من صباح الخامس من كانون أول 1988، ثم عرف صاحب هذه المكالمة الهاتفية عن نفسه بأنه (سامر مهايون). فلسطيني لبناني، كان يقيم في فنلندا بفيزة طالب كما ذكرت تقارير الشرطة الفنلندية. كان مهابون في أواخر العشرينات وذو سوابق في تهريب المخدرات. وقد اهملت مكالمته على اعتبار أنها خدعة، رغم أنه كان ينبغي أن تؤدي إلى رفع الأعلام الحمراء في واشنطن وبون ولندن. وقد ادعى سامر مهايون (يعتقد بأن اسمه سامي المترجم) بأن الهجوم سوف ينفذ على يد «إرهابيين» من منظمة أبو نضال المجلس الثوري.

وبما أن «الإرهابيين» نادراً ما يغيرون طريقة عملهم، فمن الواضح أنه كان

يجب على أجهزة الأمن الفنلندية التي قامت بالتحقييق بمكالمة مهايون، وعلى ضباط الأمن في السفارة الأمريكية في هلسنكي وإدارة الطيران الامريكي في واشنطن أن يدركوا بأن أبو نضال يمكن أن يخطف طائرة، أو يقتل مسافريها أثناء استعدادهم للسفر على متنها، وليس تفجيرها في الجو، فمنظمته لم تستخدم أبداً عبوة في تفجير طائرة بالجو. . .

ومن الممكن أن تكون هذه المكالمة من فنلندا بمثابة ضوء أحمر، هدفه ارباك أجهزة الأمن وابعادها عن الشكوك بوقوع عملية كبيرة للجبهة الشعبية ـ القيادة العامة. ومن الصعب القول بأن هذا التمويه المزيف قد نجح، لكن مختلف أجهزة المخابرات الغربية قد نسبت فعلاً في البداية عملية تفجير طائرة رحلة بانآم 103 ـ لفتح المجلس الثوري ـ. ورغم أن المكالمة الهاتفية أهملت بشكل عام لعدم أهميتها، إلا أن ادارة الطيران الأمريكية (اف ايه ايه) أصدرت تحذيراتها التي لم تنشر على الرأي العام، وإنما أعطيت للسفارات الأمريكية، والقناصل لتحذر من السفر على رحلات بانآم إليالولايات المتحدة خاصة على الرحلات الجوية التي تنطلق من مطار فرانكفورت في عيد الميلاد. . وكان تحذير ادارة الطيران الأمريكية (اف ايه ايه) قد سجل على لوحة المنشورات في السفارة الأمريكية في موسكو وجعل العديد من الدبلوماسيين وموظفي السفارة يغيرون خطط سفرهم عبر الحجز على خطوط طيران غير امريكية. ولأن الكثير من الدبلوماسيين الامريكيين الذين حجزوا على رحلة بانآم 103 كانوا قد ألغوا حجزهم فقد أتاح هذا التصرف المجال لوجود مقاعد شاغرة على متن رحلة بانام 130 لركاب آخرين ماتوا في هذه الرحلة فوق لوكربي. ومن الطبيعي أن تبقى مكالمة هيليسنكي الهاتفية، وما تلاها من اصدار المذكرة التحذيرية باسم ادارة الطيران (اف ايه ايه) بصمة إدانة واتهام تحمله عائلات ضحايا طائرة بانآم (103). ففي النهاية جرى انقاذ الدبلوماسيين من الموت دون أن يجري انقاذ المسافرين العاديين من الموت.

ماذا حدث فوق لوكربي؟ ربما لن يعرف العالم أبداً ما حدث حقاً، «فالإرهابيون» وحدهم هم القادرون على إعطاء القصة الحقيقية. ومعظم هؤلاء يأخذون اسرارهم معهم إلى قبورهم.

ويبقى خريسات لغزاً مبهماً حتى يومنا هذا. فالمعروف أنه لم يصنع العبوة البارومترية السادسة التي فجرت في النهاية طائرة بانآم رحلة 103، ولكن يعتقد من خلال علاقته مع المخابرات الأردنية أن خريسات قد تعاون فعلاً مع المحققين الألمان والبريطانيين، والامريكيين في اعادة بناء العبوة الباروميترية وقدم مساعدة للتحقيق بهذا الشأن.

وكما تقول معظم التقارير يعيش خريسات فيي الأردن، في ظل حماية دائمة من رجال المخابرات الأردنية. ولم يشاهد منذ عودته إلى الأردن في تشرين ثاني 1988.

كما تمثل خلية «طالب» السويدية مصدراً للغموض الكثيف ودليلاً ظرفياً أيضاً. فالحقيقة هي أن معظم الدلائل المادية الموجودة التي تورط بها محمد أبو طالب («الإرهابي» المولود في مصر، والذي اختار المتفجرات كمهنة وليس كالتزام) تشير إلى مسؤوليته بزرع العبوة على متن طائرة البانآم 103.

ففي تشرين أول 1988 سافر من ستوكهولم إلى قبرص، حيث يعتقد بأنه اجتمع هناك بدلقموني للمرة الأخيرة ثم سافر إلى مالطا.

فأجزاء الثوب المكتشف في الحقيبة التي وضعت داخلها العبوة الباروميترية الخاصة بالقيادة العامة، والتي فجرت الطائرة البانآم 103 تعود فعلاً لمالطا. لكن الأمن السويدي اكتشف عندما قبض على «أبو طالب» في منزله باوبسالا أربعة جوازات سفر مختلفة، من بينها أوراق طالب الثبوتية الأصلية السويدية والتي اثبتت أنه سافر من مالطا في 26/10/1988... لكن الثياب التي وجدت في الحقيبة يعود شراؤها إلى تشرين ثاني أو كانون أول، كما شهد صاحب محل (ماري هاوس بوتيك) في (سليمة بمالطا) الذي اشترى منه ذلك الثوب. وصاحب هذا المحل الذي تحميه الآن شرطة مالطا لم يكشف سوى «أن شاباً عربياً كان قد اشترى منه بعض الثياب دون اهتمامه (أي الشاب) بمقاييسها أو موديلاتها»..
وربما يكون جبريل قد أدرك بأن جيشاً من المحققين الدوليين لا بد وأن يتتبع المسؤول عن تفجير طائرة البانآم، ولذلك قررر جبريل أن يرمي للمحققين بعض

العظام: مشتبه به... ودافع. مشبوه رئيس ذو قيمة كبيرة شوهد في مسرح الجريمة، من قبل ابعادهم عن متابعة الصلة المباشرة بين جبريل وعملية تفجير لوكربي... ففي النهاية يصبح جميع رجال جبريل في الشبكة الألمانية، إما في السجن أو في الشرق الأوسط فمحمد أبو طالب ليس عضواً نظامياً في الجبهة القيادة العامة ـ فطالب اجتمع فعلاً بدلقموني في قبرص في بداية تشرين أول 1988 لكنه من غير المحتمل أن يكون هو المسؤول عن وضع العبوة في قطعة متاع ثم ادخالها إلى طائرة بانآم رحلة 103... والاحتمال الأكثر هو أنه كان مجرد عامل لابعاد الانتباه، أو انه مجرد طعم استخدم دون أن يدري... وربما يكون أبو طالب قد عرف بموعد العملية ـ 21/ 12/ 1988 ـ فهذا الموعد كان قد ظهر في روزنامته وقد أحاطت به دائرة في منزله باوبسالا. كما أن الثياب التي اشتريت في مالطا عثر عليها في منزله...

في الصباح الباكر من نهار 18/ 5/ 1989 قام مايزيد على مئة رجل أمن مسلح وشرطي ومن قوات مكافحة «الارهاب» التابعين للمخابرات السويدية بالاغارة على عدد من الشقق في ستوكهولم وغرتيبورغ واوبسالا واعتقلوا خمسة عشر عضواً من جبهة النضال الشعبي الفلسطيني. ورغم أن المخابرات الألمانية كانت قد أبلغت نظيرتها السويدية بالتحقيقات الخاصة بشأن لوكربي، إلا أنه يعتقد بأن جبريل جند ثلاثة «إرهابيين» فلسطينيين من المجهولين الموالين له لهذه العملية بغية تأمين نجاحها... وهؤلاء الرجال الثلاثة معروفين للدوائر الإسرائيلية باسم «مجموعة كينيا» وهم محمد المكوسي، وابراهيم توفيق يوسف، وحسن هادي الآحار.

وهم ثلاثة كانوا قد اعتقلوا على يد عملاء الأمن الكينيين في 18/ 1/ 1976 ضمن تنسيق مع الموساد حين حاولوا القيام بعملية فاشلة لتفجير طائرة العال الجامبو بصاروخ ستريلا ارض/ جو من مطار نيروبي حيث كان على متنها 110 مسافرين... ولأن كينيا حليف جيد لإسرائيل في تلك القارة الأفريقية المعادية لإسرائيل فهي لم تفعل شيئاً بالفلسطينيين الثلاثة سوى أنها سلمتهم عبر عملية تهريب سرية من سجنهم في نيروبي إلى إسرائيل. وفي 21/ 5/ 1985 كان الثلاثة من بين من اطلق سراحهم من السجون الإسرائيلية في عملية التبادل بين ـ القيادة

العامة ـ وإسرائيل التي جرت في جنيف عام 1985 وكان الثلاثة مدينين كثيراً لأحمد جبريل. . .

واستناداً إلى هذه النظرية كان لجبريل ثقة مطلقة بهؤلاء الرجال الثلاثة (لم يكن لديه شكوك بتحولهم داخل المعتقل الإسرائيلي)، كما لم يكن أي دليل يورطهم بالعمل في أوروبا أو المتوسط منذ خروجهم من الأسر حتى اعتقال خلية دلقموني في نويس. ويعتقد بأنهم كانوا يعيشون في احدى قواعد الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ في سوريا بعيد عن الأضواء. . . ويقال بأن جبريل طلب منهم أن لا يكتبوا أية تقارير إلا له شخصياً، ولم يذكر أبداً علاقتهم بمنظمته. فبمجموعة كينيا هذه امتلك جبريل القدرة على النفي التام. فهؤلاء الثلاثة (على غرار المستخدمين في عائلات الجريمة المنظمة) كانوا مستقلين علانية عن القيادة العامة وهم الذين نفذوا شخصياً عقده الشخصي. . .

كانت العبوة السادسة التي خصصت للزرع في طائرة بانآم رحلة 103 قد جرى اعدادها على يد احد صانعي العبوات التابعين لأبو ابراهيم ممن انضموا إلى ـ القيادة العامة ـ عام (1985) أو (1986) ثم شحنت إلى طرابلس في كانون أول 1988 وكانت مجموعة كينيا هي المسؤولة عن نقلها إلى ليبيا، رغم أن تقارير أخرى تشير إلى أن المجموعة هي التي وضعت العبوة. وفي طرابلس سلمت العبوة إلى اثنين من كبار ضباط المخابرات الليبية توليا مسؤولية زرعتها في طائرة بانآم.

وكان التورط الليبي بتفجير طائرة بانآم مفروضاً بقوة. . ولم يكتشف إلا بعد تحقيقات مضنية. . . إذ قام العملاء والمحققين في المخابرات البريطانية والالمانية والأمريكية بإجراء ابحاث لفك الألغاز في 52 دولة وقابلوا ما يقرب من (14) ألف شاهد. كان واضحاً أن هذه القضية تعد من أكبر وأهم القضايا، لأنها جريمة قتل جماعية تنفذها دولة. ومن أجل إزالة مخاوف الرأي العام من السفر وتنفيذ العدالة التي تطالب بها عائلات الضحايا جرى استثمار مصادر ضخمة للعثور على الأفراد المسؤولين عن هذه الجريمة ومحاكمتهم. قد انهك البحث عن الفاعلين ادارة

الطيران المدني وادارة أل إف بي آي (FBI) ـ والدي آي ايه (DIA) ومختبرها الجنائي وكذلك السي آي ايه ومركزه المختص بمكافحة «الارهاب» وجهاز (M16) البريطاني (15م) و(م16) وفرع السكوتلانديارد ومخابرات ألمانيا (BKA) (بي كيه ايه)، و(بي اف في) و(بي اين دي) وبشكل ما جهاز المخابرات الفرنسية المدعو (اس دي ي سي ي) (سديس) وجهاز المخابرات الايطالية، والأمن الوطني السويسري، والموساد الإسرائيلي والشين بيت.

وكانت بعض الدلائل، خاصة المتعلقة بالدلائل القضائية على قدر جيد من الأهمية. أطنان من بقايا حطام الطائرة وأجزائها جمعت مئات الأميال المربعة في موقع تحطمها، ونقلت إلى مخزن كبير خاص في (فارن بورو) بانكلترا حيث أعيد بناء هيكل الطائرة هناك بغية تحديد موقع وطبيعة الانفجار الذي حصل.

وقد تضمنت الأدلة التي جلبت من المرج الأخضر السكوتلندي قطعة صغيرة (بحجم ظفر الأصبع) من مجموعة الدارات الكهربائية (الخاصة بالراديو المسجلة)، وهي عبارة عن قطعة مصغرة من اللوحة الداخلية للكومبيوتر، وقد اكتشفت فوقها بقية من مادة سيمتيكس التفجيرية. ومن الواضح أن هذه القطعة الصغيرة من الاسلاك الدقيقة أو المعدن كانت أداة في تحديد طبيعة العبوة رغم أن علاقتها بليبيا لم تستخلص من العمل الجنائي المحض، وإنما من طائرة أخرى فجرها «الإرهابيون» في السماء.

وقد تمسك كل من الولايات المتحدة وبريطانيا بالعقوبات التي فرضتها الأمم المتحدة ضد طرابلس والتي تتضمن الحظر على الطيران المدني الليبي واحتمالية العمل العسكري ضد ليبيا. وفي الوقت الذي جرى فيه تأليف هذا الكتاب رفع النزاع بين ليبيا وامريكا وبريطانيا حول تسليم المتهمين بتفجير طائرة بانآم رحلة 103 إلى القضاء عند محكمة العدل الدولية في هيغ ـ هولندا. وهكذا لم تنجز عقوبات الأمم المتحدة واستمرارها أي شيء على الاطلاق.

أما إسرائيل فهي على قناعة بأن سوريا عبر تأييدها المستمر للجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ هي التي تقف وراء عملية تفجير الطائرة وليس ليبيا فقط، رغم أن

تل أبيب لم تنف علاقة ليبيا بحادث التفجير. وبسبب الضعف العسكري النسبي للقذافي وجدت الولايات المتحدة تاريخياً في ليبيا هدفاً سهلاً يمكن ضربه بدلاً من هدف آخر (أكثر خطورة) يرعى هو أيضاً «الإرهابيين» في الشرق الأوسط مثل سوريا وايران. .

ومع أن الامريكيين يرفضون الزعم الإسرائيلي بأن سوريا، وايران، والقيادة العامة هم خلف عملية تفجير البانآم 103 ويعتبرون هذا الكلام مجرد مظاهرة سياسية للاساءة إلى سوريا، إلا أن وانشطن قد حادت عن الطريق في محاولتها ابعاد اللوم عن دمشق. . وفي خريف عام 1991 عندما سرب التورط الليبي للصحافة وجد الرئيس بوش أن من الصحيح سياسياً تبرئة سوريا، طالما أن الدور السوري في ائتلاف عملية درع الصحراء ضد صدام أصبح حجراً أساسياً في السياسة العسكرية الأمريكية. إضافة إلى ما تمثله سوريا من هيبة سياسية ونفوذ في المنطقة. إن اغفال امريكا لسوريا في عملية تفجير بانآم ينبع من اشتراك سوريا المحدود جداً في الائتلاف العربي ضد صدام حسين، اثناء عملية عاصفة الصحراء ولموافقة سوريا على المشاركة في مؤتمر مفاوضات السلام لاحقاً. . .

فالولايات المتحدة لم تقم بعملٍ انتقامي ضد سوريا بعد تفجير السفارة الأمريكية في بيروت، أو بعد تفجير مجمع المارينز في عام 1983 عندما قتل 241 من رجال بحرية المارينز. وربما يعود هذا لعدم رغبة واشنطن بالمخاطرة في دخول قتال ضد كيان عربي عسكري متمكن وعنيد، أو ربما أنها كانت تدرك بأن سوريا هي العصب المركزي والداعم القيادي للكثير من المجموعات المسلحة الخطيرة بالمنطقة، ولذلك فضلت أن لا تجعل من دمشق مكة عالمية للنشاط المعادي للولايات المتحدة. وهذا ما جعل سوريا تصبح قوة ردع حقيقية في الزوايا الأربع من هذا العالم.

وقد كسب الأسد رئيس سوريا وأبو هول دمشق حقاً حرب الأعصاب ضد الغرب. . فالحقيقة أن الجهود الأمريكية لابعاد الشبهة عن سوريا في تفجير طائرة البانآم قد سبب توتراً كبيراً بين الحلفاء التقليديين، بل وقلقاً بالنسبة لمسار السياسة الأمريكية الراهنة في الشرق الأوسط.

بعد تفجير البانآم 103 حاولت الولايات المتحدة، وقد تملكتها الحيرة العثور على دليل ظرفي، أو مادي يربط القيادة العامة بتفجير لوكربي. . كما أخذت الجهود الأمريكية لجمع المعلومات الاستخباراتية داخل سوريا، تتزايد بشكل ملحوظ. فقد جرت محاولات لتحديد أماكن المخبرين، وكذلك الوصول إلى خطوط الاتصالات السرية، والحصول على أي دليل يمكن أن يربط جبريل بشكل مقنع بكارثة البانآم 103. وفي 3/ 3/ 1989 احتجز رجال أمن الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ الملحق العسكري الامريكي في سوريا العقيد كليفورد روبريتس، ونائبه الرائد روبرت سيغال حين كان الاثنان قرب واحدة من المواقع اللوجستية للجبهة شمال دمشق، حيث قبض عليهما بالجرم المشهود وهما يصوران القاعدة بأجهزة تصوير فائقة الحساسية والحداثة. وقد سلما فيما بعد لقوات الأمن السورية حيث اعتقلا وطردا. . . وكما قال راديو دمشق: «إنها ليست المرة الأولى التي تتجسس فيها وكالة السي آي ايه على سوريا لصالح الإسرائيليين». وقد توجهت الولايات المتحدة بسبب عجزها عن الحصول على معلومات دقيقة عن الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ بسرعة نحو إسرائيل الحليف الأكثر وثوقاً في المنطقة. وكما تقول تقارير متعددة لبى الإسرائيليون المطلب الأمريكي، وحولوا وثائق استخبارية فائقة الحساسية إلى الأمريكان.

ولعله مما يحزن أن تبقى المصالح السياسية في الشرق الأوسط عاملاً أهم من ملاحقة العدالة. . . كانت الجهود الأمريكية لإزالة قناع الإدانة عن ايران ناجمة عن فشل جهود الادارة الأمريكية في الماضي، وفشلها في تأمين اطلاق سراح الرهائن الثمان المحتجزين على يد حزب الله المؤيد لايران في بيروت. . فبغية تأمين اطلاق سراحهم وإعادة الفصل المأساوي لاحتجاز الرهائن الامريكيين عبر 12 عاماً إلى الصفحات الخلفية للتاريخ، كانت الولايات المتحدة تريد مراجعة ملفات مخابراتها التي كان فيها ما يورط ايران، وجبريل بشكل مقنع في تخطيط واستهداف الطائرات الأمريكية وتفجيرها.

وهكذا بقيت عملية تفجير البانآم 103 واحدة من العمليات الإرهابية التي ظل فيها جبريل بعيداً عن أن يتهم أو يعاقب. فلسوء الحظ لم تصدر أية دعوة رسمية

لتطبيق العدالة ضد أحمد جبريل والجبهة الشعبية ـ القيادة العامة. حتى حين كان هو ومنظمته مشتبهين أمام الناس في تفجير البانآم 103. لقد حافظ هذا الرجل المتملص بواسطة المكر، والحظ، والسمسرة السياسية، على نفسه دون أن يمسه أحد.

فقائد الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ كان صامداً في إنكاره لأية علاقة بكارثة اللوكربي، رغم أن دليل علاقته السرية بايران، وبيانات دلقموني للشرطة الالمانية الغربية، وتقارير المخابرات الأمريكية يمكن أن تورطه أكثر من أي مشتبه آخر في هذه العملية.. ولعل أقوى نفي له هو الذي جاء في 9/1/1990 حين عقد مؤتمر صحفياً في حي مارالياس للاجئين جنوب بيروت. فقد صرح جبريل الذي كانت تحيط به مجموعة من الحراس (ومن بينهم حراس من الحرس الثوري) وهو يحمل بندقية هجومية ومعدات اتصال حديثة: «لقد بدأت علاقاتنا بالثورة الاسلامية في ايران قبل حادثة البانآم وأن الانباء عن تورطنا في تفجيرها ليست سوى أكاذيب اعلامية لا أساس لها من الصحة..» وأضاف جبريل ساخراً: «إن ايران ليست بحاجة لقوات فلسطينية في حربها ضد الامبريالية».

كانت عملية ضرب البانآم 103 قد عززت من موقف جبريل مع الايرانيين، ومن المؤكد أن يكونوا قد وعدوه بفرص يحصل من خلالها على مكافآت مالية أكبر. في كانون ثاني 1989 وأثر اجتماع سري بين جبريل ومحتشمي أرسل الايرانيون بعض مئات من فدائيي الحرس الثوري إلى قواعد الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ في لبنان لتقوية «الجبهة الاسلامية الموحدة ضد الصهيونية» وللمساعدة على حماية جبريل، وقواعده من أي هجوم. في السنوات العشرين من عام 1968 حتى عام 1988 قتل جراء تفجير طائرات الركاب 1120 شخصاً، وقد ازدادت عمليات التعرض للركاب المسافرين، وأصبحت بلاءً عالمياً، جعل معظم الدول تتعهد بالنضال ضده لكن لم ينفذ ما تعهد به سوى القليل.

الزمن فقط هو الذي سوف ينبىء عما إذا كان العالم قد تعلم درساً من كارثة لوكربي. فالوسائل الجديدة لتحويل الطائرات المدنية إلى طائرات ضد القنابل

يجري فحصها الآن، ومن ضمنها استخدام ألواح لا تتفجر لوضعها في حجرات الشحن اضافة إلى إجراءات وقائية، منها استخدام أجهزة تستطيع الكشف عن المتفجرات البلاستيكية يجري فحصها الآن في المطارات الدولية.

في حزيران 1991 قضي على حافظ دلقموني بالسجن لمدة 15 سنة لدوره في العملية المسلحة ضد قطارات القوات الأمريكية في المانيا، وحكم على عبد الفتاح غضنفر بالسجن مدة ثمانية أشهر وكلاهما ما زالا واثقين من أن مدة حبسهما لن تطول.. ويظهر أن الألمان يرغبون بإنهاء محنة مبادلة دلقموني وغضنفر في أي تبادل سجناء يمكن أن ترتبه بالمستقبل الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ أو أبو نضال أو الايرانيون.

إن حرب الغرب ضد «الارهاب» خاصة ضد «ارهابي» «ماستر» مثل جبريل ما تزال حرباً خاسرة. وحتى حين قام سلاح الجو الإسرائيلي بشن غارة ناجحة في 16/ 2/ 1992 ضد قافلة مسلحين كانت تقل زعيم حزب الله الشيخ عباس موسوي، الرجل المسؤول عن خطف الرهائن وعن تفجير مقر المارينز عام 1983 بدا أن الصحافة أخذت تركز علياالارهاب الإسرائيلي أكثر من التركيز على قتل رجل لطخت يداه بدماء المئات من القتلى.

الكثير من رجال الصحافة الأمريكية، وعلى سبيل المثال الصحفي الشهير روبرت نوفاك كانوا قد انتقدوا قتل إسرائيل لموسوي في (السي ان ان) في 21/ 2/ 1992 ببرنامج «كروس فاير»، مدعين أن موسوي كان له دور بارز في تأمين اطلاق سراح الرهائن الامريكيين في لبنان (دون ذكر أن موسوي هو الذي أمر باحتجاز الرهائن). بعد أسابيع على أية حال عاد موضوع «الإرهاب» وانتقل من الاعلام إلى معاقل عملاء حزب الله في الأرجنتين، حين فجروا سيارة مفخخة أمام السفارة الإسرائيلية في بوينيس ايريس، حيث قتل ما يزيد على 20 شخصاً في ذلك الهجوم وتعرض المئات لجروح خطيرة..

ملحق

ربما تكون الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى قد أقلعتا عن ملاحقة أحمد جبريل والقيادة العامة لدورهما في تفجير طائرة البانآم 103. لكن إسرائيل ما تزال تعتبر هذا الزعيم «الإرهابي» الماكر أكثر من يهدد سلامة الدولة اليهودية في يومنا هذا. فكما تقول القدس هو رجل يجب معاقبته على جرائمه القديمة بغية ضمان انهاء الأعمال «الإرهابية» في المستقبل.

وتبقى لوكربي وما تبقى من هيكل الطائرة بانآم رحلة 103 تذكر مؤسسة الدفاع الإسرائيلية بأن أحمد جبريل رجل ينبغي ايقافه... وربما فشلت عملية هجوم رجال كوماندو غولاني في 8 و9 كانون أول على قاعدة جبريل في الناعمة في تحقيق هدفها الحقيقي والنهائي، لكن الجيش الإسرائيلي مايزال يواصل ضغوطه الجوية على الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ منذ ذلك الوقت. فمنذ تدمير بانآم 103 فوق لوكربي مروراً بكانون ثاني 1992 قام سلاح الجو الإسرائيلي بشن ما يزيد على ثلاثين غارة جوية على الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ لوحدها. بعض الغارات كانت ناجحة خاصةغارة 24 آذار 1989 التي قصفت خلالها مواقع في شمال البقاع حيث قتل 15 «إرهابياً» من بينهم ضباط، اضافة إلى عدد آخر من الجرحى.. ويعتقد الكثير بأن ذلك الهجوم الذي دخل عمق الأراضي الواقعة تحت ادارة وسيطرة السوريين، كان بمثابة بيان مباشر ضد جبريل وحافظ الأسد. فعلى ضوء ما وقع في لوكربي دخل الاثنان في اللعبة. وقد كان سلاح الجو الإسرائيلي يرغب حقاً بالدخول في مخاطرة لا تصدق، وببذل جهد كبير لعرقلة قدرات الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ على شن حرب ثورية ضد إسرائيل.

وفي 17 آذار 1990 قامت قاذفات سلاح الجو الإسرائيلي بقصف قاعدة بحرية للقيادة العامة في خان خياط شمال طرابلس لبنان. وكانت هذه الغارة هي أقصى

ما يصل إليه سلاح الجو في لبنان منذ عام 1987. وفي هذا الهجوم قصفت الطائرات عدداً من القوارب البحرية الهجومية، وهي فوق المياه، ثم توجهت بقصفها إلى مخازن الذخيرة، والسلاح المليئة بالتجهيزات والمتفجرات التي كانت ليبيا تزود بها القيادة العامة، ومن ضمنها متفجرات سيمتيكس التي خزنت هناك.

وكانت أكبر عمليات الهجوم على القيادة العامة هي التي جرت في 4 حزيران 1991 وهي أكبر عملية جوية يقوم فيها سلاح الجو الإسرائيلي منذ اجتياح عام 1982 فقد قام مايزيد على عشرين قاصفة، ومقاتلة بالهجوم على أهداف للجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ في كل أرجاء جنوب وشرق لبنان. وفي بعض الأحيان كانت معسكرات جبريل تقصف عدة مرات كل شهر.. وعلى نفس المنوال لم يكن جبريل مبالياً بهذا القصف الجوي الذي كانت قواته تتلقاه من سلاح الجو بل إنه كان في الحقيقة معتداً بنفسه، وغالباً ما يسخر من الإسرائيليين ومحاولاتهم قتله. وبعد الغارة على الناعمة وكارثة لوكربي أصبح لدى جبريل اسباباً موجبة للشعور بالثقة. فقد ظهر وكأنه شخص لا يمكن لأحد أن يمسه، لا من السويسريين، ولا من الألمان، أو البريطانيين، أو الامريكيين ولا حتى من الإسرائيليين. وربما كان محقاً.

في الرابع من شباط عام 1990 قام رجال القيادة العامة ـ المسلحون بمهاجمة باص ركاب يقل سياحاً إسرائيليين من القاهرة إلى قناة السويس حيث قذفوا عليهم قنابل يدوية وأطلقوا النار عليهم من رشاشاتهم. وكان سائق الباص العربي يعمل بالتنسيق مع المسلحين وهو فلسطيني ولد بالقاهرة، قد أوقف الباص عند المكان المعد للهجوم في الطريق الصحراوي وقفز من النافذة في حين أخذ المسلحون يطلقون مئات الطلقات، ويلقون القنابل اليدوية على الباص وركابه.. وحين اقتنع المسلحون بأن جميع الركاب قد قتلوا اختفوا من المكان عبر الممرات الصحراوية والظلمة.. وصل عدد القتلى إلى تسعة بينما تعرض عشرين لجراح خطيرة.. وكان هذا الهجوم يشير إلى تزايد نشاط الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ في شمال افريقيا، والذي ترافق مع ازدياد محاولات جبريل على شن عمليات «ارهابية» ضد إسرائيل عن طريق الحدود الأردنية.

وقد اعتبرت العديد من التقارير الاستخبارية تحركات جبريل هذه ناجمة عن ايحاء ايراني بل إن التحالف «الإرهابي» الوثيق الذي تشكل من عملية تفجير طائرة بانآم 103 أخذ يصبح جدياً في تموز 1989 حينما قام جبريل بزيارة رسمية إلى ايران للاجتماع بآية الله خامنئي خليفة الخوميني في طهران.

علاقة جبريل الوثيقة بايران أكسبته شيئاً لم يحظ به إلا القليل من القادة الفلسطينيين وهو: النفوذ السياسي، فقد تحولت جمهورية ايران الاسلامية إلى أكثر دولة تثير الفزع بالعالم، وإلى قوة لا بد وأن يحسب حسابها في تشكيلة الشرق الأوسط والخليج. وبواسطة الدعم العسكري والأمني السوري والمال الايراني سيتمكن جبريل من تعزيز قواته العسكرية داخل الثورة الفلسطينية، وبشكل لم يفعله أي قائد فلسطيني من قبل.

وسيتمكن جبريل طالما وأن ايران خلفه (يزعم جبريل بأن له علاقة بالاسير الطيار الإسرائيلي رون عراد الذي يحتجزه حزب الله) وسوريا طليعته من حشد مليون مقاتل ضد إسرائيل وكذلك من إعطاء التأييد الروحي للمجاهدين الاسلاميين في منظمة حماس في الضفة الغربية وقطاع غزة.

وقد قامت القيادة العامة بتصعيد عملياتها ضد القوات الإسرائيلية في لبنان، وعززت مواقعها في مواجهة الجيش الإسرائيلي في المنطقة الأمنية في جنوب لبنان، وهي تساعد هناك حزب الله في هجومه ضد القوات الإسرائيلية على طول الحدود مع لبنان. في 25/ 11/ 1990 وفي احتفاله بمناسبة العيد الثالث لعملية الطيران الشراعي ضد إسرائيل حاول جبريل القيام بهجوم محمول بالبحر على أهداف في شمال إسرائيل. فقد انطلق خمسة مسلحين من القيادة العامة مجهزين بالأسلحة الخفيفة والمتوسطة المضادة للدبابات من منطقة صيدا في جنوب لبنان مستعملين قوارب بحرية سريعة نحو الساحل الإسرائيلي، كان هدفهم القيام بعملية انتحارية في احدى المدن الساحلية في إسرائيل، ولكنهم وقبل أن يصلوا إلى الأراضي الإسرائيلية لتنفيذ المذبحة قامت دورية من سلاح البحرية الإسرائيلية بتفجير قاربهم وقتل الخمسة «إرهابيين».

كان أحمد جبريل بالهدف الذي حمله طوال حياته لتدمير إسرائيل، والمنظمات التي قادها لتحقيق هذا الهدف قد سار إلى ابعد حدوده من أجل شن حرب مقدسة ضد الدولة اليهودية. ولقد انتقل الصراع العربي ـ الإسرائيلي بجبريل من الاحباط إلى واحد من أكثر الرجال المطلوبين في العالم. وبينما تقترب إسرائيل من موعد الإحتفال بمرور خمسين عام على وجودها يبدو أن جبريل ما زال يحاول تصعيد الكفاح، وتحويله إلى قوة مدمرة قبل أن يفوت الأوان. فالجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ حصلت على عشرات من الطائرات الشراعية، بمحركات خفيفة الوزن، وطائرات تسير على التحكم عن بعد، من عدد من الشركات البريطانية والفرنسية والألمانية. والهدف من هذا الاسطول «الإرهابي» الذي يحمل دون ضجة في الجو محاربين انتحاريين ضد أهداف في شمال إسرائيل مروع جداً. ولعل أكثر ما يقلق، ويفزع الأمن الإسرائيلي هو حقيقة أن ـ القيادة العامة ـ عبر المساعدات الايرانية والسورية ـ أخذت توظف استثمارها في الخدمات الميكروبيولوجية المخصصة لانتاج المواد البيولوجية التي يراد استخدامها في المستقبل في العمليات «الإرهابية» ضد إسرائيل.

وللبرهنة على جدية حربها الثورية بالمستقبل تعهدت الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ بالقيام بعمليات نوعية تؤدي إلى ضرب مئات الآلاف من اليهود السوفيات المهاجرين إلى إسرائيل.

فأحمد جبريل يدرك جيداً أن الهجرة اليهودية إلى إسرائيل هي جوهر الصهيونية، ولا يمكن وقف ظاهرة تدفق أكثر من 200 ألف بهودي سوفياتي مهاجر إلى إسرائيل إلا بالمقاومة المسلحة واراقة الدماء الغزيرة.

في مقابلة نادرة اعطاها جبريل للصحفي الامريكي ريتشارد تشيزنوف أعلن جبريل: «نحن الفلسطينيين ينبغي أن نستمر بشن الكفاح المسلح مهما كان الثمن. . لقد قاتلنا 150 سنة ضد الصليبيين، إلى أن تحقق لنا النصر ونحن الآن نقاتل إسرائيل خلال مايزيد على أربعين سنة». لكن أحمد جبريل على أية حال يمكن أن لا يعيش مئة عام يشن خلالها الكفاح المقدس ضدالصهيونية. إن سلاح

الجو الإسرائيلي ما يزال يكرس نفسه لإنهاء مهمة أحمد جبريل، عبر غاراته التي لا تتوقف كحرب ثورية إسرائيلية ضد الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ فقد كان آخر وأعنف هجوم جوي هو الذي استهدف الناعمة، وهذا يمثل رمزاً للرغبة المستمرة في تصفية جبريل. فمنذ كانون أول 1988 وحتى نيسان 1992 كانت طائرات سلاح الجو تشن غارات دائمة على قاعدة الناعمة التابعة للقيادة العامة. وكما تقول التقارير الأجنبية كانت هذه الغارات تستهدف اغتيال أحمد جبريل أثناء زيارته لتلك القاعدة. ولأن سلاح الجو يدرك جيداً أن انفاق الناعمة منيعة ومحصنة ضد القصف التقليدي فقد قام سلاح الجو باستخدام قذائف ذكية يقصفها من ارتفاع 8 آلاف قدم، وعبر توجيه لايزري على مداخل الانفاق.

ورغم أن الغارات الجوية قد دمرت فعلاً انفاق الناعمة، إلا أن جبريل لم يمس بأي أذى..

وقد ظهر في ذلك الوقت أن الجيش الإسرائيلي والسي آي ايه والموساد هو من أصبح الآن العدو الأكبر لأحمد جبريل. في عام 1990 ألمحت العديد من التقارير إلى أن أحمد جبريل يعاني من مرض خطير في دمشق وأنه كان قريباً من الموت. وبغية متابعة استمرار شرعية الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ يعتقد بأن جبريل قد عين طلال ناجي نائبه كخليفة له، ومع ذلك يبقى جبريل رجل يعاديه الكثير ويعمل في مهنةٍ يصبح فيها العمر الكبير سلعة نادرة..

«فالإرهابيون» ببساطة لا يعتزلون ويذهبون إلى التقاعد. وربما يلقى نهايته مثل علي حسن سلامة، أو مثل أبو جهاد اللذين قتلهما الإسرائيليون، أو أبو اياد الذي قتله زميل فلسطيني تابع لأبو نضال، وربما يلقى نهايته مثل معلمه الخاص العجوز جورج حبش، ويجبر على التوسل للغرب طلباً للمساعدة الطبية حتى لو كانت محفوفة بخطر الاعتقال والسجن، كما حدث في كانون ثاني 1992 حين أرسل جورج حبش بشكل سري إلى مستشفى في باريس وهو يعاني من مرض القلب. أو ربما ينضم جبريل إلى خصمه اللدود ياسر عرفات ويقضي أيامه المتبقية من حياته كرجل جعله السن والهزيمة في حالة تواضع. وهكذا يجبر على الموت في المنفى في أرض غريبة..

وربما يكون أكبر عقاب له هو أن لا يطأ بقدمه مرة ثانية «أرضه المقدسة فلسطين». . .

إن عجز الفلسطينيين عن تحقيق امانيهم الوطنية بالدولة المستقلة (وعدم تدمير إسرائيل أيضاً) ربما يمثل أكبر مأساة للثورة «الإرهابية» الفلسطينية التي انطلقت بالمنطقة منذ نهاية حرب عام 1967. وربما كان هذا المسلسل المؤلم للعنف هو أكبر مأساة للشعب الفلسطيني.

لكن لا بد للمعركة النهائية بين أحمد جبريل وأعدائه الألداء أن تجري. حربه، حرب إسرائيل، حرب العالم آن لها الأوان أن تنتهي هي ايضاً.

المصادر

1 ـ آرييه حاصبيا ـ مليون جندي ضد إسرائيل مجلة بماحانية 13 تشرين ثاني، 1991

2 ـ سرطان واسمه «الارهاب» للمؤلف الإسرائيلي بوعاز غانور

3 ـ هيلينا كوبان «منظمة التحرير الفلسطينية ـ الشعب ـ السلطة والسياسة» ـ لندن جامعة كامبريدج 1984 ص31

4 ـ الموسوعة العسكرية للجيش والدفاع ـ تل أبيب ـ 1981

5 ـ م.ت.ف ـ مكتبة معاريف 1985 ـ ص50.

6 ـ ستيفن اميرسون وبرايان دوفي ـ بانآم 103 ـ العلاقة الالمانية ـ مجلة نيويورك تايمز 18/ 3/ 90 ـ ص84.

7 ـ قاموس م.ت.ف ـ تل أبيب ـ نشر وزارة الدفاع الإسرائيلية عام 1991 ـ ص123

8 ـ شارون سيجيف ـ الفرقة الأولى ـ مجلة سلاح الجو الإسرائيلي.

9 ـ السياسة الوطنية الفلسطينية ـ بيريكلي ـ جامعة كاليفورنيا، 1973 ص62

10 ـ ستيفن ايميرسون وبرايان دوفي كتاب بعنوان: سقوط البانآم 103 في قلب التحقيقيات في لوكربي ـ نيويورك ـ ص112

11 ـ يوشيفيد فاينتراوب، «المنظمات الإرهابية» تل أبيب ـ القائد الأعلى للتوجيه في الجيش الإسرائيلي ـ مطبوعات وزارة الدفاع عام 1974 ص15.

12 ـ داخل م.ت.ف ـ بقلم نيل ليفينغستون ـ ودافيد هاليفي ـ نيويورك 1990 ص219.

13 ـ وثائق الناطق باسم الجيش الإسرائيلي ـ 1964 ـ 1982 صدور عام 1983 ص2

14 ـ مقابلة مع ضابط من المخابرات العسكرية 29/ 5/ 1990 رامات افيف ـ إسرائيل

15 ـ كليرستيرلينغ ـ شبكة «الارهاب» ـ نيويورك ـ بيركلي بوكس ـ 1982 ـ ص255

50 ـ شموئيل كاتس حراس بلا حدود ـ حرب إسرائيل ضد الارهاب (لندن 1990).

51 ـ عن طريق الخداع. . كتاب عن المخابرات الإسرائيلية (نيويورك 1990) فيكتور اوتروفيسكي

52 ـ بيل سمولوي «أسئلة عن التورط السوري» ـ التايم 20/10/1986

53 ـ ايمانويل روزين ـ 11 ساعة في ليلة الطائرات 27/11/1987 معاريف.

54 ـ زئيف شيف وايهود ياعاري «الانتفاضة» نيويورك 1989

55 ـ مقالات لعدد من المحررين ـ أحدها: «إسرائيل قبضت على وثائق من تونس تضم أسماء رجالها في الضفة والقطاع» يديعوت أحرونوت 8/5/1988

56 ـ الرائد لويس ويليامس ـ «لواء غولاني».

57 ـ دافنة فاردي «فشل محاولة نسف مقر قيادة جبريل عن طريق الكلاب المتفجرة» عل همشمار 11/12/1988

58 ـ ايمانويل روزين «القوة التي أنقذت الجرحى في الناعمة» معاريف 11/12/88

59 ـ المراسل العسكري ليديعوت احرونوت: «شومرون اتخذ قراراً جريئاً»

60 ـ أهارون لابيدوت «معركة في الليل ـ وانقاذ في النهار» ص34

61 ـ باتريك سيل «سلاح للايجار ـ أبو نضال» 1992

62 ـ يوسي ميلمان ودان رافيف: «جواسيس غير كاملين ـ تاريخ المخابرات الإسرائيلية» لندن 1990

63 ـ نايل ليفينغستون ـ ودافيد هاليفي «داخل م.ت.ف» نيويورك 1990

64 ـ شلوموشيمفير «رجال جبريل الذين اعتقلوا في المانيا لم يخططوا لضرب هابوعيل رامات غان» يديعوت أحرونوت 30/10/1988

65 ـ «المشتبة بتفجير البانآم مدان بعمليات أخرى» نيويورك تايمز 22/12/1989

66 ـ ميشيل واينز: «لجنة التحقيق تدرس الادعاء بوجود دور لعميل في تفجير البانآم» ـ نيويورك تايمز 1/11/1990

67 ـ يوسف م. ابراهيم «ليبيا تنفي علاقتها بتفجير الطائرة» نيويورك تايمز 28/6/1991

68 ـ «المتطرفون الفلسطينيون ينفون علاقتهم بتفجير البانآم» نيويورك تايمز 10/ 1/ 1990

69 ـ برايان ميشيل جينكنز: «التهديد الإرهابي للملاحة الجوية». مجلة الجيش الإسرائيلي ـ الخريف 1990.

70 ـ جروزليم بوست 28/ 5/ 1990 ـ «الفلسطينيون ـ واحتلال الطائرات الشراعية».

71 ـ يديعوت أحرونوت 10/ 5/ 1990 «الفلسطينيون لديهم عشرات الطائرات الشراعية».

الفهرس

نُشر هذا الكتاب باللغة الإنكليزية في الولايات المتحدة، وظهرت طبعته الأولى عام ١٩٩٣م أي أنه مقدم بالأساس للقارئ الأمريكي والرأي العام الأمريكي. وكان توقيت نشر هذا الكتاب في ذلك التاريخ مقصوداً بقدر ما كان مقصوداً مكان نشره، مما يجعلنا واثقين تماماً أنه أبعد ما يكون عن الدراسة العلمية، أو البحث المحايد، بل في الحقيقة هو جزء من الحملة الدعائية للكيان الصهيوني واللوبي الاسرائيلي لتأليب الرأي العام الأمريكي ضد قضية العرب المركزية، وضد بعض الدول العربية وبشكل خاص ضد فصيل فلسطيني محدد بل ضد شخص مناضل عربي فلسطيني تحديداً. ومن مقاصد هذا الكتاب أيضاً ترويج رؤية الصهيونية لحقائق هذا الصراع بما فيها من تشويه للحقائق في أوساط الجمهور الأمريكي والذي بالتأكيد، وكما يدرك المؤلف، لن ينقب ويتساءل عن صحة هذه المعلومة أو تلك الواردة في الكتاب ولن يضع ما يسوقه المؤلف مما يعتبره حقائق أمام التمحيص والتدقيق، وهذا ينبهنا أكثر فأكثر إلى أن عدونا يعمل دون كلل وفي شتى المجالات، وبنشاط متكامل ومدروس لكسب ود وتعاطف الرأي العام الأمريكي، وتصويرنا على أننا قتلة متعطشين للدماء، مما يضع على كاهلنا، وكاهل مثقفينا وأجهزتنا الإعلامية عبئاً مضاعفاً لموازاة هذا النشاط، ولا أخالنا بحاجة إلى التنويه بدور الكلمة والإعلام في هذا الصراع.

وجهد الأستاذ تحسين الحلبي في ترجمة هذا الكتاب إنما يقع في باب نشر معرفة ما يقوله العدو عنا وكيف يفكر بنا.